أبو نواس

الحسن بن هانئ

دراسة فنية نفسية اجتماعية أخلاقية

أبو نواس

الحسن بن هانئ

دراسة فنية نفسية اجتماعية أخلاقية

د. إبراهيم عوض

مكتبة جزيرة الورد

القاهرة

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

تنويه

(هذه الدراسة تضع نصب عينيها، طوال الوقت، كتاب المستشرق Philip Kennedy: "Abu Nuwas - A Genius of Poetry" الصادر عن دار "Oneworld Publications" بأكسفورد ضمن سلسلة "The Makers of the Muslim World" عام ٢٠٠٥م)

حياة أبى نواس وشخصيته:

أبو نُوَاسٍ لَقَبُه، أما اسمه فالحسن بن هانئ، وكنيته "أبو على". ولُقِّبَ: "أبا نواس" لِخُصْلَة أو خُصْلَتَين من الشَّعْر كانتا تتدليان فوق كتفيه، فإذا سار أو جَرَى ناسَتَا، أى تحركتا يمينا ويسارا. وهو ما أشار إليه المستشرق فيليب كيندى مؤلف الكتاب الذى بين أيدينا: "Abu Nuwas- A Genius of Poetry" (ص١)، وإن كان قد أشار أيضا (ص٢) إلى ما يقوله بعض القدماء من أن ذلك اللقب يرجع إلى ذى نُوَاس ملك اليمن القديم باعتبار نسبة أبى نُوَاس إلى عرب الجنوب. كما ذكر المستشرق (ص١) أن أصدقاءه كانوا ينادونه غالبا بـ"أبى على". ولا أدرى كيف حكم مستشرقنا بأن هذا هو اسمه الذى كانوا غالبا ما ينادونه به. لو قال إنهم كانوا ينادونه به ضمن أسماء أخرى لكان أصوب لأنه كان معروفا بـ"أبى نواس" وبـ"الحسن" وبـ"النواسى" أيضا، والمستشرق لم يكن يعيش فى عصر شاعرنا ولا كان من أصدقائه حتى يعرف أى هذه الأسماء الثلاثة كان الشاعر ينادى بها فى الغالب. ولا بد لى مع هذا أن أُقِرّ بأنى لم يخطر لى قبلا أنهم كانوا ينادونه بـ"أبى على"، إلى أن قرأت كلام الكاتب فتنبهت إلى أن أصحابه كانوا فعلا ينادونه أحيانا بذلك، وهو ما أثار اهتمامى، إذ معنى هذا أن العرب من قديم كانوا يقولون لمن اسمه حسن: "أبو على". وكنت أظن أن ذلك من بُنَيات العصر الحديث، وعند المصريين خاصة دون غيرهم من العرب، مثل قولهم: "أبو درش، وأبو حميد، وأبو حنف...".

وقد قرأت لشاعرنا بيتين شعريين يشير فيهما إلى نفسه بـ"أبى على"، ففى مطلع كتاب "أخبار أبى نواس" لأبى هفان نقرأ ما نصه: "دخل أبو نواس على يحيى بن خالد، فقال له يحيى: "أنشدنى بعض ما قلت"، فأنشده:

إنــــى أنــــا الرجــــل الحكيــــم بطبعــــه ويزيــــد فى علمــــى حكايــــةُ مَــــنْ حَكَــــى

أتتبّــــع الظرفــــاءَ أكتــــب عنهمــــو كيــــما أحــــدّثَ مــــن أُحِــــبّ فيــــضحكا

فقال يحيى: إن زَنْدَكَ لَيرِى بأوّل قَدْحَةٍ. فقال أبو نواس فى معنى قول يحيى ارتجالا:

أمَــــا وزَنْــــد أبــــى عــــلى إنّــــه زَنْــــدٌ إذا اســــتَوْرَيتَ ســــهَّل قَــــدْحَكا

إن الإله، لعلمــــه بعبــــاده، قــــد صــــاغ جِــــدَّك للــــسماح ومَزْحَكــــا

تــــأبى الــــصنائعَ هِمَّتــــى وقريحتــــى مــــن أهلهــــا، وتَعَــــاف إلا مَــــدْحَكا"

فقد أشار الشاعر إلى نفسه بـ"أَبِى عَلِىّ"، وإن كان ناسخ الكتاب ومؤلفه لا يتحدثان عنه إلا بـ"أبى نُوَاس"، اللّهم سوى مرة واحدة فى أواخر الكتاب. ومعنى هذا أن "أبا نواس" هو الاسم الذى غلب عليه. أما "أبو على" فنادرا ما قابلتها فى كتاب أبى هفان رغم أنه قد وضعه خصيصا لترجمة الشاعر وسرد أخباره وأقواله حتى إنى لم أجدها فيه إلا فى الأخبار الأربعة التالية: الأول على لسان إبراهيم بن الخصيب بن عبد الحميد: "شرب أبو نواس عند أبى يوما بحمص من شرابٍ حسنٍ، فأكثر له الساقى من المزج، فقال: ما وجدتُ منذ اليوم طعم الشراب. فقال أبى: اسقه صِرْفًا يا غلام. فسقاه، ثم وجبت العِشَاءُ، فصلينا وهو قاعد، ثم صلينا العشاءَ الآخرةَ وهو قاعدٌ لم يصلِّ، فقال له أبى: الصلاة يا أبا على. فقال: ليس على السكران صلاة". والثانى على لسان محمد بن سعيد حيث يحكى أنه "لقى أبا نواس قبل موته بجمعة وقد تَأَلَّهَ وتَقَشَّفَ، فقال له: يا أبا على، ما هذا؟ إلى كم يكون الشذوذ عن الله والتهور فى الضلالة؟ فقال: لا عدتُ واللهِ فى الضلالة ولا فى معصيةٍ ما حملتْ عينى الماء. وإن نفسى لتتقطّع حسرات على ما

فرَّطْتُ من سوالف زَلَلِى. فلما كانت الجمعة الأخرى قيل لنا: الحقوا جنازة أبى نواس". والخبر الثالث عن العتبى، وفيه "أن أبا نواس كان عند محمد بن زُهَير فى يوم من أيام شهر رمضان يتحدث، وكان محمد شديد المحبة له مغرما بقربه، فتذاكرا الشراب فقال: يا أبا على، كيف صَبْرُك عنه بالنهار؟ فقال: صبرٌ ضعيفٌ لا أحمده ولا أَعُدّه صبرا، وإن كنت أستوفى ليلا ما يفوتنى نهارا. ولو أجد مساعدا ما فقدته وما فقدنى فى ليل ولا نهار. ثم أنشأ يقول:

لو أن لى سكنًا فى الناس يسعدنى ... لما انتظرتُ لشرب الراح إفطارَا

الراح شىء عجيب أنت شاربه ... فاشرب، وإن حَمّلتك الراحُ أوزارَا

يا من يلوم على حمراءَ صافيةٍ ... صِرْ فى الجنان ودَعْنى أدخلِ النارَا"

والخبر الرابع والأخير عن يوسف ابن الداية. قال: "كان أبو نواس قاعدا عندنا فى سوق الرقيق وهو يعترض الجوارى، فاشترى عِدّةً وباع عِدَّةً، وكُنَّ حِسَان الوجوه آخذاتٍ بالألباب، فقال له: يا أبا على، تترك مثل هؤلاء اللواتى يرْغَب فيهن، وترغب فى الغلمان؟".

وقد ذكر ابن تغرى بردى فى "النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة" أن أصحابه كانوا ينادونه أولا بـ"أبى على"، ثم صاروا ينادونه بـ"أبى نواس" بسبب ذؤابتين كانتا تتدليان من شعره على عاتقيه وتنوسان إذا تحرك. فإذا صح هذا الكلام فمعنى هذا أن اللقب الذى غلب عليه هو "أبو نواس" لأن الذؤابتين كانتا فى صباه. ومع ذلك فقد رأينا بعض من يعرفونه ينادونه بـ"أبى على" بعدما كبر.

وأبو نواس شاعر عباسى من شعراء القرن الثانى الهجرى وُلِد بالأهواز فى العراق عام ١٢٩هـ، ومات ببغداد فى ١٩٨هـ، وإن كانت هناك تواريخ أخرى

لميلاده ووفاته. وكانت أمه جُلَّبَان أهوازية، وقد رماها كامل الشناوى فى كتابه: "اعترافات أبو نواس" بإدارة بيت للدعارة بعد موت زوجها دون أن يقدم دليلا على ما يقول. أما أبوه فكان من جند مروان بن محمد الخليفة الأموى الأخير. وكان لشاعرنا أخوان: أبو محمد وأبو معاذ، وإن كانا لا يظهران فى حياته ومن ثم لا نعرف أخبارهما. ومات أبوه وهو ولد صغير، فنقلته أمه إلى البصرة وهو ابن ست سنين، فاشتغل عند أحد العطارين وأخذ يختلف إلى الكُتّاب.

وهنا نجد فيليب كيندى يقول إن جُلَّبَان أمَّ أبى نواس قد تزوجت، فيما يبدو، مرة أخرى بعد موت أبيه (ص٢)، معتمدا فى كلامه هذا على آخر بيت من الأبيات المذكورة فى نهاية الخبر التالى الذى أتعبنى حتى عثرت عليه، إذ اكتفى المستشرق بالإشارة إلى البيت بالإنجليزية دون أن يذكر مرجعه فيه، بل دون أن يذكر الأبيات الأخرى معه، فكان علىَّ أن أبتدع بعض الحيل للوصول إلى أصله العربى، إلى أن نجحت فى الوصول إليه بكتاب "الأغانى" ثم فى غير "الأغانى" أيضا. قال أبو الفرج: "أخبرنى محمد بن جعفر النحوى صهر المبرد قال: حدثنا أبو هفان قال: حدثنى الجماز قال: كان يحيى بن خالد البرمكى قد جعل امتحان الشعراء وترتيبهم فى الجوائز إلى أَبَان بن عبد الحميد، فلم يرض أبو نواس المرتبة التى جعله فيها أبان، فقال يهجوه بذلك:

جالَستُ يومًا أَبانًا ... لا دَرَّ دَرُّ أَبانِ

حَتّى إِذا ما صَلاةُ الـ ... أُولَى دَنَتْ لِأَوَانِ

فقام ثَمَّ بها ذو ... فصاحة وبيانِ

فكلما قال قلنا ... إلى انقضاء الأذانِ

فقــــــال: كيــــــف شــــــهدتم ... بــــــذا بــــــغير عِيــــــانِ؟

لا أشــــــهد الــــــدهرَ حتــــــى ... تُعَــــــاينَ العينــــــانِ

فقلــــــت: ســــــبحان ربــــــى! ... فقــــــال: ســــــبحان مــــــانى!

فقال أبان يجيبه:

إن يكــــــن هــــــذا النُّوَاسِــــــىْ ... ىُ بــــــلا ذنــــــبٍ هجانَــــــا

فلقــــــد ...ــــــناه حينًــــــا ... وصــــــفعناه زمانَــــــا

هــــــانئُ الجَرْبَــــــى أبــــــوه ... زاده الله هوانَــــــا

ســــــائلِ العبــــــاس واســــــمع ... فيــــــه مــــــن أمــــــك شــــــانَا

...

وجلنار أم أبى نواس، وتزوجها العباس بعد أبيه".

والحق أن البيت، كما هو واضح، لا يدل فى ذاته على ما تصوَّره المستشرق كيندى، بل تدل عليه العبارة التى عَقَبَت الخبرَ والتى لا توجد فى بعض الروايات الأخرى فى غير "الأغانى" رغم ذلك.

ثم تعرف أبو نواس إلى الشاعر الماجن والبة بن الحباب، الذى ساعده على صقل موهبته الشعرية. ولما مات والبة لزم الشاعرَ والراويةَ المعروفَ خَلَفًا الأحمر، فتعلم عنه وعن غيره من علماء البصرة والكوفة الشىء الكثير. ويورد المستشرق (ص٥) الرواية التى تذكر أن أبا نواس قد استأذن خَلَفًا الأحمر فى نظم الشعر، فقال له خلف: لا آذَن لك إلا أن تحفظ أَلْف مقطوع للعرب ما بين أرجوزة وقصيدة ومقطوعة. فغاب عنه مدة ثم عاد إليه وقد حفظ ذلك، فقال له

خلف: أَنْشِدْها. فأنشدها فى عدة أيام، فقال له خلف عندئذ: لا آذَنُ لك فى قول الشعر حتى تنسى هذه الألْف كأنك لم تحفظها! فذهب أبو نواس إلى بعض الأديرة وخلا بنفسه وأقام مدة حتى نسيها، ثم حضر إلى خلف قائلا: لقد نسيتُها حتى كأنْ لم أحفظها! فقال له خلف: الآن يمكنك أن تنظم الشعر!

ولا أظن الأمر قد جرى فى الواقع على هذا النحو بالحرف، بل المقصود أن الشاعر لا يمكنه الاعتماد على الموهبة الفطرية وحدها، إذ لا بد له من صقلها بحفظ الأشعار الكثيرة المتنوعة حتى تجرى منه مجرى الدم فى العروق وتنطبع المعانى والألفاظ والعبارات والتراكيب والصور والأبنية والروح الشعرية فى ذهنه وذوقه، فيستلهمها كلما أقبل على النظم. أما النسيان فالمراد به ألا يتحول ذلك المحفوظ إلى عبء على الذاكرة أو يكون كل عمل الشاعر هو المتْح من ذلك الخزان كما هو دون تصرف مما يفقده شخصيتَه وتميزَه ويحوله إلى مجرد بوق للآخرين، ومن ثم فعليه أن ينسج على منوال هذا المحفوظ بوجه عام دون أن يتعمد ذلك تعمدا بحيث يتنفس أنفاسه هو لا أنفاس الآخرين. ومن غير المعقول أن يضيع خلفٌ أيامه فى التحقق من حفظ أبى نواس لأشعار المتقدمين. ثم هل يعقل أن خلفا كان يحفظ كل أشعار العرب حتى ليقدر على تمييز ما حفظه أبو نواس من أشعار ويتيقن أنها فعلا أشعار صحيحة؟ بل هل كان معه عداد يحسب عدد النصوص الشعرية بحيث يتيقن أنها فعلا ألف لا أقل؟ وهل كانت ذاكرته فولاذية تستطيع التحقق من أن أبا نواس لم يكرر شيئا من النصوص المحفوظة فيقل عدد النصوص عن الألف المطلوب؟ وأخيرا هل هذا الصنيع من خلف الأحمر هو صَنِيعُ مُدَلِّسٍ نَحَّال كما اتهمه بعض الرواة؟

ولم يكن خلفٌ هو وحده الذى تنبه من بين النقاد العرب إلى أهمية دور الحفظ فى صقل الموهبة الشعرية، التى هى الأصل والتى لا يجدى الحفظُ صاحبَه

شيئا بدونها إذ تظل على حالتها الفطرية الساذجة الخشنة. لقد كان الأصمعى مثلا يؤكد أن الشاعر "لا يكون فى قريض الشعر فحلا حتى يرْوِى أشعارَ العرب ويسمعَ الأخبار ويعرفَ المعانى وتدورَ فى مسامعه الألفاظ".

وقال الجرجانى فى كتاب "الوساطة بين المتنبى وخصومه": "الشعر عِلْمٌ من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء، ثم تكون الدُّرْبة مادة له وقوة لكل واحد من أسبابه. فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرِّز. وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان. ولست أفاضل فى هذه القضية بين القديم والمُحْدَث، والجاهلى والمخضرم، والأعرابى والمولَّد. إلا أنى أرى حاجة المُحْدَث إلى الرواية أَمَسّ، وأجده إلى كثرة الحفظ أفقر. فإذا استكشفتَ عن هذه الحال وجدتَ سببها والعلة فيها أن المطبوع الذكى لا يمكنه تناول ألفاظ العربى إلا روايةً، ولا طريق إلى الرواية إلا السمع، ومِلَاك السمع الحِفْظ. وقد كانت العرب تروى وتحفظ، ويعْرَف بعضها برواية شعرِ بعض، كما قيل إن زهيرًا كان راوية أوْس، وإن الحُطيئَة راوية زهير، وإن أبا ذؤيب راوية ساعدة بن جُؤَية، فبلغ هؤلاء فى الشعر حيث تراهم. وكان عبيد راوية الأعشى، ولم تُسْمَع له كلمة تامة، كما لم يسمع لحسين راوية جرير، ومحمد بن سهل راوية الكميت، والسائب راوية كثير، غير أنها كانت بالطبع أشدّ ثقة، وإليه أكثر استئناسا".

وينصح ابنُ رشيق الشاعرَ فى كتابه: "العمدة" قائلا: "ولْيأخذ نَفْسَه بحفظ الشعر والخبر ومعرفة النسب وأيام العرب ليستعمل بعض ذلك فيما يريده من ذكر الآثار وضرب الأمثال، وليعلق بنفسه بعض أنفاسهم ويقْوَى بقُوَّة طباعهم. فقد وجدنا الشاعر من المطبوعين المتقدمين يفْضُل أصحابَه برواية الشعر ومعرفة الأخبار والتلمذة لمن فوقه من الشعراء، فيقولون: فلان شاعرٌ راويةٌ. يريدون أنه

إذا كان راويةً عَرَف المقاصد، وسَهُل عليه مأخذ الكلام، ولم يضق به المذهب، وإذا كان مطبوعًا لا علم له ولا رواية ضل واهتدى من حيث لا يعلم، وربما طلب المعنى فلم يصل إليه وهو ماثل بين يديه لضعف آلته، كالمقعد يجد فى نفسه القوة على النهوض فلا تعينه الآلة. وقد سئل رؤبة بن العَجّاج عن الفحل من الشعراء، فقال: هو الراوية. يريد أنه إذا روى استفحل. قال يونس بن حبيب: وإنما ذلك لأنه يجمع إلى جيد شعره معرفة جيد غيره، فلا يحمل نفسه إلا على بصيرة. وقال رؤبة فى صفة شاعر:

لقـــد خَـــشِيتُ أن تكـــون ســـاحرَا راويـــةً مَـــرًّا، ومَـــرًّا شـــاعِرَا

فاستعظم حاله حتى قرنها بالسحر".

كذلك يُحْكَى أن أبا نواس قد روى أشعار ستين امرأة من العرب وأشعار أكثر من هذا العدد من الرجال، وأنه كان عالما باللغة والفقه والحديث وعلوم القرآن. وقد أشار المستشرق كيندى إلى بعض ما أتقنه أبو نواس من علوم، واقفًا لَدُنْ وَصْف أبى إسحاق الحضرمى إياه بأنه أحسن قراء البصرة رغم لُثْغته وما فى صوته من بَحَحٍ (ص٦). كما أشار إلى أنه لم يدرس الحديث النبوى فقط بل علَّمه أيضا، وإن كان الذهبى فى كتابه: "الميزان" يرى أن أبا نواس غير جدير بأن يكون من رواة الحديث نظرا لانحرافه (ص٧). وهذا نص كلامه: "أبو نواس الشاعر المُفْلِق هو الحسن بن هانئ. شعره فى الذروة، ولكن فسقه ظاهر، وتهتكه واضح، فليس بأهل أن يرْوَى عنه. له رواية عن حماد بن سلمة وغيره. تُوُفِّيَ سنة نَيفٍ وتسعين ومائة". والملاحظ أن الذهبى لم يمنعه رفضه لأبى نواس كمحدث من رَفْعه إلى عَنَان السماء شاعرا.

إلا أن ثمة ملاحظة لغوية لا أود أن تفوتنى مناقشتها، إذ جاء فى كلام الذهبى كما رأينا: "تُوُفِّىَ سنة نَيفٍ وتسعين ومائة" بإيراد "نَيف" قبل العدد، فى حين يقول "تاج العروس": "النَّيفُ، ككَيسٍ... أَصْلُه "نَيوِفٌ" عَلَى "فَيعِلٍ". يقالُ: عَشَرَةٌ ونَيفٌ، ومِائَةٌ ونَيفٌ، وكُلُّ مازادَ علَىَ العَقْدِ فنَيفٌ، إلى أَنْ يبْلُغَ العَقْدَ الثّانِى. وقالَ اللِّحْيانِى: يقال: عِشْرُوَن ونَيفٌ، ومائَةٌ ونَيفٌ، وأَلْفٌ ونَيفٌ، ولا يقَال: نَيفٌ إلاّ بعد عَقْدٍ". فهل نقول إن الذهبى قد أخطأ الصواب أو على الأقل: فاته الأصوب؟ أم هل نتسامح مع مجىء "نيف" قبل العدد ما دام واحد بحجم الذهبى قد استعملها هكذا؟ لقد كنت أستخدمها قبل ذلك كما استخدمها الذهبى، لكننى راجعت نفسى منذ قرأت ما كتبه الزبيدى فى"تاج العروس" واقتنعت به على اعتبار أن "النيف" معناه "الزيادة"، ونحن نقول مثلا: "سأعطيك مائة وزيادة" ولانقول: "سأعطيك زيادة ومائة". لكن يمكن القول بأن "نيف" ليست هى كلمة "زيادة" نفسها. فلم لا يكون لكل منهما حكمها الخاص بها؟ ولم لا نوجه إتيان "نيف" قبل المائة فى كلام الذهبى بأن معناها: "زيادة على..."؟ وأترك المسألة عند هذا الحد، ولا أزيد.

ثم يمضى المستشرق فيورد الحكاية التالية دليلاعلى استهتار أبى نواس بعلم الحديث وإجراءاته: فقد داعب يوما شاعرُنا شيخَ الحديث بالبصرة عبدَ الواحد بن زيادة، إذ أقبل إلى مجلسه ذات مرة، وقد كثر عليه أصحاب الأحاديث ليسألوه عنها، فقال لهم: ليسألْ كل رجل منكم عن ثلاثة أحاديث مهمة، ولْيمْضِ. ففعل الناس ذلك حتى انتهى إلى أبى نواس، فقال: سَلْ يا فتى! فقعد بين يديه وأنشأ يقول:

ولقــــــدْ كنَّـــــا رَوَينــــــا عـــــن ســـــعيدٍ عـــــن قتَـــادَهْ

عـــــــــن زُرَارة بــــــــــن أَوْفَى أنَّ ســــــعدَ بــــــنَ عُبَـــــادَهْ

قـــــال: مـــــن مـــــاتَ مُحِبًّـــــا فلــــــه أجــــــر الـــــشَّهادَهْ

أتـــــــــرى ذاك صــــــــوابًا نَتَّبِــــــعْ منـــــه سَــــــدَادَهْ؟

فالتفت إليه الشيخ مغضبا وقال: اغرب عنى يا خبيث! والله لا أحدثك بعد ذلك ولا أعرف وجهك! فقال أبو نواس كالمحتج: والله لا أتيتُ مجلسك وأنت تردّ الصحيح من الأحاديث".

وللقصة رواية أخرى فى كتاب "الازدهار فيما عقده الشعراء من الأحاديث والآثار" للسيوطى تجرى على النحو التالى: "أخرج الشيرازى فى "الألقاب"، والخطيب وابن عساكر، والأبرقوهى فى "معجمه"، والسلفى فى "الطيوريات"، عن ابن عائشة قال: اجتمعتْ يوما جماعةٌ من أصحاب الحديث على باب عبد الواحد بن زياد، ومعنا الحسن بن هانئ، فخرج الشيخ وجلس ثم التفت إلينا فقال: ليخْتَرْ كل واحد منكم عشرة أحاديث. فجعلْنا نختار، فنظر إلى أبى نواس، فإذا هو لا يختار شيئا، فقال: يا فتى، مالك لا تختار شيئا؟ فأنشأ أبو نواس يقول:

ولقـــــــدْ كنَّـــــا روينـــــا عــــن ســــعيدٍ عــــن قتــــادَهْ

عــــن ســــعيد بــــن المــــسيب أنَّ ســــعدَ بــــنَ عبــــادَهْ

وعــــــن الــــــشَّعْبِى، والـــــشَّعْـ ـــــــبِى شـــــيخٌ ذو جـــــلادَهْ

وعــــــن الأخيــــــار يحكيـــــــه وعــــــن أهــــــل الوفــــــادَهْ

أنَّ مــــــن مــــــاتَ مُحبًّـــــا فلـــــه أجــــــر الـــــشَّهادَهْ

فقال له عبد الواحد: أُغْرُبْ يا خبيث، فوالله لا حدثُتك ولا حدثتُ أحدا اليوم لمكانك. فبلغ ذلك مالك بن أنس، فقال: عراقى غَثٌّ ليس له تمامُ نُسُكٍ ولا كمال طبع. فهلا حدّث مثلَه ليثَاب فيه مرتين. لَحَرِى أن يصْلِح اللهُ منه ما فَسَد بَعْد".

والواقع أن هناك فعلا حديثا يتضمن هذا المعنى، وهو منتشر بين الناس. وقد كان مثار سؤال وجواب فى مركز الفتوى بموقع "إسلام ويب" على النحو التالى، إذ بعثت فتاة تقول: "عندى سؤال أرجو الإجابه عليه: ورد حديثُ "مَنْ عَشِقَ وكَتَم وعَفَّ فمات فهو شهيد": فى سنده ضعف، لكن معناه صحيح. أنا بالفعل عشقت شخصا بجنون. وكنا نعمل معا، ولكنه ترك العمل وذهب إلى بلده. وطوال فترة طويلة لم أستطع نسيانه، بل تقدم لى البعض، ولكنى رفضتهم. ولو تقدم لى هو لوافقتُ حيث لم يعد لى الرغبة فى أى شخص آخر، ولتأكدى من مبادلتى هو لنفس الشعور. ولكن عدم استطاعته الزواج لأنه أصلا متزوج. هذا ما قاله. بعد ذلك بعدة سنوات لم أستطع كتمان حبه فى قلبى، وكان لا بد لى أن أبوح لشخص ما دون أن أعرفه أو يعرفنى. وخطرت لى فكرة هى البحث عن صديقة عبر الإنترنت. وبالفعل وجدتها، ولكنى لم أعطها اسمى الحقيقى ولا اسم الشخص الذى أحببته بل حكيت لها القصة فقط. فهل يعتبر هذا بوحا؟ وهل إذا مت أكون شهيدة أم لا ؟ أفتونى وجزاكم الله خيرا! أرجوكم لا تحوّلونى على فتاوى سابقة لأنى قد قرأتها كلها، ولم أجد إجابة على سؤالى".

فكانت الإجابة ما يلى: "الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه. أما بعد فالحديث الذى ذكرتِ: "مَنْ عَشِقَ وكَتَمَ وعَفَّ فمات فهو شهيد" فى سنده ضعف. بل ذهب بعض أهل العلم إلى أنه حديث موضوع كما

بين ذلك الشيخ الألبانى وغيره. ولكن معناه قد صحح منه أهل العلم ما تعلق بالعفة والتقوى. قد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بعد أن ذكر هذا الحديث: "لكن المعنى الذى ذكره دَلَّ عليه الكتاب والسنة، فإن الله أمرنا بالتقوى والصبر. فمن التقوى أن يعفَّ عن كل ما حرَّمه الله من نظرٍ بعينٍ، ومن لفظٍ بلسان، ومن حركةٍ بيدٍ ورِجْلٍ". ووردت أخبار تعضد هذا المعنى، فقد روى الإمام البخارى فى "صحيحه" أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من يضمنْ لى ما بين لَحْيَيه وما بين رجليه أضمنْ له الجنة. و"ما بين لحييه" يعنى اللسان. و"ما بين رجليه" يعنى الفرج. وعليه فإذا كنتِ قد اتقيتِ الله حقا فى عشقك، ولم تحصل منك خلاله أية مخالفة، وكنتِ صابرة محتسبة، فنرجو الله أن يجعل لك بذلك حظا من الشهادة".

وعلى هذا فمن الناحية الظاهرية البحتة لم يكن أبو نواس مستهترا بالحديث النبوى، بل كان يتظرف فى عرض ما يريد السؤال عنه أو إثارته من قضية. وإذا كان الحكم السابق لتوّه على الحديث هو أن فى سنده ضعفا وأن من المحدِّثين من ذهب إلى أنه موضوع، فبالرجوع إلى موقع "الدرر السنية"، تبين أن بعض العلماء قد حكم عليه بأنه حسن، وبعضٌ بأنه صالح، وبعضٌ بأن إسناده صحيح، وبعضٌ بأن له طُرُقًا، إلى جانب من حكموا عليه بالضعف والوضع بطبيعة الحال. وإذن فكل ما صنعه أبو نواس فى هذه الواقعة هو أنه حوَّل استفساره عن صحة الحديث من صيغة النثر إلى صيغة النظم نزولا على طبعه فى حب التظرف.

وقد اشتهر أبو نواس بالأشعار الماجنة فى الخمر والغلمان، وذاع شعره وسار لسهولته وحسن ألفاظه. قال أبو عمرو الشيبانى: "لولا ما أخذ فيه أبو نواس من الرَّفَث لاحتججنا بشعره لأنه محكم القول". وكان بارعا أيضا فى

النوادر والمُلَح، واتصل بالملوك والوزراء والأشراف فجالسهم وعاشرهم، وأحبه الناس. ومن خفة ظله الحكاية التالية التى وردتْ فى "البداية والنهاية" لابن كثير: "روى الخطيب أن شعبة لقى أبا نواس فقال له: حَدِّثْنا من طُرَفِك. فقال مرتجلا:

حـــدَّثنا الخفّـــاف عـــن وائـــلٍ	وخالـــد الحـــذّاء عـــن جـــابرْ
ومِـــسْعَرٍ عـــن بعـــض أصـــحابه	يرفعـــــه الـــــشيخ إلى عـــــامرْ
وابـــن جـــريج عـــن ســـعيد وعـــن	قتـــادة المـــاضى وعـــن غـــابِرْ
قـــالوا جميعًـــا: أيـــما طفلـــةٍ	عُلِّقَهـــا ذو خلـــقٍ طـــاهرْ
فواصـــلتْه ثـــم دامـــت لـــه	عـــلى وصـــال الحـــافظ الـــذاكرْ
كانـــت لهـــا الجنـــة مبذولـــة	تمـــرح فى مرتعهـــا الزاهـــرْ
وأى معـــشوق جفـــا عاشـــقًا	بعـــد وصـــالٍ نـــاعمٍ نـــاضرْ
ففـــى عـــذاب الله مثـــوًى لـــهُ	بُعْـــدًا لـــه مـــن ظـــالمٍ غـــادرْ

فقال له شعبة: إنك لجميل الأخلاق، وإنى لأرجو لك".

ومن نوادره ومُلَحه كذلك تلك الحكاية التى يرويها هو بنفسه، وهى فى "البداية والنهاية" أيضا: "قال أبو نواس: دعانى يوما بعض الحاكَة وألحَّ على ليضيفنى فى منزله، ولم يزل بى حتى أجبتُه، فسار إلى منزله وسرت معه، فإذا منزل لا بأس به، وقد احتفل الحائك فى الطعام وجمع جمعًا من الحُياك، فأكلنا وشربنا، ثم قال: يا سيدى، أشتهى أن تقول فى جاريتى شيئا من الشعر. وكان مغرما بجارية له. قال: فقلت: أَرِنيها حتى أنظم على شكلها وحسنها. فكشف عنها، فإذا هى

أسمج خلق الله وأوحشهم: سوداء شمطاء ديدانية يسيل لعابها على صدرها. فقلت لسيدها: ما اسمها؟ فقال: تسنيم. فأنشأتُ أقول:

أســـــهرَ ليـــــلى حُـــــبُّ تـــــسنيمِ جاريـــــةٌ فى الحُـــــسْن كـــــالبُومِ

كـــــأنما نكهتهـــــا كـــــامخٌ أو حزمـــــة مـــــن حـــــزم الثُّـــــومِ

ضَرَطْـــتُ مـــن حبـــى لهـــا ضرطـــةً أفزعـــتُ منهـــا ملـــك الـــرومِ

قال: فقام الحائك يرقص ويصفق سائر يومه ويفرح ويقول: إنه شَبَّهَها والله بملك الروم".

ومما يرْوَى من الفكاهات النواسية أيضا ما جاء فى "أخبار أبى نواس" لأبى هفان، إذ قال إنه "انتقل إلى البصرة وهو ابن اثنتى عشرة سنة، فتأدب فى مجالسها، وكان أكثر اختلافه إلى خلف الأحمر فى تعلم النحو والشعر. وكان خلف أستاذه، فأتى خلفا يوما فقال له: "اسمع منى قصيدة رثيتك بها"، وأنشده: "أَوْدَى جِمَاعُ العلم مُذْ أودى خَلَفْ". فقال له: ويلك! ما حملك على أنْ رثيتنى وأنا حى؟ قال: أردت ان أعلم هل قَرَح شعرى أم لا. قال له: نعم قَرَح. أقرح الله جوفك!"، وإن كانت هناك رواية أخرى تقول إن خلفا هو الذى طلب منه أن يرثيه وهو حى، ورواية أخرى غير هاتين بأنه قد رثاه بهذا الشعر بعد موته فعلا.

ومن الفكاهات التى تتعلق أيضا بذلك الأمر ما نقرؤه فى "محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء" للراغب الأصفهانى من الخبر التالى: "أنشد أبو نواس أبا عبيدة فى مرثية خلف الأحمر قوله:

أَوْدَى جِمَـــاعُ العِلْـــم مُـــذْ أَوْدَى خَلَـــفْ قَلَيـــــذَمٌ مـــــن العَيـــــاليم الخُـــــسُفْ؟

... فى أبيات كثيرة. قال: ما أحسنها! وطوبى لمن يرْثَى بمثلها! فقال: مُتْ راشدًا، وعلى أن أرثيك بخير منها".

ومن الفكاهات المنسوبة إليه كذلك الحكاية التالية التى ساقها ابن حمدون فى "التذكرة الحمدونية": "مر أبو حفص الشطرنجى بأبى نواس، وكان أبو نواس يستثقله، فقال له: يا أبا على، ما لى أراك مصفرا؟ قال: رأيتك فذكرت ذنوبى، فخَشِيت أن يمسخنى الله عز وجل فى خلقك إذا عاقبنى، فاصفر وجهى". ويمكن أن تكون هذه الحكايات حقيقية، ويمكن أن تكون منحولة له بناء على ما اشتهر به من ظرف وحضور بديهة وميل إلى الفكاهة والسخرية والمجون.

إلا أن الحكاية التى رواها المستشرق فيليب كيندى فى كتابه (ص٢٠) لا يمكن أن تكون صحيحة أبدا، اللّهم إلا إذا تصورنا المجتمع المسلم فى ذلك الوقت قد تجاوز كل الخطوط الحمراء فى مسائل الدين ولم يعد يحترم مسجدا ولا صلاة، وصار الناس كلهم مجانا لا يتورعون عن العبث بأمور العبادات جهارا نهارا أثناء تأديتهم لها، وفى قلب المسجد ذاته، وعلى مرأى ومسمع من الجموع، إذ تقول الحكاية إن أبا نواس حضر صلاة المغرب مرة، فقام فى الصف الأول مباشرة خلف الإمام، الذى بعدما انتهى فى الركعة الأولى من "الفاتحة" أنشأ يقرأ سورة "الكافرون"، وما إن قال:"يا أيها الكافرون" حتى رد عليه أبو نواس فى الحال: "لبيك! هأنذا"! نعم كان أبو نواس ماجنا يكاد لا تفارقه الفكاهة، ولكن التماجن بهذه الطريقة، وفى هذا السياق، وفى المسجد، وأثناء الصلاة، وعلى رؤوس المصلين جميعا، ودون أن يثير النكير العام لدى الحاضرين فيضربوه بالنعال ويرْفَعوا أمره إلى السلطان وتنزل به عقوبة صارمة تكون نكالا له ولغيره، أمر لا يمكن تصديقه. إن مجتمعا يقع فى مساجده مثل هذا الأمر فلا يثير بين المصلين الإنكار الشديد لهو مجتمع لم يعد أفراده يصلّون أصلا أو ليس للصلاة عندهم أى

مقدار من الاحترام. ومن ثم نرفض تصديق تلك الحكاية ونرى أنها اخْتُرِعَت اختراعا لتصوير تماجن أبى نواس ليس إلا.

وبالمناسبة فقد أورد فيليب كيندى تلك الحكاية فى سياق تسامح أبى نواس تجاه غير المسلمين. والواقع أن مثل أبى نواس لا يوصف بالتسامح أو عدم التسامح، فهو رجل ماجن ظريف بل متماجن متظرف لا يعنيه أمر الدين بحيث يمكن أن يكون متعصبا أو متسامحا أو يوصف بتعصب أو تسامح. وإذا بدا فى شعره كلام طيب عن النصرانية مثلا فسببه السياق الذى ورد فيه هذا الكلام، وهو استمتاعُه بشرب الخمر فى دير من أديرة النصارى قدمها له القسيس أو تغزُّله فى راهبٍ شابٍّ يصف جماله وسحره وفتنته. ومثل هذا السياق لا يصح أن يتخذه الباحث دليلا على سعة أفق الشاعر أو ضيقه.

وقد أتت على أبى نواس أوقات نظم فيها شعرا كله زهد وندم وتطلع إلى التوبة ورجاء فى الغفران كبير. وفى هذا السياق يؤكد المؤلف أنه ليس شرطا أن يكون أبو نواس قد نَظَمَ هذا الشعر فى آخر حياته، بل من الممكن جدا أن تكون التوبة وقعت منه مرارا، ثم لم يثبت عليها وعاد إلى ما كان فيه من مجون واستهتار (ص٢١، ٧٣- ٧٤). وأنا معه فى هذا، إذ ليس فى شعره الاستغفارى نفسه ما يشير إلى زمن معين، وإن حددت بعض الروايات تاريخ نظمه لهذه القصيدة أو تلك. وإن ابتهاله البديع إلى ربه لأكبر دليل على هذا، إذ تذكر الروايات أنه قد نظمه حين كان متعلقا بجنان أيام شبابه حتى إنها عندما نوت الحج نهض فسافر ليحج هو أيضا فى ذلك العام حتى يكون دائما على مقربة منها، وهناك أبدع تلك القصيدة التى هى فى الواقع تلبية شعرية، مثلما "شَعَّرَ" الحديث الخاص بالعاشق العفيف الذى تميته عفته شهيدا. وقد رأيت د. طه حسين، فيما كتبه عن أبى نواس

فى صحيفة "السياسة" فى أوائل عشرينات القرن المنصرم ثم أعاد نشره فى الجزء الثانى من "حديث الأربعاء"، يذهب إلى هذا الرأى، إذ شكك فى القصة التى تُرْوَى عن توبة النُّوَاسِىّ قبيل وفاته والأشعار التى قالها فى ذلك واسما إياها بالتكلف، ومؤكدا أن أكثر هذا الشعر إنما قيل فى أوقات مختلفة من حياته لا فى آخرها.

وهذه هى القصيدة العجيبة التى قالها ذلك الماجن المتخطى كل الحدود فى الخمر والشذوذ والمجون، وهى تدل على أن النفس البشرية كثيرة الالتواءات والمنحنيات والغرائب والأسرار. جاء فى "الأغانى": "كانت جنان هذه جارية آل عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفى المحدِّث... وكانت حلوة جميلة المنظر أديبة، ويقال: إن أبا نواس لم يصْدُق فى حبِّه امرأة غيرها... حدثنى إسحاق بن محمد عن أبى هفان عن أصحاب أبى نواس قالوا: كانت جنان جارية حسناء أديبة عاقلة ظريفة تعرف الأخبار، وتروى الأشعار. قال اليؤيؤ خاصة: وكانت لبعض الثقفيين بالبصرة، فرآها أبو نواس فاستحلاها وقال فيها أشعارًا كثيرة، فقلتُ له يومًا: إن جنان قد عزمت على الحج. فكان هذا سبب حجه، وقال: أما والله لا يفوتنى المسير معها والحج عامى هذا إن أقامت على عزيمتها. فظننتُه عابثا مازحا، فسبقها والله إلى الخروج بعد أن علم أنها خارجة، وما كان نَوَى الحج ولا أحدث عزمَه له إلا خروجُها. وقال، وقد حج وعاد:

ألـــم تـــر أننـــى أفنيـــتُ عمـــرى بمطلبِهـــا، ومطلبُهـــا عـــسيرُ؟

قال اليؤيؤ: فحدثنى مَنْ شهده لما حج مع جنان وقد أحرم، فلما جَنَّه الليلُ جعل يلبى بشِعْرٍ ويحدو ويطْرِب، فغنى به كل من سمعه، وهو قوله:

إِلَهَنـــــــــا، مـــــــــا أَعْـــــــــدَلَكْ

مَليـــــــكَ كُـــــــلِّ مَـــــــن مَلَـــــــكْ

لَبَّيـــــــكَ! قَـــــــدْ لَبَّيـــــــتُ لَـــــــكْ

لَبَّيـــــــكَ! إِنَّ الحَمْـــــــدَ لَـــــــكْ

وَالمُلْـــــــكَ لا شَريـــــــكَ لَـــــــكْ

مـــــــا خـــــــابَ عَبـــــــدٌ سَـــــــأَلَكْ

أَنـــــــتَ لَـــــــهُ حَيـــــــثُ سَـــــــلَكْ

لَـــــــوْلَاكَ يـــــــا رَبُّ هَلَـــــــكْ

لَبَّيـــــــكَ! إِنَّ الحَمْـــــــدَ لَـــــــكْ

وَالمُلْـــــــكَ لا شَريـــــــكَ لَـــــــكْ

كُـــــــلُّ نَبِـــــــى وَمَلَـــــــكْ

وَكُـــــــلُّ مَـــــــنْ أَهَـــــــلَّ لَـــــــكْ

وَكُـــــــلُّ عَبْـــــــدٍ سَـــــــأَلَكْ

سَـــــــبَّحَ أَوْ لَبَّـــــــى فَلَـــــــكْ

لَبَّيـــــــكَ! إِنَّ الحَمـــــــدَ لَـــــــكْ

وَالمُلْـــــــكَ لا شريـــــــكَ لَـــــــكْ

وَاللَّيـــــــل لمَّـــــــا أَنْ حَلَـــــــكْ

والـــــــسابِحات فى الفَلَـــــــكْ

عـــــــلى مَجَـــــــارِى المُنْـــــــسَلَكْ

لَبَّيــــــــــكَ! إِنَّ الحمـــــــــــدَ لَــــــــكْ

وَالمُلْــــــــــكَ لا شريــــــــــكَ لَــــــــكْ

اعْمَــــــــــلْ، وَبــــــــادِرْ أَجَلَــــــــكْ

وَاخْـــــــــتِمْ بِــــــــــخَيرِ عَمَلَــــــــكْ

لَبَّيــــــــــكَ! إِنَّ الحَمْــــــــــدَ لَــــــــكْ

وَالمُلْــــــــــكَ لا شَريــــــــــكَ لَــــــــكْ

ومن يدرى؟ فقد يكون المولى سبحانه غفر لأبى نواس بهذه الأبيات وما تعكسه من تعلق برحمته سبحانه وتذلُّل فى حضرته وطمع فى عفوه وغفرانه. لقد صرحتُ فى هذا البحث مرارا باشمئزازى من تصرفاته وأخلاقه الجنسية، وأنكرت عليه هذا كله أيما إنكار، ولاأستطيع التسامح مع هذا اللون من السلوك قط. وهذا هو موقفى على المستوى الاجتماعى والنفسى والأخلاقى. أما مصيره يوم القيامة فأمره إلى مولاه ومولانا ومولى البشر ومولى المخلوقات ومولى الكون كله ليس لأحد فيه دخل فى كثير أو قليل. فهو سبحانه وحده الذى يعلم نقاط ضعف كل منا وقوته، ومدى مقدرتنا على تجنب الشر وعمل الخير أو عجزنا عن ذلك، ويعلم وسع كل واحد من عباده ونوع الحساب الذى يوافقه ويليق به، ومدى الغفران أو الجبروت الذى لا بد من معاملته على أساسه. أما نحن فكلنا سنقف بين يديه يوم الحساب لا نملك لأنفسنا ولا لأحبابنا أو خصمائنا شيئا، وإن كان طمعنا فى عفو الله ومغفرته لا يفارقنا طرفة عين. ومن هنا فأنا، رغم نفورى التام واشمئزازى من انحراف أبى نواس، لا أستطيع أن أخالفه فى قوله فى مختتم الخمرية التالية:

دَعْ عنــكَ لَــوْمى، فَــإِنَّ اللــومَ إغــراءُ وَداوِنـــى بـــالتى كانـــت هِـــى الـــداءُ

صَـــفراءُ لا تنـــزل الأحـــزانُ ســـاحَتَها لـــو مَـــسَّها حَجَـــرٌ مَـــسَّتهُ سَرّاءُ

رَقَّــت عَــنِ المــاءِ حَتّــى مــا يلائِمُهــا لَطَافَــةً، وَجَفَــا عــن شــكلِها المــاءُ

فَلَــوْ مَزَجْــتَ بِهــا نــورًا لَمَازَجَهــا حَتّـــى تَوَلَّـــد أنـــوارٌ وَأضـــواءُ

دارت عـــلى فِتْيـــةٍ دانَ الزمـــانُ لَهُـــم فَـــمَا يـــصِيبُهُمُو إِلّا بِـــما شـــاؤوا

لِتِلْـــكَ أبكـــى، وَلا أبكـــى لِمَنْزِلَـــةٍ كانـــت تَحُـــلُّ بِهـــا هنـــدٌ وأســـماءُ

حاشـــا لِـــدُرَّةَ أَن تُبْنَـــى الخِيـــامُ لَهـــا وَأَن تَـــرُوحَ عَلَيهـــا الإِبْـــلُ والـــشاءُ

فَقُــل لِمَــن يــدَّعى فى العلــمِ فَلْــسَفَةً: حَفِظْــتَ شــيئًا، وَغابَــتْ عنــكَ أشــياءُ

لا تَحْظُــرِ العَفْــوَ إن كُنْــتَ امــرَءًا حَرِجًــا فَـــإِنَّ حَظْرَكَـــهُ فى الـــدينِ إِزْراءُ

وهو ما أومأ إليه فيليب كينِدى حين ذكر أن أبا نواس كان على علم جيد بأمور العقائد مع سخريته من المتشددين فى الحكم على العباد إذ ينْسَوْن أن الله أكبر من كل ما يقولون وأن مشيئته هى وحدها النافذة. ومن ثم يحكم مستشرقنا على أبى نواس بأنه لم يكن لادينيا، بل كان يعتمد على عفو الله ومرحمته ويعلل نفسه بذلك حين تشتد عليه محاسبة النفس بعد ارتكابه الآثام (ص٢١- ٢٢). وقد ذكر المستشرق أيضا أن الحديثين اللذين رُوِيا عن أبى نواس خاصان بعفو الله ورحمته. وقد وجدتُ هذين الحديثين عند ابن الجوزى فى "المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم" عند كلامه عن اشتغال الشاعر برواية الحديث. قال: "سمع الحديثَ من حماد بن زيد وعبد الواحد بن زيد ومعمر بن سليمان وغيرهم، وأسند الحديث. أخبرنا محمد بن عبد الملك بن خيرون قال: أخبرنا أحمد بن على بن ثابت

قال: أخبرنا هلال بن محمد بن جعفر الحفار، أخبرنا إسماعيل بن على الخزاعى، أخبرنا محمد بن إبراهيم بن كثير الصوفى، أخبرنا أبو نواس الحسن بن هانئ، حدَّثنا حماد بن سلمة عن يزيد الرقاشى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: لا يموتن أحدكم حتى يحسن ظنه بالله من الخير. قال ابن كثير: ودخلنا على أبى نواس نعوده فى مرضه الذى مات فيه، فقال له عيسى بن موسى الهاشمى: يا أبا على، أنت فى آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة، وبينك وبين الله هَنَات، فتب إلى الله. قال أبو نواس: أسندونى. فلما استوى جالسًا قال: إياى يخوِّف بالله، وقد حدّثنى حماد بن سلمة عن ثابت البنانى عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لكل نبى شفاعة، وإنى اختبأت شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى يوم القيامة"؟ أَفَتُرَى لا أكون منهم؟".

وفى "جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس" للحافظ الحميدى: "أخبرنا أبو الحسن على بن الحسن القاضى قال: أخبرنا أبو العباس أحمد بن محمد بن الحاج بن يحيى قال: حدثنا أبو الطيب محمد بن جعفر بن دران غندر قال: حدثنا إسماعيل بن على بن على الشافعى قال: نا محمد بن إبراهيم بن كثير الصيرفى قال: حدثنا أبو نواس الحسن بن هانى قال: نا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله عليه وسلم: لا يمُوتَنَّ أحدُكم حتى يحْسِن الظنَّ بالله، فإنّ حُسْن الظن بالله ثَمَنُ الجنة".

ونحن، مع إنكارنا على أبى نواس أسلوب حياته، لا نملك إلا أن نقول: مَنِ العاقل الذى يخطر فى باله لحظة عين أن يحظر عفو الله عن عباده؟ وهل نحن بلا ذنوب؟ أفلا نحب أن يعفو الله لنا كل آثامنا؟ فكيف نريد أن نقصر عفوه على أخطائنا نحن ونترك أخطاء الآخرين دون عفو؟ ومن نحن حتى نفتح الباب أو

نغلقه؟ وهل نضمن أن يغفر سبحانه لنا؟ ألا يمكن أن يدخل أبو نواس الجنة ويدخل النار من كان يشدد النكير عليه ويهتف به ويزندقه أو يكفّره؟ إننى لا أريد إلى القول بأن الحساب الإلهى سيكون سبهللا، بل أنبه إلى أن الله هو وحده العالم بأوضاعنا وما يدخل فى طوقنا ووسعنا على هذه الأرض وما يتأبى على الدخول فيه، والمدرك لمجمل أعمالنا ونسبة الخير والشر فيها مما يقوم عليه الحساب الأخروى. ولا ننس بعد هذا كله، بل قبل هذا كله، أن ثمة شيئا اسمه رحمة الله ولطفه وبِرّه. فلمن تكون تلك الرحمة إن لم تكن للعصاة الضعفاء؟ لكن تلك الرحمة ليست تدخل فى اختصاصنا ولا تتبع مشيئتنا، بل الله هو صاحب كل مشيئة: إن شاء غفر، وإن شاء أَخَذَ أَخْذَ عزيز مقتدر. وهكذا يرى القارئ معى كيف أن الأمر ذو جوانب متعددة وأننا مجرد عبيد مساكين لا ينبغى أن نفكر فى تخطى حدودنا مع ربنا أو مع غيرنا من البشر، وإلا كان عقابنا أليما!

وعلى هذا ينبغى أن نفرق بين الحكم على العمل ذاته وبين الحكم على مرتكب العمل: إن الزنا مثلا مجرَّم تجريما شديدا فى ديننا، وإذا قلنا إن من شأن الزنا إدخال صاحبه النار فلسنا مفتئتين فى قولنا هذا. لكننا نكون بكل تأكيد مفتئتين إذا جزمنا بأن هذا الزانى أو ذاك هو من أهل النار. وهو مثل قولنا إن التدخين من شأنه إصابة المدخن بالأمراض الصدرية مع طول الأيام رغم ما نراه من أن هناك من المدخنين من لا يمرض بتلك الأمراض، مما يكون سببا فى جدال كثير من المدخنين لمن يقول لهم هذا الكلام، الذى هو حقيقة علمية. ذلك أن المدخنين ليسوا كلهم وضعا واحدا، فقد يكون منهم مَنْ جسمه يقاوم أضرار التدخين أقوى من غيره أو يتناول عناصر غذائية تخفف أضرار التدخين بحيث يتأخر ظهور الإصابة فيه عمن سواه. لكن هذا لا ينفى أبدا أن الإصابة بتلك

الأمراض أعلى بين المدخنين منها بين غير المدخنين على نحو جد ملحوظ وأنها مع طول الأيام سوف تتحقق.

وفى ضوء هذا ينبغى أن ننظر مثلا إلى موقف الرسول الكريم من الصحابى حاطب بن أبى بلتعة، الذى بعث برسالة إلى أهل مكة ينبئهم فيها باستعدادات رسول الله لغزو مدينتهم، وأخبر الوحىُ رسولَ الله بما حدث، واستطاع صلى الله عليه وسلم الحيلولة بين الرسالة وبين بلوغها مستقرها، فما كان من عُمَر إلا أن أشار عليه بقتله جزاءً وِفَاقًا على الخيانة العظمى، وهى خيانة تستوجب القتل فى كثير من القوانين والشرائع، إلا أن الرسول وازن بين جوانب الأمر فى تلك الواقعة الخاصة فوجد أن الرجل لم ينو خيانة، وأنه كان حسن النية تماما، وأنه كان قد سلف منه ما يدل على قوة الإيمان فى اللحظات الفارقة التى تُبَين الطيب من الخبيث، إذ كان ممن اشتركوا فى غزوة بدر وأبلى بلاء عظيما فيها، فرأى عليه السلام أن يعفو عنه لكل تلك الاعتبارات مع أن عقوبة الخيانة كمبدإ عام عقوبة مغلظة.

وهذا هو الفرق بين المبدإ العام عند النظر وبينه عند التطبيق. إنه، عند النظر، حالة عامة يسهل الفصل فيها، أما عند التطبيق فننتقل إلى خصوصية كل حالة. ومن هنا كانت المحاكم والقضايا والمحاماة والمرافعات حتى يستقر ضمير القاضى على تكييف الحالة وإعطائها الحكم الصحيح، وإن كانت المحكمة الأرضية رغم هذا كله عرضة للخطإ بخلاف المحكمة السماوية، فإنها لا تخطئ أبدا، وحكمها غاية فى الدقة، فضلا عن مبدإ الرحمة الإلهية التى يمكن أن تتدفق بغير حساب. وفى الحديث النبوى الشريف: "إنَّ رجلًا قال: و اللهِ لا يغْفِرُ اللهُ لِفُلانٍ. قال اللهُ: مَنْ ذَا الذى يتَأَلَّى على ألّا أَغْفِرَ لِفُلانٍ؟ فإنى قد غَفَرْتُ لِفُلانٍ، وأَحْبَطْتُ عَمَلكَ".

وعَوْدًا إلى حياة أبى نواس نقول إنه فى سنة ١٧٠هـ توجّه إلى بغداد. وهنا نجد المستشرق كيندى يتحدث عن حب الشاعر لجنان ويشير إلى ما دار بينهما من أحاديث ومواقف وشد وجذب، وكيف انتهت العلاقة بينهما بالفشل لعدم نزوله على شرطها، وهو كَفُّه عن الجرى وراء الغلمان. ويعلل المستشرق تركه البصرة وانتقاله إلى بغداد بأنه كان يتطلع إلى إحراز مجد فى تلك المدينة لا أنه كان محطَّم القلب لفشله فى حب تلك الجارية البديعة الجمال (ص٩). وفى بغداد حاول الاتصال بالبرامكة ليكون أحد مداحيهم. ويذكر المؤلف أن أبا نواس لم يوفق إلى هدفه فى البداية، إذ وقف أَبَان بن عبد الحميد عقبة كأداء فى هذا السبيل. لقد كان أبان هو صاحب المكافآت التى يحصل عليها الشعراء المداحون للبرامكة، وكان يخشى أن تكسف موهبة الشاعر مكانته عندهم. ولهذا وجدناه فى احتفال الشعراء بعودة الفضل بن يحيى من خراسان يكثر من عطاء كل شاعر ما عدا أبا نواس، إذ اكتفى بإعطائه دينارين إرادة إهانته (ص١٠).

ولست أظن أبانا حين صنع ذلك قد صنعه غيرة من أبى نواس ولا محاربة له، وإلا كان عليه أن يحارب كلَّ شاعر موهوب من مداحى البرامكة. ثم إنه لم يعْهَد فى ممدوحى تلك الأيام أن ينزلوا إلى هذا المستوى المتدنى فى العطاء، وإلا كانت فضيحة لهم. ولا أحسب البرامكة يقبلون هذا أو يمكن أن يفكر أبان فيه بالنيابة عنهم على سبيل الجِدّ. إنما هى المعابثة منه لأبى نواس. ومن ثم ألفينا أبا نواس يمد يده ويصفع أبانا على وجهه متهما إياه بأنه يسرق نقود أمه، وملمحا إلى اشتغال أمه بالدعارة حسبما يقول المستشرق.

وهذه هى القصة، وهى مذكورة فى "أخبار أبى نواس" لأبى هفان. وربما كانت مصنوعة صناعة لإضحاكنا: "دخل أبو نواس على يحيى بن خالد، فقال له يحيى: أَنْشِدْنى بعض ما قلت. فأنشده:

إنــــى أنـــا الرجـــل الحكيــم بطبعـــه ويزيـــد فى علمـــى حكايــةُ مَـــنْ حَكَـــى

أتتبــــع الظرفــــاء أكتـــب عنهمـــو كيـــما أحـــدّثَ مـــن أُحِـــبُّ فيـــضْحَكا

فقال يحيى: إن زَنْدك لَيرِى بأول قَدْحة. فقال أبو نواس فى معنى قول يحيى ارتجالا:

أَمَـــا وزَنْـــدِ أبـــى عـــلى إنّـــه زنـــدٌ إذا اسْـــتَوْرَيتَ سَـــهَّل قَـــدْحَكا

إن الإله، لعلمـــــــه بعبـــــــاده، قـــد صـــاغ جِـــدَّك للـــسماح ومَزْحَكـــا

تـــأبى الـــصنائعَ همتـــى وقريحتـــى مـــن أهلهـــا، وتعـــاف إلا مَـــدْحكا

أبو هفان: وأخبرنى أبو يوسف بن الداية قال: كان أبان اللاحقى يحسد أبا نواس، وكان انقطاعه إلى جعفر بن يحيى، فعرض جعفر على أبى نواس كلبة له وقال له: انعتها باسمها أَوَّلًا. فقال: قد سميتُها: أم أبان. فغضب جعفر وقال: تعبث بنديمى وشاعرى؟ فهجاه أبو نواس بقوله:

أرى جعفـــرا يـــزداد لؤمًـــا ودقـــةً إذا زاده الـــرحمن فى ســـعة الـــرزقِ

وأعظـــم زَهْـــوًا مـــن ذبـــابِ كناســـةٍ وأبخـــل مـــن كلـــبٍ عقـــورٍ عـــلى عِـــرْقِ

فلما قدم الفضل من خراسان سأله جعفر أن يجعل أبانًا على عطاء الشعراء وتمييز ما يهَنَّأ به من الشعر، ففعل، وأعطاهم على مراتبهم وطبقاتهم. فلما جاء أبو نواس لقبض جائزته أعطاه درهمين، فرفع أبو نواس يده فصفع أبانا وقال: سارقَ غلة أمه، قد بلغنى أن أمك كسبت عشرة دراهم فخنتَها. فضحك الفضل وقال لجعفر: مُرْ أبانًا ليصالحه". وواضح أن أبا نواس كان على صلة قوية بخالد، وأن الأمر كله مزاح فى مزاح، وأن أبانا لم يكن يمثل عقبة فى طريق أبى نواس نحو البرامكة. ولهذا ألفينا الفضل يطلب من أخيه وهو يضحك أن يصحح أبانٌ خطأه

مع أبى نواس. ثم أكان أبو نواس يجرؤ على صفع أبان فى حضرة الفضل وجعفر لو كان الأمر جِدًّا لا مزاحا؟ وهل كان أبان ليسكت على تلك الإهانة؟

وبعد زوال دولة البرامكة توجّه الشاعر إلى مصر فمدح واليها الخصيب، ثم رجع إلى بغداد فأصبح نديمًا للخليفة الأمين بعد أن كان يمدح أباه الرشيد. وقد أشار ابن كثير فى "البداية والنهاية" إلى أن الأمين هو الذى أطلق أبا نواس من الحبس الذى ألقاه فيه أبوه، وأن أبا نواس قد تاب على يديه من الخمر والغلمان بعد أن أمر بحبسه فى خلافته فترة من الوقت. وعن علاقته بالأمين يقول كيندى (ص١١) إنه كانت تجمع بينهما لا علاقة مادح بممدوحه فقط بل صداقة ومودة وأنس أيضا. بل إنه ليذهب بعيدا مشيرا إلى أنه من المحتمل أن يكون بينهما غرام قوى كما تدل الأبيات التالية:

إنى لَصَبٌّ، ولا أقول: بِمَنْ. أخاف من لا يخاف من أحد

إذا تفكرتُ فى هواى له مسستُ رأسى: هل طار عن جسدى؟

إنى، على ما ذكرتُ من فَرَقٍ، لآمِلٌ أن أناله بيدى

والمؤلف فى الغالب يشير إلى الحكاية التالية التى أوردها أبو هفان فى "أخبار أبى نواس"، إذ قال: "حُدِّثْتُ أن أبا نواس كان يشرب مع الأمين، فنشط الأمين للسباحة فلبس ثياب ملحم، ولبس كوثرٌ مثل ذلك، ووقعا فى البركة. فنظر أبو نواس إلى بدن محمد فرأى شيئا لم ير مثله قط. فلما كان من غدٍ غدوت لأسأله عن خبره معه، فقال لى: ويلك! رأيتُه فرأيتُ بليةً لا تُوصَف، وفتنةً لا تطاق. ثم أنشأ يقول:

إنى لَصَبٌّ، ولا أقول: بِمَنْ. أخاف من لا يخاف من أحد

إذا تفكــــــرتُ فى هــــــواى لـــــــه   مسستُ رأسى: هل طار عن جسدى؟

إنــى، عــلى مــا ذكــرتُ مــن فَــرَقٍ،   لآمِــــــلٌ أن أنالـــــه بيــــــدى

فقلت له: اتق الله فى رأسك، فإنه إن بلغتْه قتلك. فأمسك إنشادها وطواها عن الناس جميعا".

وأنا، وإن كنت أعرف مدى مجون أبى نواس وتفلُّته ولامبالاته، لا أطمئن إلى هذه الحكاية لأن الأبيات فى حد ذاتها لا تقول شيئا محددا بل يمكن أن تعنى أشياء أخرى كثيرة كأن تكون غزلا فى جارية مقربة من الخليفة مثلا أو فى غلام لأحد كبار الدولة. وكتبنا القديمة مفعمة بقصصٍ ورواياتٍ اللهُ وحده أعلم بكذبها من صدقها، وبخاصة ما كان منها ككتاب أبى هفان، وعلى وجه أخص ما يشتمل على أخبار شاعر كأبى نواس كانت حياته كلها مجونا فى مجون، وأخباره جميعا تبعث على التسلية والضحك. وإنى لأشعر أن مؤلفى مثل تلك الكتب يأتون إلى أبيات غامضة كهذه ثم يفصِّلون على مقياسها حكاية يجتهدون فى أن تكون مشوِّقة وعجيبة ومحبوكة بقدر الإمكان. وأخمن أن تكون الصراعات السياسية وراء توجيه هذه الأبيات إلى تلك الناحية تشويها لصورة الخليفة الأمين وذكراه. بل ربما كانت الأبيات منحولة لأبى نواس نَحْلا.

ولا ننس أن ثمة رواية تعزو قتل الأمين إلى بيت ماجن متزندق قاله أبو نواس له. وهذه هى القصة كاملة: "أخبرنا أبو أحمد عن الصولى عن يحيى بن على عن أبيه عن إسحاق الموصلى قال: كان المهدى فى أول أمره يحتجب عن ندمائه، متشبهًا بالمنصور نحوًا من سنة، ثم ظهر لهم لما قال سَلْمٌ الحاسر:

مـــن راقـــب النـــاسَ مـــات غَـــمًّا   وفـــــاز باللـــــذة الجســـــور

فأشار إليه أبو عون أن يحتجب عنهم، فقال: إليك عنى يا جاهل. إنما اللذة مع مشاهدتها. وفى إدراك الجوارح لها لذة. فأما من وراء الحجاب فما له معنى. وكان بشار قال:

مَنْ راقبَ الناسَ لم يظفرْ بحاجته   وفاز بالطيبات الفاتكُ اللَّهِجُ

فلما سمع بيت سلم قال: ذهب ابن الفاعلة ببيتى. ومن ها هنا أخذ أبو نواس قوله:

ألا فاسقنى خمرًا، وقل لى: هى الخمرُ   ولا تسقنى سِرًّا إذا أمكن الجهرُ

وبُحْ باسم من أَهْوَى، ودَعْنِى من الكُنَى   فلا خير فى اللذات من دونها سترُ

وهذا أشأم بيت قيل. وكان سببَ زوال مُلْك محمد الأمين وقَتْله هذا البيتُ. لما اتصل بالمأمون أمر مناديا، فنادى به فى بلاد خراسان وقال: قائل هذا البيت ينادم محمدا، ويقول مثل هذا بحضرته، فلا يكون منه نكير. فاشتد أهل خراسان على محمد، واستحلوا قتله. واتصل ذلك بمحمد، فحبس أبا نواس وأنكر عليه". وإذا كان راوى قصة أبيات التغزل المزعومة فى الأمين قد نصح الشاعر، من شدة حبه له وخشيته على حياته، أن يكتم هذه الأبيات، فكيف سولت له نفسه أن يكون أول مُفْشٍ لها بما يمكن أن يؤدى إلى تطيير رأس الشاعر من فوق جسده؟ أم هو كلام، والسلام؟

وقد رجحتُ آنفا أن تكون تلك القصة اخْتُرِعت من جانب معسكر المأمون إبان صراعه على الخلافة مع أخيه الأمين بغية تشويه سيرته، ثم قرأت فعلا ما يقوى هذا الترجيح لدىَّ، إذ وجدت الوطواط يقول فى "غرر الخصائص الواضحة وعُرَر النقائص الفاضحة": "كان أبو نواس قد غلب على قلبه حب الأمين والتهالك فيه والغرام حتى قال فيه:

عُـــذِّب قلبـــى، ولا أقـــول: بِمَـــنْ   أخـــافُ مـــن لا يخـــاف مـــن أحـــدِ

إذا تفكـــــرتُ فى هـــــواى لـــــه   لمستُ رأسـى: هـل طـار عـن جسدى؟

فاتصلت هذه الأبيات بالمأمون، فقال: من يقال فيه هذا يصلح أن يكون خليفة للمسلمين؟ فبلغ ذلك الأمين، فأمر بقتل أبى نواس حيث وُجِد، فشُفِع فيه، فأمر بحبسه ولا يمكَّن من ورقة ولا دواة، فحلق رأس عبد له وكتب فيها بالفحم:

بـــك أســـتجير مـــن الـــرَّدَى   متعـــوِّذًا مـــن سَـــطْو باسِـــكْ

وحيـــاة رأســـك لا أعـــو   د لمثلهـــا، وحيـــاة راسِـــكْ

مـــن ذا يكـــون أبـــا نُـــوَا   سِـــكَ إن قتلـــتَ أبـــا نواســـكْ؟

وكتب تحت الأبيات: إذا قرأ أمير المؤمنين الرقعة يخرِّقها. ثم قال للغلام: سر إلى دار الخلافة، فإذا جئتها ناد: "نصيحة لأمير المؤمنين". فإذا دخلتَ على الخليفة اكشف رأسك ليرى ما فيها مكتوبا. ففعل الغلام ما أوصاه به. فلما قرأ الأمين الأبيات ضحك وقال: ما ألطفه وأظرفه! وأمر باطلاقه".

فهل كانت دار الخلافة مفتوحة على مصراعيها لكل من هب ودب كهذا الغلام المسكين؟ وهل يمكن أن يتماجن أبو نواس فى مثل ذلك الموقف العصيب الذى توشك دماغه فيه أن تندر من بين كتفيه؟ وهل يعقل أن تكون الشفاعة فى تلك الجريمة البشعة هى هذه الأبيات الرخوة؟ بل أما كان أبو نواس قادرا على تحفيظ العبد الأبيات الثلاثة كى يبلغها للخليفة شفاهيا بدلا من تلك الطريقة المعقدة المزعجة؟ وهل من الممكن أن يغفر الأمين لأبى نواس مثل تلك الفضيحة النكراء التى فضحه بها حتى لو كان منحرفا فعلا، وهو ما لايمكن أن

يكون؟ ثم هناك سؤال يلح على البال، وهو: كيف وصلت تلك الأبيات الخطيرة إلى معسكر المأمون، وهى ليست مما يعلنها ناظمها فتقرأها الجماهير وتسمعها فتنتشر فى كل مكان؟ بل كيف اطمأن الشاعر أصلا إلى أن غلامه لن يعرف حقيقة ما كتبه فوق رأسه وأنه طلب من الأمين أن يخرّق الرسالة بعد قراءتها، وتخريق الرسالة هنا معناه تمزيق رأس ذلك الغلام وإتلافه؟

ويبقى أن المراثى التى رثى بها أبو نواس الخليفة الأمين تدل على أنه كان يجله ويهابه ولا يمكن أن تكون صادرة من رجل كان يتعلق به تعلقا منحرفا. جاء فى "الشعر والشعراء" لابن قتيبة:

طَوَى المَوْتُ ما بَينى وبَينَ مُحَمَّدٍ ... ولَيسَ لما تَطْوِى المَنِيةُ ناشِرُ

وكُنْتُ عَلَيهِ أَحْذَرُ المَوْتَ وَحْدَهُ ... فلم يبْقَ لى شَىْءٌ عَلَيه أُحَاذِرُ

لَئِنْ عَمَرَتْ دُورٌ بِمَنْ لا تُحِبُّهُ ... لقَدْ عَمَرَتْ مِمَّنْ تُحِبُّ المَقابِرُ

* *

أَيا أَمِينَ اللهِ، مَنْ لِلنَّدَى ... وعِصْمَةِ الضَّعْفَى وفَكِّ الأَسِيرْ؟

خَلَّفْتَنا بَعْدَكَ نَبْكِى عَلى ... دُنْياك والدِّينِ بدَمْعٍ غَزِيرْ

يا وَحْشَتَا بَعْدَك! ماذا بِنَا ... أَحَلَّ من بَعْدِك صَرْف الدُّهُورْ؟

لا خَيرَ للأَحْياءِ فى عَيْشِهِمْ ... بَعْدَك، والزُّلْفَى لأَهْلِ القُبُورْ

* *

أُسَلِّى يا مُحَمَّدُ عَنْكَ نَفْسِى؟ ... مَعاذَ اللهِ والمِنَنِ الجِسَامِ!

فهَلاَّ مات قَوْمٌ لم يمُوتُوا ... ودُوفِعَ عَنْكَ لى كَأْسُ الحِمامِ؟

كـــأَنَّ الــــدَّهْرَ صـــادَفَ منـــك ثَـــأْرًا أَوِ اسْتَـــشْفَى بمَوْتِـــك مـــن سَـــقامِ

* *

يـــا خير مـــن كـــان ومـــن يكـــونُ إلا النبـــــى الطـــــاهرُ الميمـــــونُ

وأخيرا نأتى إلى موت أبى نواس. وفى موته يشير المستشرق مؤلف الكتاب (ص٢٦- ٢٧) إلى الأقاويل التى ذُكِرَتْ فى هذا الصدد، وبعضها يدور على آل نوبخت بوصفهم قَتَلَتَه سَمًّا أوضربًا مبرِّحًا فى البطن، أو باعتبارهم رُعَاتَه فى مرضه الأخير. وهو يستبعد قتلهم له، وإن لم يسق لنا الأسباب التى جعلته يستبعد ذلك. كما أشار أيضا إلى ما يقال عن موته فى إحدى الحانات حيث طفق يشرب إلى أن فاضت روحه. لكنه رجح فى نهاية المطاف أن تكون علة موته هى المرض وتضعضع الصحة، وإن كان قد عاد بعد ذلك (ص١٠٦- ١٠٧) فقال إنه ليس بالصعب تصديق الاعتقاد بأن أبا نواس قد جلب على نفسه الموت بذلاقة لسانه التى لم يهضمها آل نوبخت أو رَجُلُهم زُنْبُور. وبهذا يكون قد ضرب صفحا عن موقفه السابق من تلك الروايات دون أن يتنبه إلى التناقض الذى سقط فيه.

وفى كتاب "أخبار أبى نواس" لأبى هفان نقرأ فيما يخص تلك المسألة ما يلى: "كان أبو نواس هجا ابن نيبخت وذكر أمه ورماه بالبخل ونسبه إلى الرفض أيام هارون الرشيد، فلم يزل به إلى أن دَسَّ له شربة من سم، فلم تعمل عملها إلا بعد أربعة أشهر. فلما اشتد وجعه وتمعَّطت لحيته وتغيرت حاله دخل إليه غلام... كان يتعهده ويكتب أشعاره، فقال له: يا أبا نواس، كيف تجدك؟ قال: أجدنى فى الحق. فإنا لله، وإنا إليه راجعون على ما قدمتُ. ويا حسرتى على ما فرطتُ فى جنب الله! ثم أنشد:

دَبَّ فى الــــبلاء سُــــفْلًا وعُلْـــوَا وأرانـــى أمـــوت عُـــضْوًا فعُـــضْوَا

ليـــس تمـــضى مـــن ســـاعةٍ بِـــى إلا نقـــصتْنى بمَرِّهـــا بِـــى جُـــزْوَا

لهـــفُ نفـــسى عـــلى ليـــالٍ وأيـــا مٍ تَمَلَّيـــتُهُنَّ لعبـــا ولهـــوَا

ذهبـــتْ جِـــدَّتى بلـــذة نفـــسى وتـــذكرتُ طاعـــة الله نِـــضْوا

قـــد أســـأنا كـــل الإســـاءة، فاللـــهم صَـــفْحًا عنـــا وغَفْـــرًا وعَفْـــوا

قال: فلما فرغ من هذه الأبيات مات لساعته، فخرج الغلام باكيا وهو يعْوِل مُجْهِشًا:

مـات البـديعُ، وماتـت دولـة الفِطَـنِ واسـتدرج المـوتُ روحَ الـشعر فى كَفَـنِ

لله مـا صـنعتْ أيـدى المنـون بـه ومـا تـضمَّنت الأكفـان مـن حَـسَنِ!

مَـنْ ذا يـردّ نـزارا عنـد نخوتهـا؟ أم مـن يـدافع عـن جرثومـة اليمـنِ؟"

وقال أبو هفان أيضا: "حدثنى بعض آل نيبخت أن آخر شعر قاله أبو نواس أنا أتيناه بطبيب يجسه وينظر فى علته، فوصف لنا شيئا ثم غمز أخى، فخرج معه، فقال: لا تداووه، فإنه لا يسلم من علته. ولكن علِّلوه ومَنُّوه البُرْء والسلامة. فأحسَّ وأيقن، فلما عاد أخى إليه قال: بحياتى ما خبَّرك الطبيب؟ قال: لم يقل إلا خيرا. أَمَر أن تُسْقَى من الدواء كذا وكذا، وأَخْبَرَ أن العلة قد نضجت وانحطت. فأنشأ أبو نواس من فوره يقول:

ســـألتك بـــالمروءة والجـــوارِ وقُـــرْب الـــدار مـــن بعـــد المـــزارِ

بـــما ناجـــاك إذ ولى ســـعيدٌ فقـــد أوجـــستُ مـــن هـــذا الـــسِّرَارِ

فقلت: خيرا. فقال: هو والله الموت".

وفى "الحور العين" لنشوان الحميرى: "كان سبب موته أنه كان صديقا لبنى نوبخت، ولهم إليه إحسان، وكان لهم مذهب فى التشيع، فأُغْرِىَ بهجائهم. وكان

لهم كاتب بغدادى يقال له: زُنْبُور، فروى عليه هجاء كثيرا فيهم. من ذلك قوله فى رئيس لهم يقال له: إسماعيل:

خبـــز إســـماعيل كالوَشْـــــى إذا مـــا شُـــقَّ يرْفَـــا
عجبًـــا مـــن مُحْكَـــم الـــصنعة فيـــه! كيـــف يخْفَـــى؟

... الأبيات. وكان مما رَوَى عنه أيضا فى هجائهم وهجاء أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه شعر يقول فيه:

لله رافـــضةٌ بُلِيـــتُ بهـــم يتلاحظـــون بـــأعينٍ خُـــزْرِ
يرْضَـــوْن أن أَرْضَى أبـــا حـــسنٍ لهمـــو وأبـــرأ مـــن أبـــى بكـــرِ
فلَأَجْمَعَـــنَّ عـــلى عداوتـــه ولأَشْـــهَدَنَّ عليـــه بـــالكفرِ
ولأشـــكرنَّ لراحـــةٍ ضربـــت تلـــك المفـــارقَ آخـــر الـــدهرِ

فلما بلغتهم هذه الأبيات سَقَوْه سما، فمات منه. وقيل: بل كانوا فى منتزه لهم عند سليمان بن أبى سهل، ومعهم أبو نواس وزنبور، فأنشد زنبور هذا الشعر، وقد عمل فيهم الشراب، فقاموا إلى أبى نواس فداسوا بطنه، فلم يزل يضع أمعاءه حتى مات".

ولا أظن الرواية الأخيرة صحيحة، إذ إنها تتناقض مع أبياته التى يشكو فيها انحطاط صحته وشعوره بالموت يدب فى أنحاء جسده جميعا، ويعلن فيها ندمه لتفريطه فى جنب الله وتضييعه شبابه فى العصيان والشذوذ والخمر. ذلك أن هذه الرواية تقول إنه مات لتوه فى المتنزه، أما الشعر المذكور فيبين أنه مات من تفاقم الضعف والمرض. كذلك لا يمكن أن تكون الصلة بينه وبين آل نوبخت من القوة والمتانة والمودة اللصيقة بحيث يكون ضيفهم فى أخص مجالسهم، وهو

المتنزه بما فيه من طعام وشراب وأحاديث ومسرة وانبساط، وفى ذات الوقت يقول عن مذهبهم هذا الذى قال. ثم إن أبا نواس لم يكن من الذين يهتمون بالمذاهب ويتعصب لها. وكيف يتعصب لها وهو السكير الأكبر والمنحرف الأعظم والمتماجن الأفحش؟ إن هذا وذاك لا يتلاءمان. كما أن أبا نواس كان ممن يرجو دائما عفو الله ويتهكم بمن يحاول أن يحظره على العصاة المرتكسين فى الخطايا. ومثله لا يعقل أن يجعل من قضية التسنن والتشيع شيئا ذا بال. ثم إنه لم يتعرض فى أى من أشعاره لأحد من الصحابة بسوء أو بغير سوء، فلِمَ يا ترى يخرج هنا على ما عرفناه عنه؟

ولا ننس أن الشعراء لم يكفّوا يوما عن هجاء من لا يعطيهم ويرمونه بالبخل، ولم نُلْفِ أحدا من المهجوِّين بالبخل يفكر فى قتل هاجيه، وإلا لم يكد يبقى من الشعراء أحد. ولدينا عمر نفسه، وكان صارما فى أمور الأعراض، إذ ما إن شكا الحطيئةَ له المتضررون من هجائه حتى فكر فى إعطائه من مال الخزانة العامة ما يستل من نفسه السخط على حارميه، مشتريا منه بهذا الأسلوب أعراض المسلمين، ولم يفكر فى عقوبته، اللّهم إلا وَضْعه إياه فى الحبس بعض الوقت لترهيبه قبل أن يعفو عنه ويحوّل العقوبة الشكلية إلى منحة أدبية كالمنح التى تقدمها بعض الدول للمبدعين من الشعراء والأدباء كى ينجزوا إبداعاتهم دون قلق على لقمة العيش.

والحكاية التالية خير شاهد على ما أقول. ففى "التذكرة الحمدونية" لابن حمدون: "لما قُتِل جعفر بن يحيى بكاه أبو نواس وجزع عليه وقال: اليومَ والله ذهبت المروءة والأدب. فقيل له: أتقول هذا، وكنت تهجوه وتقطعه من قبل؟

فقال: ذاك لركوب الهوى. أيكون أكرمُ من جعفر، وقد رفع إليه صاحب الخبر أنى قلت:

ولستُ، وإن أطنبتُ فى وصف جعفرٍ، بأوّل إنسانٍ خَرِى فى ثيابهِ

فوقَّع فى رقعته: يدْفَع إليه عشرة آلاف درهم يغسل بها ما ذكر أنه نال ثيابه؟ وكان أبو نواس مائلا إلى الفضل بن الربيع ومنحرفا عن البرامكة".

بل إننى ضد فكرة السَّمّ تماما، إذ من يا ترى عرف ذلك وكانت معه ساعة ميقاتية يعد بها اللحظات والثوانى والدقائق والساعات والأيام والأسابيع حتى بلغ بالعدد أربعين يوما بالتمام والكمال فتوقف لأن ميعاد وفاة الشاعر قد حان؟ ثم كيف سكت أبو نواس عن الكلام فى ذلك الموضوع؟ لقد رأيناه يتحدث عن المرض والفناء الذى شاع فى جسده كله وضعضعه ووصل به إلى حافة الموت، ولم نره يشير إلى سم من قريب أو من بعيد ولا لمس سيرة آل نوبخت بخير أو شر مما يدل على أنهم لم يكونوا فى باله ساعتئذ ولارآهم سببا لتلك الوفاة؟ وكيف عرف الآخرون أنه مات مسموما؟ هل أسرّ إليهم آل نوبخت ليفضحوا أنفسهم ويكشفوا ستر الله عنهم؟ وهل هناك من يفكر فى قتل أبى نواس بظرفه وخفة ظله ولسانه الذَّرِب وعقله اليقظ وردوده الحاضرة وجأشه الرابط وشِعْره المنساب الذى يقطر سلاسة وينساب انسيابا رغم قذارة كثير من موضوعاته ورجسها؟

وكان أبو نواس فى زمانه يمثّل المجون فى مقابل أبى العتاهية، الذى يمثّل الزهد، وإن لم يخل شعر شاعرنا من بعض القصائد التى يبتهل فيها إلى الله أو يذكّر بأن عفو الله أوسع مما نظن أو يعلن ندمه على ما فَرَط منه من قول أو فعل قبيح كما وضحنا قبلا، وما أكثر ما صدر منه من الأقاويل والأفعال القبيحة! ومن أشعاره تلك الأبيات التى تضمنتها الحكاية التالية، وهى من كتاب "أخبار أبى نواس"

لأبى هفان: "حدثنى الحسين بن أبى المنذر قال: اجتمعتُ مرة أنا وأبو نواس وعِدَّةٌ من أصحابنا عند عبيد بن أبى المنذر فشربنا يومنا وبتنا عنده ليلتنا، فقال لنا أبو نواس: هل لكم فى أن نُدْلِج إلى الكَرْخ، فإن بها حانة لم أر مثلها قط فى نظافتها وطيبها وحسن شرابها؟ وأنا أشتهى أن أسكر فيها وأقيم بها أياما، فساعدونى. قلنا: امض حيث شئت، فإنا معك. فأَدْلَجْنا فى نصف الليل فوافينا الموضع الذى وصف لنا على ما شاكل نَعْتَه ووافق صِفَته، فقرّب لنا الشراب من ساعتنا، ثم أصبحنا فواصلنا نهارنا شربا، ومع أبى نواس غلام قد أفسده على أبيه وغَيبَه عنه غير مرة، وهو كان ساقينا. وأشرفنا، حين أصبحنا، على زهر ورياض وأشجار وأنهار وكروم لم أر مثله قط نزهة وحسنا، فذكَّرَنا حسنُ ذلك الموضع الجنةَ وما أعد الله فيها لأهلها وعظم خطرها، فذكرنا الذنوب التى تحجب عنها وتمنع منها وتَعْرِض دونها وأن ذلك بقَدَرٍ مقدور. وتفاوضنا ساعة فى شىء من الإسلام وما نرجو من العفو والفوز وعظيم منة الله تعالى علينا فى الهداية، وأبو نواس ساكت، فقلنا: مالك لا تتكلم؟ فالتفت إلى الذى أنشأ الكلام فقال:

يا ناظرا فى الدين، ما الأمرُ؟ لا قَدَرٌ صَحَّ ولا جَبْرُ

ما صَحَّ عندى من جميع الذى تذكر إلا الموتُ والقبرُ

قال: فامتعضنا من ذلك وأنكرناه واستفظعناه وقلنا: والله ما نُقِرّك على هذا، فقد والله أفرطتَ وجاوزتَ المقدار وصرتَ إلى أن تكذِّب بالمعاد. وإنا لنخاف أن ينزل الله بنا قارعة أو تصيبنا جائحة إذا رضينا بقولك وأصغينا إليك ولم نَعْدِلْك. فإنْ رجعتَ، وإلا هجرناك وفارقناك. ويحك! قد شِخْتَ وجاوزت الكمال، وما أحد أبصر منك بتصاريف الكلام والأديان وغير ذلك من فنون العلم، فقد كان ينبغى لك أن تستسمج هذا القول وتعافه. فقال: لا والله ما أدين

غير الإسلام. ولكن ربما نَزَا بى المجونُ حتى أتناول العظائم، وما أعلم أنى مسؤول عنه ومعذَّب عليه. ثم أنشأ:

أيــــةَ نــــار قَــــدَح القــــادحُ؟ وأى جِــــدٍّ بلــــغ المــــازحُ؟

لله دَرُّ الــــشيب مــــن واعــــظٍ وناصــــحٍ لــــو قُبِــــل الناصــــحُ

يــــأبى الفتــــى إلا اتبــــاع الهــــوى ومــــسلكُ الحــــقِّ لــــه واضــــحُ

فاعمــــد بعينيــــك إلى نــــسوةٍ مهــــورُهنَّ العمــــلُ الــــصالحُ

لا يجــــتلى الحــــوراءَ مــــن خــــدرها إلا الــــذى ميزانُــــه راجــــحُ

مَــــنِ اتقــــى الله فــــذاك الــــذى سِــــيقَ إليــــه المتجــــرُ الــــرابحُ

فاغْــــدُ، فــــما فى الــــدين أغلوطــــةٌ ورُحْ لمــــا أنــــت لــــه رائــــحُ

ثم قال: هذا عمل إبليس. أَجْرَى هذا الكلام ليعارض فرحَنا ويقدح فى سرورنا بما يكدره. خذوا بنا فى شأننا، وأَلْغُوا هذا...".

وفى "العقد الفريد" لابن عبد ربه عن الرياشى: "وُجِدَتْ تحت الفِراش الذى مات عليه أبو نُواس رقعةٌ مكتوب فيها هذه الأبيات:

يــــا ربّ، إنْ عَظُمَــــتْ ذنــــوبى كَثْــــرةً فلقــــد عَلِمْــــتُ بــــأنَّ عَفْــــوَك أعْظَــــمُ

إن كــــان لا يرْجــــوك إلا مُحْــــسِنٌ فَــــبِمن يلُــــوذ ويــــستجير المُجْــــرِمُ؟

أدْعُــــوك ربِّ كــــما أمــــرتَ تَــــضرُّعًا فــــإذا رَدَدْتَ يــــدِى فمــــن ذا يــــرْحَمُ؟

مــــالى إليــــك وســــيلةٌ إلا الرَّجــــا وجَمِيــــلُ عَفْــــوك ثــــم أَنِّــــى مُــــسْلِمُ"

ويرى بعض الدارسين أنه كانت فى شعر أبى نواس نزعة شعوبية. بيد أن المستشرق كيندى يؤكد أنه كان يعُدّ نفسه شاعرا عربيا تربى على التراث، وإن لم

يمنع هذا من وجود بعض عناصر فارسية غير ذات أهمية تتمثل فى احتفائه بعيد النوروز وترديد بعض الألفاظ والأسماء الفارسية فى شعره مثلا (ص٢– ٣). والواقع أن أبا نواس كثيرا ما يثور على العرب ويعمل على تحقيرهم ورَفْع شأن الفرس على حسابهم كما فى الأبيات التالية التى أوردها المستشرق ص١٤– ١٥، وهى عن الخمر وعتاقتها:

كانت عَلى عَهْدِ نوحٍ فى سَفينَتِهِ   مِن حُرِّ شَحْنَتِها، والأرضُ طوفانُ

فَلَم تَزَل تَعجُمُ الدنيا وَتَعْجُمُها   حَتّى تَخَيَرَها لِلخَبْءِ دِهْقانُ

فَصَانَها فى مغارِ الأَرضِ، فَاخْتَلَفَت   عَلى الدفينةِ أزمانٌ وأزمانُ

بِبَلْدَةٍ لَم تَصِلْ كَلْبٌ بِها طُنُبًا   إلى خِباءٍ وَلا عَبْسٌ وَذُبْيانُ

لَيسَت لِذُهْلٍ وَلا شَيبانِها وَطَنًا   لَكِنَّها لِبَنِى الأحرارِ أوطانُ

أَرضٌ تَبَنَّى بِها كسرى دساكِرَهُ   فَما بِها مِن بَنِى الرَّعْناءِ إنسانُ

وَما بِها مِن هَشِيمِ العُرْبِ عَرْفَجَةٌ   وَلا بِها مِن غِذَاءِ العُرْبِ خُطْبانُ

لَكِنْ بِها جُلَّنارٌ قَد تَفَرَّعَهُ   آسٌ، وَكَلَّلَهُ وَرْدٌ وسوسانُ

والغريب أن نلفيه رغم ذلك يقول على لسان الخمر:

لا تُمْكِنَنّى مِنَ العِرْبيدِ يَشْرَبُنى   وَلا اللئيمِ الذى إن شَمَّنى قَطَبا

وَلا المَجُوسِ، فَإِنَّ النارَ رَبُّهُمُو   وَلا اليهودِ وَلا مَن يعْبُدُ الصُّلُبا

وَلا السفالِ الَّذى لا يَسْتَفيقُ وَلا   غِرِّ الشبابِ وَلا مَنْ يَجْهَلُ الأَدَبا

وَلا الأَراذِلِ إلّا مَن يُوَقِّرنى   مِنَ السُّقاةِ، وَلَكِن اسقِنى العَرَبا

يا قَهوَةً حُرِّمَت إلّا عَلى رَجُلٍ   أَثْرَى فَأَتلَفَ فيها المالَ وَالنَّشَبا

بما يدل على أن العرب أفضل من كل من عداهم. وهو ما يناقض حملته عليهم وعمله على تحقيرهم وتحقير كل ما يمت بِصِلَةٍ إليهم من عادات وتقاليد وأساليب حياة.

هذا ما قاله فيليب كيندى عن علاقة شاعرنا بالثقافة العربية. بيد أنى قد وجدت المادة التى تتحدث عنه فى "Wikimedia Commons" تذكر أنه شاعر عربى وفارسى معا: " Abu Nuwas is regarded as one of the greatest classical Arabian and Persian poets". أما فى النسخة الإنجليزية من موسوعة "الويكبيديا" فقد اكتفى كاتب مادته بأنه كان ينظم الشعر الفارسى بين الحين والحين: " Abu Nuwas was one of the greatest classical Arabic poets, who also composed in Persian on occasion". ترى من أين للكاتِبَين ذلك؟ لا أدرى. وما دمنا بصدد الحديث عن مادته فى الموسوعة الأخيرة أحب أن أورد ما قالته تلك المادة من أن اسمه قد أطلق عام ١٩٦٧م على حفرة ضخمة بسطح كوكب المريخ تخليدا لذكراه: " In 1976, a crater on the planet Mercury was named in honor of Abu Nuwas". كما تذكر نفس المادة أن لأبى نواس شهرة كبيرة فى الثقافة السواحيلية بشرق أفريقيا حيث يسمونه هناك: "أبو نواسى" ناسبين إليه أشياء كثيرة من حكايات جحا، ومن حكايات الخواجة نصر الدين أيضا، وهو النسخة المقابلة عند الترك لجحا العربى.

الفنون الشعرية فى ديوان أبى نواس:

وقد طرق أبو نواس جميع الفنون الشعرية من مدح ورثاء وغزل وخمر ومجون ووصف وهجاء وعتاب وطرد، كما نظم فى الزهد، وبخاصة فى أواخر

حياتـه، وإن قامت شـهرته على شعر الخمر والمجون والـشذوذ. وكـان فى البداية يـستفتح قـصائده بـالوقوف عـلى الأطـلال كعـادة كـثير مـن شـعراء العـرب منـذ الجاهليـة، ثـم سـخر مـن ذلـك التقليـد وثـار عليـه، وتمـرد عـلى القيـم الاجتماعيـة فى عـصره، وحمـل عـلى العـرب حملـة شـعواء وسـخر مـن هـذا الاسـتفتاح داعيـا إلى الاستعاضة عنه بوصف الخمر وتقديس آلائها. ثم عاد كرة أخرى فالتزم طريقة الافتتاح التقليدية.

ومن الافتتاحيات الخمرية التى يهاجم فيها العرب وأوضاعهم، ويتهكم على أسلوب حياتهم قوله:

عـــاجَ الـــشَّقِى عـــلى دارٍ يـــسَائِلُها   وَعُـــدْتُ أَسْـــأَلُ عَـــنْ خَمّـــارَةِ البَلَـــدِ

لا يرْقِـــئِ اللهُ عَينَـــى مَـــنْ بَكَـــى حَجَـــرًا   وَلا شَـــفَى وَجْـــدَ مَـــنْ يـــصْبُو إلى وَتِـــدِ

قـالوا: ذَكَـرْتَ دِيـارَ الحَـى مِـنْ أَسَـدٍ!   لا دَرَّ دَرُّكَ! قُـلْ لى: مَـنْ بَنُـو أَسَـدِ؟

وَمَـنْ تَميـمٌ؟ وَمَـنْ قَيـسٌ وَإِخْـوَتُهُم؟   لَيـسَ الأعاريـبُ عِنْـدَ الله مِـنْ أَحَـدِ

دَعْ ذا، عَـــدِمْتُكَ! وَاشْرَبْهـــا مُعَتَّقَـــةً   صـــفراءَ تُعْنِـــقُ بَينَ المـــاءِ وَالزَّبَـــدِ

كَـمْ بَينَ مَـنْ يـشْتَرِى خَمْـرًا يلَـذُّ بِهـا   وَبَينَ بـاكٍ عَـلى نُـؤْى وَمُنْتَـضَدِ!

* *

قُـلْ لِمَـنْ يبْكـى عـلى رَسْـمٍ دَرَسْ   واقِفًـا: مـا ضَرَّ لـو كـانَ جَلَـسْ؟

اُتْـرُكِ الرَّبْـعَ وَسَـلْمَى جانِبًـا   وَاصْـطَبِح كَرْخِيـةً مِثْـلَ القَـبَسْ

بِنْـتُ دَهـرٍ هُجِـرَتْ فى دَنِّهـا   وَرَمَـتْ كُـلَّ قَـذاةٍ وَدَنَـسْ

كَـدَمِ الجَـوْفِ، إذا مـا ذاقَهـا   شـارِبٌ قَطَّـبَ مِنهـا وَعَـبَسْ

* *

دَعِ الأَطْـــــلالَ تَـــــسْفِيها الجَنُــــوبُ	وَتُـــــبْلِي عَهْـــــدَ جِــــدَّتِها الخُطـــوبُ
وَخَـــلِّ لِراكِـــبِ الوَجْنـــاءِ أَرْضًـــا	تَخُــــبُّ بِهـــا النَّجِيبَــــةُ وَالنَّجِيـــبُ
بِـــــلادٌ نَبْتُهـــا عُــــشَرٌ وَطَلْـــحٌ	وَأَكْثَـــرُ صَــيدِها ضَـــبُعٌ وَذِيـــبُ
وَلا تَأْخُـــذْ عَـــنِ الأَعْـــرابِ لَهْـــوًا	وَلا عَيـــشًا، فَعَيــــشُهُمو جَــــدِيبُ
دَعِ الأَلْبــــانَ يــــشرَبُها رِجــــالٌ	رَقيـــقُ العَيـــشِ بَينَهُمُـــو غَرِيـــبُ
إِذا رابَ الحليــــبُ فَبُـــلْ عَلَيـــهِ	وَلا تَحْــــرَجْ، فَـــما فى ذاكَ حُـــوبُ
فَأَطْيَـــبُ مِنــــهُ صـــافِيةٌ شَــمُولٌ	يطـــوفُ بِكَأْسِـــها ســـاقٍ أَديـــبُ

... إلخ.

وفى سياق حديث لتميم البرغوتى عن هذا الموضوع فى مقال له بالإنجليزية منشور فى صحيفة "The Daily Star" اللبنانية بعنوان " Abu Nawwas, the Persian Arab" فى الخامس عشر من يونيه ٢٠٠٤م يذكر أن أبا نواس قد رمى العرب بأنهم أكلة جراد، وأن هذا السباب ما زال متداوَلا فى اللغة الفارسية حتى الآن. وهذه عبارته كاملة بالإنجليزية: " He started his poems glorifying liquor, a direct attack against tradition; moreover he would openly attack the weeping of tents, the description of camels and anything that comes from the desert. In some of his poems he makes fun of Arabs as "locust eaters," an expression that persists in today's Farsi". لكن لم يقدَّر لى أن أجد هذه الشتيمة فى شعر النواسى رغم أنها لا تزال فعلا موجودة عند الإيرانيين على هيئة مَثَلٍ هذا نَصُّه بالفارسية متبوعا بترجمته إلى العربية: "عرب در بيابان ملخ مى خورد سگ اصفهان آب يخ مى خورد: العرب فى الصحراء يأكلون الجراد، وكلب أصفهان يشرب الماء المثلج".

ولأبى نواس، غيرَ المقدمة الخمرية، مقدماتٌ من لون آخر منها مثلا مقدمة فى وصف الريحان والنرجس وغيرهما من الزهور كما فى النص التالى:

أَحْـسَنُ مِـنْ وَصْـفِ دارِسِ الـدِّمَنِ　　وَمِـن حَمَـامٍ يبْكـى عـلى فَـنَنِ

وَمِـنْ دِيـارٍ عَفَـتْ مَعالِمُهـا　　رَيحانَـةٌ رُكِّبَـتْ عَـلى أُذُنِ

فى رَوْضَـةٍ بِالنَّبَـاتِ يانِعَـةٍ　　قَـد حَفَّهـا كُـلُّ نَيرِ حَـسَنِ

كَـأَنَّما الوَشْـى مِـنْ زَخارِفِهـا　　وَشْـى ثِيـابٍ بُـسِطْنَ بِـاليَمَنِ

وَقَهْـوَةٍ لا القَـذَى يخالِطُهـا　　تأتيـكَ مِـن مَعْـدِنٍ وَمِـنْ عَطَـنِ

مِـن بَيـتِ خَمّـارَةٍ تـروحُ بِهـا　　إِلَيـكَ مثـل العـروسِ مـن وَطَـنِ

سَـوْرَتُها فى الـرؤوسِ صـاعِدَةٌ　　وَلِينُهـا فى المَـذاقِ كَالـدُّهُنِ

مِـن كَـفِّ ظَبْـى أَغَـنَّ ذى غَـنَجٍ　　أُبْـدِعَ فيـهِ طَرائِـفُ الحُـسُنِ

يـسعى بِـصَفْراءَ كَالعَقيقَـةِ فى الـ　　ـكَأسِ عَلَيهـا الوِشـاحُ مِـن مُـزُنِ

فَتِلْـكَ أَشْـفَى مِـن نَعْـتِ دِعْبِلَـةٍ　　وَمِـنْ صِـفَاتِ الطُّلـولِ وَالـدِّمَنِ

كما آثَرَ، فى إحدى مقطوعاته، تَرْكَ الافتتاح بالخمر إلى وصف الرغيف، وهى دعوة بلغت الغاية القصوى فى الظرف وخفة الظل حتى إنى أهمّ بالدعاء عليه أن يخرب الله بيته إعجابا به وبلطافة هذا المقترَح البديع:

أَحْـسَنُ مـن موقـفٍ عـلى طَلَـلِ　　ومـن عُقَـارٍ جَـرَتْ عـلى ثَمِـلِ

ومـن حـضورِ الرُّبُـوع تنـدبُها　　ومـن بكـاءٍ لرحلـةِ الإبـلِ

نَعْـتُ رغيـفٍ كأنـه قمـرٌ　　لم يـكُ خَبّـازُهُ عـلى وَجَـلِ

مُـدَوّرُ الخلـقِ لينٌ دمِـثٌ　　تأكلـهُ خاليـا عـلى مَهَـلِ

أما الافتتاح التالى الذى يؤثره على مطالع القدماء فهو أضلّ افتتاح على طول تاريخ الأدب العربى:

لَقِبْلَـــــةُ الـــــراحِ إذ تُـــــصلّى لـــــه الأبـــــاريقُ بالـــــسجودِ

فى بيــــتِ لهـــوٍ وشربِ صَـــفْوٍ وصـــــوتِ نـــــاى وضربِ عُـــــودِ

وأَخْـــــذُ صَـــــبَّيْنِ فى عِتـــــابٍ يـــــشكو عميـــــدٌ إلى عميـــــدِ

وشَـــــمُّ أترجّـــــةٍ بمـــــسكٍ وشُرْبُ راحٍ بِكَـــــفِّ غِيـــــدِ

ووجـــهُ حِـــبٍّ بجَنْـــبِ حِـــبٍّ قـــد اســـتراحا مـــن الـــصدودِ

وقَـــرْصُ فخـــذٍ وغمـــزُ ردفٍ وعـــضّ خـــدّ وشـــمُّ جيـــدِ

ولمـــسُ كَـــفٍّ ولمـــحُ طـــرفٍ ولَـــثْمُ مـــستعذَبٍ بَـــرُودِ

و... ظبـــــــى مـــــــن ... يزورنـــى كـــلّ يـــومِ عيـــدِ

يـــسقط نثـــرُ الكـــلامِ منـــه تـــساقُطَ الـــدرّ مـــن عُقُـــودِ

زنـــارهُ فـــوق غـــصنِ بـــانٍ يهتـــز فى نعمـــــةٍ ميـــــودِ

أحـــسنُ عنـــدى مـــن الفيـــافى وذِكْـــرِ رَبْـــعٍ ونَعْـــتِ بِيـــدِ

ومـــن وقـــوف عـــلى قَلُـــوصٍ وسَـــيرِ ليـــلٍ عـــلى قَعُـــودِ

وفى القصيدة التالية نراه يقف فى الديار، ثم يتخلص منه إلى الحان، لينتهى إلى مدح الرشيد على نحو طريف مدهش:

لَقَــدْ طــالَ فى رَسْــمِ الــدِّيارِ بكــائى وَقَــدْ طــالَ تَــرْدَادِى بِهــا وَعَنَــائى

كَـــأَنّى مُرِيـــغٌ فى الـــدِّيارِ طَرِيـــدَةً	أراهـــا أَمَـــامِى مَـــرَّةً وَوَرَائـــى

فَلَـــمّا بَـــدَا لى اليـــأْسُ عَـــدَّيتُ نـــاقَتى	عَـــنِ الـــدارِ، وَاسْـــتَوْلَى عَـــلَى عَزَائـــى

إِلى بَيـــتِ حـــانٍ لا تهـــرُّ كِلابُـــهُ	عَـــلَى، وَلاينْكِـــرْنَ طُـــولَ ثَـــوَائى

فَـــإِنْ تَكُـــنِ الـــصَّهْباءُ أَوْدَت بِتَالِـــدى	فَلَـــم تُنْـــسِنِى أُكْرُومَتـــى وَحَيـــائى

فـــما رِمْتُـــهُ حَتّـــى أَتَـــى دونَ مـــا حَـــوَتْ	يمِينِـــى حَتّـــى رَيطَتـــى وَحِـــذَائى

وَكَـــأسٍ كَمِـــصْباحِ الـــسَّماءِ شَرِبْتُهـــا	عَـــلى قُبْلَـــةٍ أَو مَوْعِـــدٍ بِلِقـــاءِ

أَتَـــتْ دونَهـــا الأَيـــامُ حَتّـــى كَأَنَّهـــا	تَـــساقُطُ نُـــورٍ مِـــنْ فُتُـــوقِ سَـــماءِ

تَـــرَى ضَـــوْءَها مِـــن ظـــاهِرِ الكَـــأْسِ ســـاطِعًا	عَلَيـــكَ، وَإِن غَطَّيتَهـــا بِغِطـــاءِ

تَبـــارَكَ مَـــنْ ســـاسَ الأُمُـــورَ بِعِلمِـــهِ	وَفَـــضَّلَ هارونًـــا عَـــلى الخُلَفـــاءِ

نعيـــشُ بِـــخَيرٍ مـــا انْطَوَينـــا عَـــلى التُّقَـــى	وَمـــا ســـاسَ دنيانـــا أَبـــو الأُمَنـــاءِ

إِمـــامٌ يخـــافُ اللهَ حَتّـــى كَأَنَّـــهُ	يؤَمِّـــلُ رُؤيـــاهُ صَـــبَاحَ مَـــسَاءِ

أَشَـــمُّ طُـــوَالُ الـــساعِدَينِ كَـــأَنَّما	ينَـــاطُ نِجَـــادَا سَـــيفِهِ بِلِـــوَاءِ

وفى الروايات أن الرشيد لم يكن يسمع من الشعر ما فيه رَفَثٌ أو هزلٌ، ولا يقبل أن يذْكَر فى مَدْحِه قُبَلٌ ولا غمزاتٌ. فلما قدم أبو نواس من مصر امتدحه، فأوصله البرامكة إليه، فأنشده هذه القصيدة. فلما بلغ وصفَه للخمر تغير وجه الرشيد. لكن حين قال النواسى: "فإن تكن الصهباء أودت بتَالِدى" هدأ قليلا. فلما قال: "وَكَأسٍ كَمِصْباحِ السَّماءِ شَرِبْتُها" أراد أن يأمر بمعاقبته. بيد أنه حين أنشده الشاعر: "تبارك مَنْ ساس الأمور بقدرةٍ" أخذته نشوة، وأمر له بعشرين ألف درهم. وهى تدل على مدى براعة أبى نواس فى التخلص من حديث الخمر

والقُبَل، الذى كان يبغضه الرشيد، إلى مدحه مدحا يرضيه، وإن كنت أرى أن أرقام الدراهم والدنانير التى يقال إنها كانت تُغْدَق على الشعراء فى تلك العصور أرقام مبالغ فيها جدا، وإلا انهارت الدولة سريعا جراء هذا التبذير السفيه الكفيل بهدم الجبال الشماء.

أما فى القصيدة التالية فيمدح الشاعرُ الخليفةَ الأمين مشيرا إلى ركوبه سفينة على هيئة أسد:

سَــــخَّرَ اللهُ لِــــلأَمينِ مطايـــــا   لَم تُـــسَخَّر لِـــصاحِبِ المِحْـــرابِ

فَـــإذا مـــا رِكابُـــهُ سِرْنَ بَـــرًّا   ســـارَ فى المـــاءِ راكِبًـــا لَيْـــثَ غـــابِ

أَسَـــدًا باسِـــطًا ذِراعَيـــهِ يعْـــدُو   أَهْـــرَتَ الـــشِّدقِ كـــالِحَ الأَنيـــابِ

لا يعانيـــهِ بِاللِّجـــامِ وَلا الـــسَّوْ   طِ وَلا غَمْـــزِ رِجلِـــهِ فى الرِّكـــابِ

عَجِـــبَ النـــاسُ إِذ رَأَوْهُ عَـــلى صـــو   رَةِ لَيْـــثٍ يمُـــرُّ مَـــرَّ الـــسَحابِ

سَـــبَّحوا إِذ رَأَوْكَ سِرْتَ عَلَيْـــهِ   كَيْـــفَ لَـــوْ أَبْـــصَروكَ فَـــوْقَ العُقَـــابِ؟

ذاتُ زَوْرٍ وَمِنْـــسَرٍ وَجَناحَيـــ   ـــنِ تَـــشُقُّ العُبَـــابَ بَعْـــدَ العُبَـــابِ

تَـــسْبِقُ الـــطَّيرَ فى الـــسَّماءِ إِذا مـــا اســـ   ـــتَعْجَلُوها بِجَيْئَـــةٍ وَذَهـــابِ

بـــارَكَ اللهُ لِـــلْأَمينِ، وَأَبقـــا   هُ، وَأَبْقَـــى لَـــهُ رِداءَ الـــشَّبَابِ

مَلِـــكٌ تَقْـــصُرُ المَـــدائِحُ عَنْـــهُ   هاشِـــمِى مُوَفَّـــقٌ لِلـــصَّوابِ

كذلك اكتشفت لأبى نواس عددا من ألوان الوقوف بالديار غير معروفة: ففى النص التالى نجد أن الديار هى موضع شرب الخمر والطرب، والرسوم ليست هى الدِّمَن والنُّؤْى والرُّمّة والوتد بل آثار سحب زقاق الخمر وأضغاث

الريحان التى كانت تعطر المكان. وهو لا يطلب من صحبه أن يسعدوه بالبكا، بل يحبسهم ليسقيهم الشراب:

ودارِ نـــــدامَى عطَّلوهـــــا فـــــأدلجوا   بهــــا أثـــرٌ مـــــنهم: جديـــدٌ ودارسُ

مـساحب مـن جَـرِّ الزِّقَـاق عـلى الثـرى   وأضـــغاث ريحـــان: جَنِـــىٌّ ويـــابِسُ

حبستُ بها صحبى وجددتُ عهدهم   وإنـــى عـــلى أمثـــال هاتيـــك حـــابسُ

أقمنـــا بهـــا يومًـــا ويومًـــا وثالثًـــا   ويومًـــا لـــه يـــومُ الترحُّـــلِ خـــامسُ

تـــدور علينـــا الـــراحُ فى عـــسجديةٍ   حَبَتْهـــا، بـــألوان التـــصاوير، فـــارسُ

وفى الأبيات التالية نجد الأطلال والرسوم الدارسة هى أطلال النوم ورسومه. يقصد أنه مسهد لا يعرف الرقادُ له طريقا جراء العشق والهيام اليائس:

رَسْـــمُ الكـــرى بين الجفـــون مُحِيـــلُ   عَفَّـــى عليـــه بُكًـــا عليـــك طويـــلُ

يـــا نـــاظرًا مـــا أقلعـــتْ نظراتُـــه   حتـــــى تـــشحَّط بيـــــنهن قتيـــــلُ

أحللـــتَ مـــن قلبـــى هـــواكَ محلَّـــةً   مـــا حَلَّهـــا المـــشروبُ والمـــأكولُ

بكـــمال صـــورتك التـــى فى مثلهـــا   يـــــتحير التـــــشبيهُ والتمثيـــــلُ

فـــوق القـــصيرةِ، والطويلـــةُ فوقهـــا،   دون الـــسمينةِ، دونهـــا المهـــزولُ

أما الديار التى يقف بها فى النص التالى فهى المساجد ومعاهد العلم، والمفارقون هم أصدقاء الشباب لا الحبائب الظاعنات:

عفـــا المـــصلَّى، وأقـــوت الكُتُـــبُ   منـــــى فالمِرْبَـــــدان فاللَّبَـــــبُ

والمـــــسجدُ الجـــــامعُ المـــــروءةِ   والـــدينِ عفـــا فالـــصّحان فالرُّحَـــبُ

منـــــازلٌ قـــــد عَمَرْتُهـــــا يفعًـــــا   حتـــى بـــدا فى عـــذارىَ الـــشُّهُبُ

فى فتيةٍ كالسيوف هَزَّهُمو   شَرْخُ شبابٍ، وزانهم أدبُ

ثُمَّتَ راب الزمانُ، فاقتسموا   أيدى سَبَا فى البلاد فانشعبوا

لَن يخْلِفَ الدَّهرُ مِثلَهُم أَبَدًا   عَلَى. هَيهاتَ! شَأْنُهُم عَجَبُ

لَمّا تَيقَّنْتُ أَنَّ رَوْحَتَهُم   لَيسَ لَها، ما حَييتُ، مُنقَلَبُ

أَبْلَيتُ صبرًا لَم يبلِهِ أَحَدٌ   وَاقْتَسَمَتْنى مَآرِبٌ شُعَبُ

كَذاكَ إِنّى إِذا رُزِئتُ أَخًا   فليس بينى وبينه نَسَبُ

قُطْرَبُّلٌ مَرْبَعِى، وَلِى بِقُرَى الـ   ـكَرْخِ مَصِيفٌ، وَأُمِّى العِنَبُ

تُرْضِعُنى دَرَّها، وَتَلْحَفُنى   بِظِلِّها، وَالهَجِيرُ يلْتَهِبُ

إِذا ثَنَتْهُ الغُصُونُ جَلَّلَنِى   فَينَانُ ما فى أَديمِهِ جُوَبُ

تَبِيتُ فى مَأْتَمٍ حَمائِمُهُ   كَما تُرَثِّى الفَواقِدُ السُّلُبُ

يهُبُّ شوقى وَشَوْقُهُنَّ مَعًا   كَأَنَّما يسْتَخِفُّنا طَرَبُ

فَقُمتُ أَحْبُو إِلى الرَّضاعِ كَما   تَحامَلَ الطِّفلُ مَسَّهُ سَغَبُ

حَتّى تَخَيرْتُ بِنْتَ دَسكَرَةٍ   قَد عَجَمَتْها السِّنُون وَالحِقَبُ

هَتَكْتُ عنها، والليلُ مُعْتَكِرٌ،   مُهَلْهَلَ النَّسْجِ ما لَهُ هُدُبُ

مِنْ نَسْجِ خَزْقاءَ لا تُشَدُّ لَهَا   آخِيةٌ فى الثَّرَى وَلا طُنُبُ

ثُمَّ تَوَجَّأَتُ خَصْرَها بِشَبَا الْـ   إِشْفَى، فَجاءَت كَأَنَّها لَهَبُ

فَاستَوْسَقَ الشُّرْبُ لِلنَّدامى وَأَجْـ   ـراها عَلَينا اللُّجَينُ وَالغَرَبُ

أَقولُ لَمّا تَحاكَيا شَبَهًا: أَيهُما لِلتَّشابُهِ الذهبُ؟

هُمـــا سَـــــواءٌ، وَفَـــرْقُ بَيْـــنِهِما أَنَّهُـــــما جَامِـــــدٌ وَمُنــــــسَكِبُ

مُلْـــــسٌ، وَأَمثالُهُـــــا مُحَفَّـــــرَةٌ صُـــوِّرَ فيهـــا القُـــسُوسُ وَالـــصُّلُبُ

يَتْلُـــونَ إِنْجِيلَهُـــــم، وَفَوْقَهُمُـــــو سَـــمَاءُ خَمْـــرٍ نُجُومُهـــا الحَبَـــبُ

كَأَنَّهَـــــا لُؤْلُـــــؤٌ تُبَـــــدِّدُهُ أَيْـــدِي عَـــذَارَى أَفْـــضَى بِهـــا اللَّعِـــبُ

ويرى المستشرق كيندى (ص١٢- ١٣) أن تلك القصيدة إنما تؤرخ انتقال الشاعر من البصرة إلى بغداد، وتمثل لونا من التعزية عن شبابه المستقيم المتمسك بالدين هناك. ولكن ليس فى القصيدة ما يشير إلى أنها قد نُظِمَت عقب الانتقال إلى العاصمة العباسية. فكونه يتحدث عن أماكن بمدينة البصرة هَجَرَها لا يعنى أنه هجرها لتوه. ذلك أن الذكريات لا تهيج بهذه السرعة. وفوق ذلك فإن عُفُوَّ المواضع التى ذكرها يستلزم مُضِيَّ وقت غير قليل عليها. ويؤكد ما نقوله ذلك الصبر الطويل الذى صبره على أخدان الصبا ولم يصبر مثله أحد غيره ثم شعوره باليأس من لقائهم، وكلامه عن ريب الزمان الذى فرقهم أيدى سبا، وقوله إنهم لم يعد يفكر فيهم، وإشارته إلى ظهور الشيب فى عذاره، وهو ما يعنى أنه قد مضى وقت بعيد على انشعابهم، وإلا فالإنسان لا ينسى أحبابه هكذا سريعا. كما أن القصيدة تخلو مما يراه كيندى عزاء عن أيام شباب الشاعر بالبصرة. إن أبا نواس لا يشرب الخمر كى يتسلى عما ضاع من شبابه، بل هو يشربها مفاخرا منتشيا سعيدا بالجو والموضع الذى يشربها فيه، عارفا أنها الخمر، معلنا ذلك دون أية مواربة أومداراة، غير محاولٍ قط أن يخدع نفسه أو يخدعنا عن ذلك. ثم ها هو ذا يقول فى صراحة تامه إنه متى فقد صاحبا لم يحاول التعريج عليه مرة أخرى، بل ينساه فكأنه لم تكن له به صلة يوما ولانسب. وليس هذا بكلام المتألم الباحث عن

العزاء. والمستشرق نفسه يقول إن الجو النفسى الغالب على القصيدة هو جو اللعب والسرور.

هذا، ولأبى نواس شعر يتغزل فيه بالنساء قبل أن يتحول إلى الغلمان. ومنه قوله فى جنان، التى كان يحبها فى شبابه كما سبقت الإشارة أكثر من مرة:

مَـــلَأْتِ قَلْبِـــى نُـــدُوبَا   فَـــصِرْتُ صَـــبًّا كَئِيبَـــا

عَلَّمْـــتِ دَمْعِـــى سَـــكْبًا   وَمُقْلَتَـــى نَحِيبَـــا

مَـــا مَـــسَّكِ الطِّيـــبُ إلّا   أَهْـــدَيتِ لِلطِّيـــبِ طِيبَـــا

عَـــدَدْتِ أَحـــسَنَ مـــا فِى   ى، يـــا ظَلُـــومُ، ذُنُوبَـــا

أَقَمْـــتِ دَمْعـــى عَـــلى مـــا   يطْـــوِى الـــضَّميرُ رَقيبَـــا

وَتَـــضْحَكِينَ، فَـــأَبْكِى   طَلاقَـــةً وَقُطُوبـــا

أَلْقَيـــتِ مـــا بَينَ طَـــرْفى   وَبَينَ قَلْبـــى حُرُوبـــا

بَينَ الجَـــوانِحِ نـــارٌ   تَـــدْعُو الغَـــزَالَ الرَّبيبـــا

فَـــلا يـــرُدُّ جَـــوَابى   وَلا يُحُـــلُّ قَريبـــا

جِنَـــانُ يـــا نـــورَ عَينِـــى،   نَهَكْـــتِ جِـــسْمى خُطُوبـــا

إن غِبْـــتِ عَنّـــى فَقَلْبـــى   يـــوَدُّ أَلّا يغِيبـــا

وقوله فيها أيضا:

يـا ذا الـذى عَـنْ جِنـانٍ ظَـلَّ يخْبِرُنـى   بِـاللهِ قُـلْ وَأَعِـدْ يـا طَيـبَ الخَـبَرِ

قـالَ: اشْـتَكَتْكَ وَقالَـت: مـا بُليـتُ بِـهِ   أَراهُ مِـن حَيـثُما أَقبَلْـتُ فى أَثَـرى

وَيعْمِـلُ الطَّـرْفَ نَحْـوى إن مَـرَرْتُ بِـهِ   حَتّـى لَيخْجِلُنـى مِـن حِـدَّةِ النَّظَـرِ

وَإِن وَقَفْــــتُ لَـــــهُ كَيــــما يكَلِّمَنــــى فى المَوْضِـعِ الخِلْـوِ لَمِ ينْطِـق مِـنَ الحَـصَرِ

مــــا زالَ يفْعَــــلُ فى هــــذا وَيدْمِنُــــهُ حَتّـى لَقَـدْ صـارَ مِـنْ هَمِّـى وَمِـنْ وَطَـرى

وقوله فى وصف المغنية حُسْن:

طَفْلَــــــــــةٌ خَــــــــوْدٌ رَدَاحٌ هــــــامَ قَلْبــــــى بِهَواهــــــا

قَــــــدُّها أَحْــــــسَنُ قَــــــدٍّ فَاسْــــأَلوا مَــــن قَــــد رَآهــــا

مــــــــا بَراهــــــا اللهُ إِلّا فِتْنَــــــــــةً حينَ بَرَاهــــــــا

تَنْثُــــــرُ الــــــدُرَّ إِذا غَــــنْ نَــــــتْ عَلَينــــــا شَــــفَتَاها

وَأَرَى لِلْعُــــــــودِ زَهْــــــوًا حينَ تَحْوِيــــــــهِ يــــــــدَاها

رُبَّــــــما أَغــــــضَيتُ عنهــــــا بَــــصَرى خَــــوْفَ سَــــنَاها

هِــــــى هَمّــــــى وَمُنَــــائى لَيتَنــــــى كُنــــــتُ مُنَاهــــا

وهو شعرٌ سلسٌ منسابٌ فيه معان رقيقة، وصور لا تخلو من طرافة، لكنه يفتقر إلى الحرقات.

وقد وقف المستشرق فيليب كيندى (ص٣١- ٣٢) إزاء غزل أبى نواس قائلا إنه يجمع بين ملامح الغزل العذرى والإباحى معا، وعدَّ من ملامح الأول إيراده أسماء العشاق العذريين من أمثال المرقّش وجميل والمجنون وابن العجلان. فتعالَوُا الآن ننظر لنرى ماذا هنالك: ففى الأبيات التالية نجده يسخر من حياة العرب ومن كل شىء يمت بصلة إلى حياة العرب حتى يصل إلى عشاقهم المشهورين بالعفة والعذرية فيقول، ويا بئس ما يقول:

وَمِــــن عَجَــــبٍ لِعِــــشقِهِمُ الــــــ ــــجُفاةَ الجُلــــفَ وَالــــصَّحَرا

فَقَبْـــــــــلُ مُـــــــــرَقِّشٌ أَوْدَى ولم يعجـــــز، وَقَـــــد قَـــــدَرا

وَقَـــــد أَوْدَىَ ابـــــنُ عَجْـــــلانٍ وَلَم يفْطَـــــــن بـــــــه خَـــــبَرا

فَحَـــــــدَّثَ كاذِبــــــا عَنـــــــهُ وَقـــــالَ بِـــــغَيرِ مــــا شَـــعَرا

ولـــــو كـــــانَ ابـــــنُ عَجـــــلانٍ مِـــــنَ البلــــوى كَـــما ذُكِــــرا

لَكـــــــانَ أَذَمَّ عَهْـــــــدًا فى الـــــــــهَوى وَأَخَبَّـــــــهُ عُـــــذُرا

لِعِــــــشْق خَفِيــــــسةٍ حُبِــــسَتْ تمايــــــل شــــــدقها كِــــــبَرَا

تَعُــــــدُّ الـــــــشيح وَالقَيــــــصُو مَ وَالقَفْعـــــــــــاءَ وَالــــــــسَّمُرا

جَنِــــــــى الآسِ وَالنِّـــــــسْريـ ــــــــنِ والــــــسوسانِ إِذْ زَهَـــــرا

وَيغْنِيهــــــا عَــــــنِ المرجــــــا نِ أَنْ تَتَقَلَّـــــــــــدَ البَعَــــــــــرا

وَتَغْــــــــدُو فى بَراجِـــــــدِها تَـــــصيدُ الـــــذِّئْبَ وَالنَّمِــــــرا

أَمــــــــــــــا وَاللهِ لا أَشَرًا حَلَفْـــــــتُ بِــــــهِ وَلا بَطَـــــــرا

لَــــــوَ انَّ مُرَقِّـــــشًا حَـــــى تَعَلَّــــــقَ قَلْبُـــــــهُ ذَكَـــــــرا

كَــــــأَنَّ ثِيابَـــــــهُ أَطْلَعْـــــــــــنَ مِــــــن أَزْرارِهِ قَمَــــــرا

فهو، كما نرى، إنما يسخر من عشاق العرب العذريين ويستسخف حبهم وعفتهم مفضلا عليه الغرام بالذُّكْران والارتكاس فى حمأة الشذوذ عن فطرة الله التى فطر البشر الأسوياء عليها. وفى قصيدة أخرى غلمانية نراه يشكو من قسوة صاحبه عليه وهجرانه إياه متهكما بالمحبين العذريين، إذ يشبه نفسه فيما يقاسيه من لوعة حب الغلمان بما كانوا يعانونه فى حبهم العف النقى، بل يجعل معاناته أشد وأعنف:

أَيـــا مَـــــنْ أَخْلَـــفَ الوَعْـــدَ وَقَـــد حـــالَ عَـــنِ العَهْـــدِ

وَمَـــــنْ أَفْـــرَطَ فى الهِجْـــرا نِ وَالإِعْـــــراضِ وَالـــــصَّدِّ

ويـــا قـــارونُ فى الكِـــبْرِ وَيـــا عُرْقُـــوبُ فى الوَعْـــدِ

أَمَـــا والخمـــرِ والريحـــا نِ وَالـــــشطرَنْجِ وَالنَّـــــرْدِ

لَمَـــا لاقـــى جميـــلٌ عُـــشْـ ـــرَ مـــا لاقَيـــتُ مِـــن وَجْـــدى

وَلا قَيـــسٌ أخـــو لُبْنَـــى وَلا عَمْـــرٌ أخـــو دَعْـــدِ

وعلى هذا فلست من رأى المستشرق، الذى يرى أن أبا نواس يريد أن يسبغ مثالية على محبوبه، بل هو يتهاجن ويتهكم واصلا فى هذا التهكم والتهاجن والتسامح مدًى شاسعا. وأية مثالية تلك التى يمكن أن تتسق مع هذا الرجس النواسى؟ وهذه هى الأبيات التى مثل بها مستشرقنا لما قال (ص٣٣). والظبى هنا، بطبيعة الحال، غلام لا فتاة:

وَظَبْـــى تَقْـــسِمُ الآجـــا لَ بَينَ النـــــاسِ عينـــــاهُ

وَتُـــورِى البَـــثَّ والأشـــجا نَ فى القَلْــــبِ ثَنَايـــــاهُ

وَيحْكِـــى البَـــدْرَ وَقْـــتَ الـــتَّمْ مِ لِـــــلأَعْينِ خَـــــدّاهُ

تَعـــالى اللهُ! مـــا أَحْـــ ـــسَنَ مـــا صَـــوَّرَهُ اللهُ!

غـــزالٌ لـــو دعـــا الخَـــضْرَ لَلَبّـــــاه وفَـــــدَّاهُ

ولـــو مُلِّـــكَ بَـــرْوَازٌ مُنَـــاه مـــا تعـــدَّاهُ

لَـــهُ آخِـــرَةٌ قَـــد أَشْـــ ـــبَهَتْ فى الحُـــسْنِ دنيـــاهُ

فَلَـــو أَنّـــا جَحَـــدْنا الـــ ـــلهَ يومًـــا لَعَبَـــدْناهُ

بِنَفْسى مَنْ إذا ما النَّأْ ... ى عن عَيْنَى واراهُ

كَفانى أَنَّ جُنْحَ الليـ ... ـلِ يغْشَانى وَيغْشَاهُ

وينظر كيندى (ص٤٠ فصاعدا) إلى غزل أبى نواس: الشاذ منه والطبيعى على أنه يصور علاقة بين سيد وعبد: الشاعرُ هو العبد، وحِبُّه هو السيد، ثم يقف أمام القصيدة التالية قائلا إن أبا نواس قد قلب بها الترابيزة على معشوقيه فى القصة التى تحكيها. يقصد أنه قد صار هو السيد، وصاروا هم العبيد. ذلك أنه قد خدعهم واعتدى على عرضهم دون أن يشعروا:

وفتيةٍ ساعةً قد اجتمعوا ... مثل الدنانير حين تُنْتَقَدُ

فساقنى الحينُ نحو جمعهمُو ... إذا يقولون: قد دنا الأحَدُ

فبَاكِرُوا الشربَ واقْطَعوه بهِ ... فملتُ للموضع الذى وعدوا

على كرزيةٌ ومِشْمَلَةٌ ... وكَرْزَنٌ فى حبلهِ مَسَدُ

فكنتُ أدناهم مسابقةً ... إلى المكان الذى به اتّعَدوا

حتى إذا ما اشتَرَوْا حوائجهم ... والحرصُ يرجيهم لما صمدوا

قمتُ إليهم فقلتُ: أحملها ... أنا، فعندى لمثلها عُدَدُ:

حبلٌ وثيقٌ وكَرْزنٌ، وأنا ... بحملهِ ناهضٌ ومتّئدُ

قالوا: فخذهُ، فأنتَ لهُ ... سوف نكافيكَ بالذى نجدُ

سرتُ، وساروا إلى أجمعهم ... وقيل لى: "اصعد"، صعدتُ ما صعدوا

إذا الأباريق تُجْتَلَى لهمُو ... وفى شجاةٍ ومُطْرِبٌ غرِدُ

بادرتُ نحو الزجاج أغسلهُ ... حتى تَنَقَّى كأنّه البَرَدُ

فأعجـــبَ المُــــرْدَ خِفّتـــى لهمُــــو   وليـــس فى خِفّتـــى لهــم رَشَـــدُ

مــــا زلـــتُ أســـقيهمُو مشعـــشعةً   كأنهــــا النــــارُ حين تتّقـــــدُ

حتـــى رأيــــتُ الـــرؤوسَ مائلــــةً   كـــأنّ مــــن سُـــكْرٍ بهــــا أَوَدُ

واعتُقِلَـــتِ الألـــسنُ واســـتُوثِقَتْ:   فنــــائمٌ صــــحبُنا ومـــستنِدُ

قمـــتُ، وبـــى رعـــدةٌ، لـــ...ـــهمُو   وكـــلّ مَـــنْ دبَّ فهْـــو يرتعـــدُ

فبطّـــأت بـــى عـــن لـــذّتى تِكَــكٌ   ثـــم لطفْنـــا بحـــلّ مـــا عقـــدوا

عـــن ... كـــلٍّ تهتـــزُّ قامتـــهُ   كالغُـــصُنِ النـــضرِ زانـــهُ المَيـــدُ

يـــا ليلـــةً بِتُّهـــا أخـــا طـــربٍ   قـــــد دام فيهـــــا تمتّـــــعٌ ودَدُ

مِـــنْ ذا إلى ذا قـــد قـــصدتُ لأنـــ   ... فى البيـــت كـــلّ مـــن أجـــدُ

حتـــى إذا مـــا أفـــاقَ أوّلهُـــم   قـــامَ وفخـــذاهُ فيهـــما خَـــضَدُ

فقمـــــتُ مـــــن خيفـــــةٍ أنـــــبّههُم   أقـــولُ: هـــل نـــالكم كـــما أجـــدُ؟

أو ذا الـــذى قـــد أرى بنـــا عـــرَقٌ   قـــالوا: نـــراهُ كأنّـــه ...ـــدُ

فـــحين أبـــصرتهم قـــد انتبهـــوا   ذهبـــــتُ أعـــــدو لحاجـــــةٍ أرِدُ

حتـــى إذا المجلـــس اســـتجدّ بهـــم   غامَـــضْتُهم، والكـــؤوسُ تطّـــردُ

عـــلى أدقّ الثيـــابِ مُـــسْبَلَةٍ   برّاقـــةِ اللـــونِ كلّهـــا جـــددُ

فقيـــلَ: مـــن أنـــتَ؟ قلـــتُ: خـــادمكم   لا عقـــلٌ يخْـــشَى لـــه ولا قَـــوَدُ

ثـــمّ تَغَنَّيـــتُ وامقًـــا طربًـــا: يـــا ليـــتَ ســـلمى تَفِـــى بـــما تعـــدُ!

ولا شك أن كثيرا من الشعراء، ومنهم أبو نواس، يتحدثون عن أنفسهم على أنهم عبيد لمن يحبونهم. فأبو نواس فى هذا ليس بدعا من الشعراء. كذلك فما

صنعه أبو نواس فى هذه القصيدة لا يعد استثناء، إذ ليست هى وحدها التى قلب فيها الترابيزة على الحبيب، فمن المعروف أن المحب إنما يتذلل لمحبوبه إلى أن ينال منه ما يريد، حبا كان هذا الذى يريد أو شهوة: فأما العذريون فهم صادقون فى هذا التذلل لأنهم يحبون من كل قلوبهم، وحياتهم تمسى تعاسة تامة بدون الوصول إلى من يحبون. وأما الإباحيون فهم كالثعالب الماكرة تتظاهر بهذه الذلة وصولا إلى ما تريد. إنهم يسيرون على مبدإ "تمسكن حتى تتمكن". فما بالنا إذا كان العاشق شاذا؟ هل العاشق الشاذ يمكن أن يشعر بقداسة حبيبه، وهو المرتكس معه فى حمأة الدنس والانحراف والقاذورات؟ وما بالنا إذا ما كان العاشق الشاذ من طينة أبى نواس ممن لا يخجل ولا يتستر ولا يفكر فى مداراة قذارته ورجاسته؟ إنه مغرم بعرض تفاصيل التفاصيل من هذا الدنس الحقير مفاخرا ومباهيا بأنه انتصر على حِبّه وشامتا به بأنه صنع به كذا وكذا مما يعف عن ذكره أى إنسان يتمتع بشىء من الذوق واللياقة حتى لو حرمه الله كل خلق كريم. ولدينا المؤلف نفسه يقول (ص٥٠) إن أبا نواس حريص على أن يصور نفسه فى ذلك الميدان بصورة ذئب فى ثياب حَمَل. فكيف يتصور أنه قد فسر غزل أبى نواس فى ضوء علاقة السيد والعبد كما يقول؟ إن الذئب لا يمكن أن يكون عبدا!

ثم كيف ننتظر من مثل أبى نواس أن ينظر إلى عشيقه على أنه سيد له ينبغى إجلاله وإكباره؟ إنه ليس جميل بن مَعْمَر ولا قيس بن ذَرِيح ولا كُثَيِّر بن عبد الرحمن، بل أبا نواس، وهذا يكفى لقول كل شىء. وما من مرة تذلل فيها أبو نواس إلا وكان غرضه نيل ما يريده من العشيق، وهو لا يريد من العشيق إلا كل

ما هو دنس منحط فظ غليظ. فما الجديد إذن فى هذه القصيدة كى يتوقف أمامها المستشرق بوصفها شيئا فريدا خارجا عن المعتاد؟

ثم إن أبا نواس فى هذه القصيدة بالذات قد اشتغل فعلا عبدا لمن يقول إنه نال منهم مبتغاه، إذ ارتدى ملابس الحمالين وحمل فى يده وعلى كتفه أدواتهم وعرض نفسه على الشبان المذكورين فى القصيدة على أنه خادم يمكن أن يحمل عنهم حاجاتهم ويقضى لهم مطالبهم ويغسل لهم كؤوسهم ويعد لهم شرابهم ويدور عليهم بالأطباق والأكواب، وهو ما قام به فعلا إلى أن أسكرهم كما يزعم واعتدى عليهم. ثم ظل إلى آخر القصيدة يردد عليهم أنه خادمهم المطيع وأنه قد فُعِل به مثل ما فُعِل بهم. كما أنه أخطأ خطأ آخر، إذ ترجم الكلام فى القصيدة على أن أبا نواس قد اتخذ سَمْت الواعظين لا الخدم والحمالين.

وطبعا فأبو نواس كاذب فى كل ما قاله، فلم يحدث شىء مما تقوله حكايته الساذجة المضحكة من مفتتحها إلى مختتمها، إذ الأمور لا تجرى فى الواقع كما جرت فى ذلك الفلم الهندى الهابط الذى كتب قصته ونسق مناظره وأعد حواره وأخرجه أبو نواس الدَّعِىّ. وعلى هذا فما قاله المستشرق هنا غير صحيح. وأحب هنا أن أهتبل الفرصة فأوضح أننى إذا ما كنت آخذ كلام النواسى فى شعره على أنه صحيح فما ذاك إلا من الناحية الفنية البحتة، وإلا فلا أظن أن الأمور كانت تجرى فى الواقع بهذه السهولة ولا أنه كان ينجح فى مغامراته دائما أو غالبا، إذ من غير المعقول أن يخرج من كل عدوان على غلام من الغلمان كالشعرة من العجين دون أن يتصدى له أهل الغلام لينتقموا منه أو ليحموا ابنهم من هذا العدوان قبل وقوع الفأس فى الرأس، بل دون أن يفشل فى أى من محاولاته تقريبا.

كذلك لا يعقل أن يكون المجتمع من التبلد والبرود بحيث يتقبل دنس أبى نـواس وأمثالـه مـع أولادهـم وشـبابهم بهـذه اللامبـالاة التـى تـصورها أشـعاره والروايات التى تدور حول تلك الأشعار. ذلك أنها تتحدث عن تصرفاته الشاذة وكأنها تتحدث عن أخذه نَفَسَه. وهل حدث يوما أن إنسانا لم يستطع أن يأخذ نفسه؟ بل إن الشبان الذين يذكر فى شعره أنه نال منهم مبتغاه على كره منهم يتقبلون ما حدث، طبقا لكلامه، بوصفه أمرا عاديا لا يثير حقدا ولا غضبا ولا يستفزهم إلى رد اعتبارهم والانتقام لكرامتهم المَهِيضَة، وهو ما لا يمكن أن يكون لأنه ينافى طبيعة الحياة والبشر. إن الشعراء كثيرو المزاعم والادعاءات، ولو صَفَا كلامهم على العُشْر لكانوا من أصدق الصادقين. أما ما يقوله أبو نواس فلا يدخل عقل عاقل. ومع هذا فإننا نركز عادة على الناحية الفنية وكأننا نصدق ما يقول.

ومما التفت إليه المؤلف أيضا فى شعر أبى نواس (ص٤٣ وما بعدها) تكرُّر الاستعانة بإبليس لإغواء الحبيب حين يصد عن الشاعر وتنسد فى وجهه الأبواب والمسالك، فحينئذ يلجأ إلى تهديد إبليس بأنه سوف يتوب ويقلع عن الآثام ويلتزم جادة الاستقامة والتقوى ولن يطيعه بعد ذلك أبدا إن لم يبادر إلى معونته بتحنين قلب الحبيب عليه، مما يؤتى ثمرته سريعا، إذ يبادر إبليس إلى تسهيل الصعاب وتذليل العِقَاب، فينال أبو نواس من حِبّه ما يريد بأيسر سبيل:

لَمّا جَفَانى الحَبِيبُ، وَامْتَنَعَتْ ... عَنِّى الرسالاتُ مِنهُ وَالخَبَرُ

اشْتَدَّ شَوْقى، فَكادَ يقتُلُنى ... ذِكْرُ حبيبى وَالهَمُّ وَالفِكَرُ

دَعَوْتُ إِبليسَ ثُمَّ قُلتُ لَهُ ... فى خَلْوَةٍ وَالدموعُ تَنْهَمِرُ:

أَما ترى كيف قَد بُلِيتُ، وَقَد ... أَقْرَحَ جَفْنِى البُكَاءُ وَالسَّهَرُ؟

إنْ أَنْـــــتَ لَمْ تُلْـــــقِ لى المَـــــوَدَّةَ فى صَـــدْرِ حبيبـــى، وَأَنْـــتَ مُقْتَـــدِرُ

لا قُلْـــتُ شِـــعْرًا وَلا سَـــمِعْتُ غِنًـــا وَلا جَـــرَى فى مَفَاصِـــلِى الـــسَّكَرُ

وَلا أَزالُ القُـــــــرانَ أَدْرُسُـــــــهُ أَرُوحُ فى دَرْسِـــــــهِ وَأَبْتَكِـــــــرُ

وَأَلْـــزَمُ الـــصومَ والـــصلاةَ وَلا أزالُ دَهْـــــرِى بِـــــالخَيرِ آتَمِـــــرُ

فَـــــما مَـــــضَتْ بَعْـــــدَ ذاكَ ثالِثَـــــةٌ حَتّـــى أَتـــانى الحَبِيـــبُ يعْتَـــذِرُ

ولحرصى على أن يضحك القارئ ما دمنا فى سيرة إبليس أنقل له الجزء التالى من محاضرة الشيخ الداعية الخليجى سعيد بن مسفر، وهى عن إبليس أيضا ومسارعته إلى المعاونة على الفساد: "يقول أحد السلف: إذا نسيتَ شيئًا وأردت أن تذكره فقم إلى الصلاة. مباشرةً يأتيك الشيطان من أجل أن يلهيك عن الصلاة، ولا يأتيك الشيطان بأهم شيء إلا إذا صليت. يعرف الشيطان من خلال ملابسته لك ما هو موضع اهتمامك: إن كنت تاجرًا فاهتمامُك بالتجارة، وإن كنت تبنى عمارة فتفكيرُك كله فى العمارة: كيف التفصيل؟ ومن المقاول؟ وأين نضع المجلس؟ وأين نضع الرخام؟ يضع العمارة كلها بين يديك، فإذا أكملت الصلاة ضيعَها عليك، فإذا بك لا صلاة ولا عمارة... وهكذا. أذكر قصة وقعت لى قبل نحو ٢٥ سنة، وكنت فى أبها، فأرسل لى أحد المحسنين مبلغًا من المال لتوزيعه على فقراء منطقة تهامة: مائة وخمسين ألفا، وجاء بها فى حقيبة دبلوماسية تركتها فى ليلة من الليالى قبل التوزيع لأنى أرسلت إلى تهامة إلى بعض طلبة العلم لكى يأتوا ويوزعونها، فأردت زيارة أرحامى، فأخذت أهلى وركبت. فلما ركبنا فى السيارة تذكرت الحقيبة، قلت: يمكن أن يسرقها لص، وأنا ليس لدى إلا بيتى أبيعه وأعوّض، فذهبتُ وأخذت الحقيبة ووضعتها فى السيارة، فإذا وصلنا البيت

أنزلها. فوصلنا بيت الأهل، وإذا بالمؤذن يؤذن، فأنزلتهم وذهبت أصلى وجعلت الحقيبة فى الحوض، أخرجتها من الحرز إلى الشارع! دخلت المسجد وصليت الركعتين تحية المسجد وجلست أقرأ، وجاء الإمام، فلما رآنى قال: يا شيخ! أريد منك كلمة بعد الصلاة. قلت: خيرًا إن شاء الله. فلما أقيمت الصلاة قَدَّمَنى. ولما قلت: "الله أكبر" قال الشيطان: والحقيبة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله! أى لو أنه قال لى قبل الصلاة لخرجت، ولو تركنى على الأقل أُصَلِّى وبعد ذلك يقول لى. أجل، المصيبة وقعت، لكن مع بداية الصلاة. فأصابتنى هزة أشبه بالصعق الكهربائى! مائة وخمسون ألف ريال أتركها فى الشارع، وأنا لا أملك فى الدنيا إلا بيتًا لو بعته ما يأتى بخمسين ألفا، والمائة والخمسون الألف فى تلك الأيام تعدل مليونًا ونصف؟ فما عرفت ماذا أقرأ. من بداية الصلاة أردت أن أنصرف! صعب. أواصل؟ أصعب! جمعت نفسى وقرأت الفاتحة، وأتى الشيطان وأنا فى الركعة الأولى، قال: بسيطة! ويضع لى حُلُولًا، فخرجتُ من الصلاة وأنا لا أعلم ماذا صليت. ولما انتهيت من الصلاة أردت أن أخرج، وإذا بأخينا إمام المسجد يقوم، قال: معنا فى هذه اللحظة المباركة فضيلة الشيخ سعيد بن مسفر، وقد أكرمنا الله به فى هذه الساعة، فنطلب من فضيلته أن يتحفنا بكلمة. قلت: يا شيخ! لا يوجد لدى كلمة ألقيها. قال: "والله لابد أن تتكلم"! لا حول ولا قوة إلا بالله: أنا ليس عندى كلام، وحالتى النفسية مضطربة! فقمت واستفتحت وتكلمت بكلمتين، وقد قيدتُ الجالسين، وما أردت أحدًا أن يخرج. خفتُ أن يخرج شخص من أمامى فيأخذها، فقيدتهم بالجلوس فى مجالس الذكر وفضيلة مجالس الذكر وأن الذى يخرج من مجلس الذكر منافق. المهم سَلَّمْتُ وخرجتُ، وإذا بالحقيبة مكانها، فأخذتها ودخلت سجدت لله سجدة شكر. قلت: والله ما حفظها إلا ربى، أما أنا

فقد ضيعتُها. لكن الشاهد أن الشيطان لا يذكّر بالشىء إلا فى الصلاة. وأعدت صلاتى تلك".

على أن هذا لا يعفى إبليس من سخرية الشاعر وشماتته به حين أخذه الكِبْر، فرفض طاعة ربه بالسجود لآدم تصورا منه أنه أفضل عنصرا لأنه مخلوق من النار بينما أبو البشر مجبول من طين، لينتهى به المطاف إلى الاشتغال قوادا لدى ذريته. يقول الشاعر فى نهاية إحدى قصائده واصفا ما دار بينه وبين حِبّه:

فَتــارَةً أَشْرَبُ مــن ريقِــهِ وَتــارَةً أَشْرَبُ مــن فَــضْلَتِهْ

وَكُلَّــما عَــضَّضَ تُفّاحَــةً قَبَّلْــتُ مــا يفْــضُلُ مــن عَــضَّتِهْ

حَتّــى إِذا أَلْقَــى قِنَــاعَ الحَيَــا وَدَارَ كَــسْرُ النــومِ فى مُقْلَتِــهْ

سَرَتْ حُمَيَــا الكَــأسِ فى رَأْسِــهِ وَدَبَّــتِ الخمــرةُ فى وَجْنَتِــهْ

فَــصارَ لا يــدْفَعُ عَــنْ نَفْــسِهِ وَكَــانَ لا يــأْذَنُ فى قُبْلَتِــهْ

دَبَّ لَــهُ إبليــسُ فَاقْتَــادَهُ وَالــشَّيخُ نَفّــاعٌ عَــلَى لَعْنَتِــهْ

عَجِبْــتُ مِــنْ إِبْليــسَ فى تِيهِــهِ وَخُبْــثِ مــا أَظْهَــرَ مِــن نِيتِــه

تــاهَ عَــلى آدَمَ فى سَــجْدَةٍ وَصــارَ قَــوّادًا لِذُرِّيتِــه

وثمة قصيدة أخرى لا يستعين فيها الشاعر بالشيطان، بل الشيطان هو الذى يبادره بالغواية فلا يجد منه استجابة، إذ كان نائما، ويبدو أنه كان فى غاية من الإرهاق فلم يستطع النهوض واغتنام الفرصة الإبليسية وآثر الاستمرار فى الرقاد:

نمــتُ إلى الــصبحِ، وَإِبْليــسُ لى فى كُــلِّ مــا يــؤْثِمُنى خَــصْمُ

رَأَيتُـــــــهُ فى الجَـــــــوِّ مُـــــــستَعْلِيا　　ثُــــمَّ هَـــــوَى يتْبَعُـــــهُ نَجْــــمُ

أرادَ لِلـــــــسمعِ اسْـــــتِراقًا، فَـــــما　　عَـــــتَّمَ أَنْ أَهْبَطَــــــهُ الــــــرَّجْمُ

فَقـــــالَ لى لمــــا هَـــــوَى: مَرْحَبًـــا　　بِتائِـــــــبٍ تَوْبَتُـــــــهُ وَهْـــــــمُ

هَـــــل لَـــــكَ فى عَـــذْراءَ مَمْكُـــورَةٍ　　يزِينُهـــــا صَـــــدْرٌ لَهـــــا فَخْـــمُ

وَوارِدٌ جَثْـــــــلٌ عَـــــــلى مَتْنِهـــــــا　　أَسْــــــوَدُ يحكـــــى لَوْنَـــــهُ الكَـــــرْمُ؟

فَقُلْـــــتُ: لا. قـــــال: فَتًـــــى أَمْـــرَدٌ　　يـــــرْتَجُّ مِنْـــــهُ كَفَـــــلٌ فَعْـــــمُ

كَأَنَّـــــــهُ عَـــــــذْرَاءُ فى خِـــــدْرِها　　وَلَيـــــــسَ فى لَبَّتِـــــــهِ نَظْـــــــمُ؟

فَقُلــــتُ: لا. قـــالَ: فَتًـــى مُـــسْمِعٌ　　يحْـــــسُنُ مِنـــــهُ النقــــرُ وَالــــنَّغْمُ؟

فَقُلــــتُ: لا. قـــال: ففـــى كُـــلِّ مـــا　　شـــابَهَ مـــا قُلْـــتُ لَـــكَ الحَـــزْمُ

مــــا أَنـــا بِـــالآيسِ مـــــن عَــــوْدَةٍ　　مِنْـــكَ عَـــلى رَغْمِـــكَ يـــا فَـــدْمُ

لَــــسْتُ أَبـــا مُـــــرَّةَ إِنْ لَمْ تَعُـــــدْ　　فَـــغَيرُ ذا مِـــــن فِعْلِـــكَ الغَـــشْمُ

ولا شك أن وراء فكرة القصيدة وحكايتها وحبكتها وحوارها والتصميم الإبليسى الأخير على العودة وتكرير المحاولة بغية النجاح فى ختل الشاعر وإيقاعه فى حبائل المعصية والإثم خيالا طريفا وظرافة شهية. وأظرف ما فى الحوار شتم إبليس للشاعر التائب أو المتكاسل بأنه "فَدْم"، أى "غشيم" لا يفهم الحياة ولا يستطعم ملذات الحياة.

وقد لاحظت أن المستشرق يسمى "إبليس" بـ"الملاك الساقط" جريا على عقيدة الكتاب المقدس فى أنه كان ملاكا ثم عصى الله فسقط من عليائه حيث كان مع الملائكة. وهذا خطأ منه لأن إبليس فى الإسلام شيطان لا ملاك، وكان ينبغى

أن يلتزم بما يقوله المسلمون ما دام يتحدث عن شاعر ينتسب إلى الإسلام، ويقول فى إبليس ما يقوله القرآن حسبما جاء فى الأبيات السابقة إذ يتحدث فيها عن رجمه حين أراد استراق السمع مما هو من عمل الشياطين وعقاب الشياطين لا الملائكة، وكذلك فى الأبيات التالية حيث يشير النواسى إلى رفض إبليس السجود لآدم وغضب الله عليه، مما لا يعرفه الكتاب المقدس، فضلا عن خطإ آخر فى فهم النص وقع فيه كيندى إذ ظن أن المقصود فى الأبيات بـ"سيد العالمين" هو إبليس بينما المراد آدم كما هو واضح فى المقطوعة:

سـوءةً بـالعيونِ أنـتَ احْتَنَكْـتَ النـا   سَ غيظًـا عليهمُـو أجمعينـا

تِهْـتَ لمّـا أُسْـجِدْتَ فى سـالف الدهـ   ـر وفارقـتَ زهـرةَ السـاجدينا

عنـدما قلـتَ: لا أطيـق سـجودًا   لمثـالٍ خِلَقْتَـهُ، ربُّ، طينـا

حـسدًا إذ خُلِقْـتَ مـن مـارجِ النـا   رِ لمـن كـان سـيد العالمينـا

ثـم قـد صِرْتَ فى القيـادةِ تـسعى   يـا مُجِيرَ الزنـاةِ واللائطينـا

وبعد أن انتهى المستشرق من الكلام عن إبليس فى شعر النواسى نراه يخصص قسما من كتابه لمعاجلة خمرياته احتوى على عدة أفكار منها مثلا (ص٥٧) أنه صار ممكنا لدى المسلمين فى القرن الحادى عشر الميلادى التسامح مع الخمر فى الشعر باعتبارها رمزا صوفيا، إلى أن ظهر اتجاه فى العصر الحديث يسحب هذه النظرة على شعر الخمر السابق على ذلك التاريخ، إلا أن كيندى لا يوافق على هذا قائلا فى تهكم: إن كان أبو نواس صوفيا من المتصوفة فلا شك أنه كان شديد البراعة فى إخفاء ذلك عن معاصريه والبطانة التى تحيط به. وهذا لا ينطبق على أبى نواس وحده، بل على كل من كان ينظم فى الخمر قبل دعوى شعراء الصوفية

بأنهم لا يقصدون بالخمر تلك الخمر المعروفة بل نشوة القرب من الذات الإلهية، وإن كان لا بد من القول بأن كيندى لم يذكر لنا أصحاب هذا الاتجاه، فبقى كلامه معلقا فى الهواء.

بل إنى لأذهب أبعد من هذا فأقول إننى لا أستبعد أن يكون من أولئك المتصوفة من كانوا يشربونها فأرادوا صرف العيون والعقول عن تورطهم فى إثمها فقالوا إنهم إنما يتَغَنَّوْن بنشوة القرب من الذات الإلهية. ثم إنى لا أفهم أن يترك أولئك المتصوفة كل شىء جميل يبعث النشوة فى النفس فى دنيانا هذه ويمسكوا بالخمر متخذيها رمزا على تلك النشوة الروحية رغم وصف الله سبحانه لها فى كتابه بأنها "رجس من عمل الشيطان" وتشديده النكير على شاربيها، ورغم صرامة موقف الرسول منها ومن محتسيها. إن ما صنعه المتصوفة هنا، إن قبلنا دعواهم أصلا، هو أمر أقل ما يقال فيه أنه سخيف ومجاف للياقة والذوق لأنه لا يناسب جلال الله وعظمته وما ينبغى له من الطاعة المطلقة، إذ نأتى إلى إثم من الآثام المغلظة فى الإسلام ونزعم أننا نتخذه رمزا على حالة النشوة التى تتلبسنا لدى اقترابنا من الحضرة الإلهية. وأنا حين أقول ذلك لا أقوله من فراغ ولا على غير أساس، إذ ألفيتُ مَنْ درستهم من كبار المتصوفة يزعمون لأنفسهم ويزعم لهم حواريوهم المعجزات والكرامات التى لا يمكن أن يتقبلها عقل حتى لو كان عقل عصفور مسكين. واتضح لى أن كثيرا مما يقوله هؤلاء كذب فى كذب. ومن ثم أرانى لا أطمئن إلى ما يقولونه عن الخمر فى أشعارهم من أنه وصف رمزى لحالة النشوة الروحية التى يدَّعُون الوصول إليها والتى وقفتُ إزاءها ودرستها بالتفصيل محللا ما يقولونه عن المقامات والأحوال مبينا مناقضة ذلك للطبيعة البشرية ولما نعرفه عن أحوال الصحابة والصالحين الحقيقيين. وقد شرحت ذلك

شرحا مطولا فى كثير من المواضع من كتابىَّ: "فى التصوف والأدب الصوفى" و"عبد الحليم محمود- صوفى من عصرنا".

ومما قاله كيندى أيضا أن الشعراء فى الجاهلية كانوا كثيرا ما يشبِّهون ريق الحبيبة بطعم الخمر (نفس الصفحة السابقة). وهذا صحيح، لكن فاتته الإشارة إلى أنهم أيضا قد شبَّهوا نظرات عينيها بالراح. كما أختلف معه فيما قاله من أن ذكر الخمر فى بعض الشعر الجاهلى يمكن أن يكون عزاء عن الفشل فى الحب. ذلك أنى لا أذكر وقوعى على أى نص يدل على ذلك. وكان ينبغى أن يستشهد مؤلفنا بشىء من الشعر على ما يدعى، وهو ما لم يفعله، فظلت دعواه مجرد كلام لا دليل عليه. ثم ينتقل (ص٥٧- ٥٨) إلى نقطة أخرى هى أن الخمر، التى كانت مجرد موضوع ملحق بالقصيدة الجاهلية، قد استقلت منذ بداية القرن السابع الميلادى بنفسها فى بعض القصائد. ورغم أنه لم يسق شاهدا على ما يقول فإننا نستطيع أن نشير فى هذا السياق إلى أبى محجن الثقفى، وهو شاعر مخضرم ظل يحارب الإسلام حتى غزوة الطائف، ثم أسلم بعد ذلك، إلا أنه ظل متعلقا بشرب الراح رغم هذا حتى حبسه عمر بسبب ذلك ونفاه إلى جزيرة منعزلة سرعان ما هرب منها راحلا إلى الشام حيث كانت المعارك الطاحنة دائرة بين الإسلام والروم بقيادة سعد بن أبى وقاص، فأمر عمرُ قائدَه الباسلَ بحبسه وتكبيله، وهو ما نفذه سعد، بيد أن شاعرنا الفارس الهمام لم يطق أن يظل مكبلا فى الوقت الذى تجرى فيه المعارك بين الإسلام والكفر، فناشد امرأة سعد أن تطلقه، وأعطاها كلمة شرف على أنه سوف يعود فيضع نفسه فى الحبس والقيد متى انتهت المعارك وهو على قيد الحياة، فأطلقته، فانطلق يبلو البلاء البطولى الشامخ حتى انتصر المسلمون، فوَفَّى بكلمته ورجع إلى قيده. وما إن علم سعد بما وقع حتى أطلق سراحه، فما كان من الفارس الشاعر إلا أن أعلن توبته الصادقة عن أم الخبائث. ومما قاله فى هذا الصدد:

رأيـــتُ الخمـــرَ صـــالحةً، وفيهـــا　　مناقـــبُ تُهْلِـــكُ الرجـــلَ الحليـــما

فـــــلا واللهِ أشربُهـــــا حيـــــاتى　　ولا أســـــقى بهـــا أبـــــدًا نـــــديما

❋ ❋

يقـــول أُنـــاسٌ: إشرب الخمـــرَ. إنهـــا　　إذا القـــومُ نالوهـــا أصـــابوا الغنـــائما

فقُلْـتُ لهـم: جَهْـلًا كَـذَبْتم. أَلَـم تـرَوْا　　أَخاهـا سـفيهًا بعـد مـا كـان حالمـا

وأَضْـحَى وأَمْـسَى مُـستَخَفًّا مُهَيـمًا؟　　وحَـسْبُك عـارًا أن تـرى المـرءَ هـائما

❋ ❋

أتـــوبُ إلى الله الــــرحيم، فإنــــه　　غفـــورٌ لـــذنبِ المـــرءِ مـــا لم يعـــاوِدِ

ولـستُ إلى الـصَّهْباءِ مـا عِـشتُ عائـدًا　　ولا تابعًـــا قـــولَ الـــسفيهِ المُعانـــدِ

وكيـفَ، وقـد أعطَيـتُ رَبِّـى مَواثِقًـا،　　أعـودُ لهـا، واللهُ ذو العـرشِ شـاهدى؟

ســــأترُكُها مَذمومــــةً لا أذوقُهــــا　　وإِن رَغِمَـتْ فيهـا أنـوفُ حواسـدى

❋ ❋

أَلَـم تَرَنـى وَدَّعـتُ مـا كنـتُ أشربُ　　مـن الخمـر إذ رأسـى، لَـكَ الخيرُ، أَشْيبُ؟

وكنـــتُ أروِّى هـــامَتى مـــن عُقَارهـــا　　إذِ الحـــدُّ مـــأخوذٌ، وإذ أنـــا أُضْرَبُ

فلـــمّا دَرَوْا عنِّـــى الحـــدودَ تركتُهـــا　　وأضـــمرتُ فيهـــا الخيرَ، والخيرُ يطلَـــبُ

وقـــال لى النَّـــدْمانُ لمـــا تركتُهـــا:　　أألجِـدُّ هـذا مِنـكَ أم أنـتَ تَلْعَـبُ؟

وقـالوا: "عجيـبٌ تركُـكَ اليـومَ قهـوةً"　　كـأنى مجنـونٌ، وجِلـدى أجـربُ

ســـــأتركُها للهِ ثـــــم أذمُّهـــــا　　وأهجرُهـــا فى بيتهـــا حيـــثُ تُـــشْرَبُ

والآن ها هو ذا نص من نصوصه الشعرية لايتناول شيئا آخر سوى الخمر:

ألا سَــقِّنى يــا صــاحِ خمــرًا، فــإنّنى ... بــما أنــزلَ الــرحمنُ فى الخمــرِ عــالمُ

وجُــدْ لى بهــا صِرْفًــا لأَزْدادَ مَــأثمًا ... ففــى شُرْبهــا صِرْفًــا تــتِمُّ المــآثمُ

هــى النّــارُ، إلاَّ أنّنــى نلــتُ لــذةً ... وقَــضَّيتُ أوطــارى، وإنْ لام لائــمُ

❋ ❋

إذا مُــتُّ فــادفِنّى إلى أصــلِ كَرْمَــةٍ ... تــروِّى عظــامى فى الــتراب عروقُهــا

ولا تَــدْفِنَنّى بــالفلاةِ، فــإنّنى ... أخــافُ، إذا مــا مــتُّ، ألا أذوقُهــا

أُباكِرُهــا عنــد الــشروقِ، وتــارةً ... يعَــاجِلنى بعــد العَــشِى غَبُوقُهــا

وللكــأسِ والــصهباءِ حــقُّ مــنعَّمٍ ... فمــن حقّهــا أن لا تُــضَاعَ حُقُوقُهــا

أقوِّمُهــا زِقًّــا بحِــقٍّ: بِــذاكُمُو ... يــساقُ الينــا تَجْرُهــا، ونَــسُوقُها

وعنــدى عــلى شُرْبِ العُقَــارِ حَفيظَــةٌ ... إذا مــا نِــساءُ الحــى ضــاقت حُلُوقُهــا

وأُعْجِلْــنَ عــن شــدِّ المــآزر وُلَّهًــا ... مُفَجَّعَــةَ الأصــواتِ قــد جَــفَّ ريقُهــا

وأمنــعُ جــارَ البيــتِ ممــا ينوبُــهُ ... وأُكْــرِمُ أضــيافًا قِرَاهــا طُرُوقُهــا

❋ ❋

إن كانــتِ الخمــرُ قــد عَــزّتْ وقــد مُنِعَــتْ ... وحــالَ مــن دونهــا الإســلامُ والحــرَجُ

فقــد أباكِرُهــا رِيــا وأشربُهــا ... صِرفًــا، وأطــرَب أحيانًــا فــأمتزجُ

وقــد تقــومُ عــلى رأســى مُغنّيــةٌ ... فيهــا، إذا رفعــتْ مــن صــوتها، غَــنَجُ

تُرَفِّــعُ الــصوتَ أحيانًــا وتَخْفِــضُهُ ... كــما يطِــنُّ ذبــابُ الروضــةِ الهَــزِجُ

ويقول كيندى، ضمن ما يقول فى هذا الجزء، إن السلطات قد غَضَّتِ الطَّرْف عن شرب الخمر من قِبَل النخبة، التى كانت تعيش فى جو خانق، مَعْرِفَةً منها بأنه لا يشكل تحديا ولا يسبب خطرا للنظام الدينى والسياسى (ص٥٨). ولا أظن هذا التفسير صالحا، إذ كان شُرَّاب الخمر عادة ما يتناولونها فى بيوتهم أو فى الحانات بعيدا عن أعين الدولة: فأما البيوت فليس من حق الحكومة أن تقتحمها وتهتك ستر أهلها. وقد رأينا عمر بن الخطاب نفسه، رغم تشدده ويقظته، يقر بذلك ويتراجع عن معاقبة شاربيها الذين شعر بهم يشربون ويقصفون خلال عَسِّه ذات ليلة فى المدينة أيام خلافته، فتسور عليهم الحائط وفاجأهم متلبسين بالجريمة، فحاجُّوه بأنه قد اقتحم عليه دارهم دون إذن منهم، فعندئذ اكتفى بالحصول على وعد منهم بالإقلاع عن شربها، وهو ما أَعْطَوْه إياه. وأما الحانات فمن الواضح من بعض حكايات أبى نواس الشعرية ذاتها أن أصحابها، وهم من غير المسلمين، كانوا متى جاءهم مسلم يريد الشرب تناوموا وتظاهروا بأنهم لا يسمعون دق الباب، إلى أن يطمئنوا أنه صادق وليس جاسوسا يريد إيقاعهم فى حبائل القانون، فعندئذ يفتحون له بابهم ثم يغلقونه من خلفه ويقدمون له ما يريد ما دام معه الأصفر الرنان. وقد أشار المستشرق بصريح العبارة إلى أن صنع الخمر وبيعها كان مرتبطا بغير المسلمين من نصارى ويهود ومجوس (ص٥٨ أيضا).

ثم إن لدى الشعراء حجة قوية يرفعونها فى وجه السلطات إذا ما سئلوا عن أشعارهم الخمرية، وهى أن الشعراء، كما جاء فى القرآن، يقولون ما لا يفعلون. وكان أبو نواس مشهورا بسرعة الخاطر والرد بالأجوبة المسكتة حتى لتُحْكَى عنه الروايات فى تلك الموهبة بغض النظر عن مدى صحتها، إذ المهم دلالتها. وهذه

القصة مثال على ذلك، وهى مأخوذة عن "حدائق الأزاهر فى مستحسَن الأجوبة والمضحكات والحكم والأمثال والنوادر" لابن عاصم: "رُفِع إلى الأمير أن أبا نواس زنديق، وأُنْشِد من شعره ما يسْتَدَلّ به على ذلك، فأمر بإحضاره، ولما حضر أمر بقتله، فقال: ما ذنبى يا أمير المؤمنين؟ قال: عرفتُ أنك زنديق. قال: وما قلتُ؟ وما ظهر على من ذلك؟ قال: قولك:

ألا فاسقنى خمرًا، وقل لى: هى الخمرُ   ولا تسقنى سِرًّا إذا أمكن الجَهْرُ

قال: يا أمير المؤمنين، أفَسَقَانى؟ قال: كذلك أظن. قال: أتقتلنى على ظن، وقد قال تعالى: "إن بعض الظن إثم"؟ قال: فأنت الذى تقول:

ما جاءنا أحد يخبِّر أنه   فى جنةٍ مُذْ مات أو فى نارِ

قال: أفجاء أحد يا أمير المؤمنين؟ قال: لا. قال: أفتقتلنى على الصدق؟ قال: أنت الذى تقول:

يا أحمدُ المرتجَى فى كل نائبةٍ   قُمْ، سيدى، نَعْصِ جبارَ السماواتِ

قال: أفقام يا أمير المؤمنين؟ قال: لا أدرى. قال: أفتقتلنى على ألَّا تدرى؟ قال: أطلقوه، ولو وجب عليه القتل".

وأخيرا ينبغى أن نعرف أن موضوع الخمر قد يكون مجرد تقليد شعرى لا يعنى أن الشاعر شِرِّيبٌ سِكِّيرٌ بالفعل. ولدينا مثال كعب بن زهير، الذى افتتح اعتذاريته للنبى عليه السلام بالتغزل فى سعاد مشبِّها ريقها بالخمر، منفقا فى ذلك معظم أبيات القصيدة، ولم يفكر الرسول عليه السلام فى سؤاله عن الأمر بحال رغم أن تحريم الخمر قد تم قبل ذلك التاريخ بأربع سنوات على الأقل.

ويشير كيندى كذلك فى هذا السياق (ص٦٢) إلى ما لاحظه فى بعض خمريات أبى نواس من تضمين آخر بيت من أبياتها شطرة من قصيدة شاعر سابق،

مقدِّما شاهدا على ذلك قوله فى آخر شطر من المقطوعة التالية، وهو عبارة عن الشطر الأول من قصيدة الشاعر الجاهلى الأعشى المشهورة: "وَدِّعْ هُرَيرَةَ. إن الرَّكْب مرتحِلُ":

بـادِرْ صَـبُوحَكَ وَانْعَـمْ أَيها الرَّجُـلُ	وَاعْصِ الـذين، بِجَهْـلٍ، فى الهَـوَى عَـذَلوا
وَاخْلَـع عِـذارَكَ، أَضْـحِكْ كُـلَّ ذى طَـرَبٍ	وَاعْـدِلْ بِنَفْسِكَ فيهـم أَيـنَما عَـدَلوا
نـالَ الـسُّرورَ وَخَفْـضَ العَيـشِ فى دَعَـةٍ	وَفـازَ بِالطَيبـاتِ المـاجِنُ الهَـزِلُ
سـقيا لمجلِـسِ فتيـانٍ أُنـادِمُهُم	مـا فى أَديمِهِمُـو وَهْـى وَلا خَلَـلُ
هَـذا لِـذاكَ كَـما هَـذا وَذاكَ لِـذا	فالـشملُ مُنْـتَظِمٌ، وَالحَبْـلُ مُتَّـصِلُ
أَكْـرِمْ بِهِـم وَبِـنُعْمٍ مِـن مُغَنِّيـةٍ	ففـى الغِنَـاءِ بِـنُعْمٍ يـضْرَبُ المَثَـلُ
هَيفـاءُ تُـسْمِعُنا، والعـودُ يطْرِبُنـا:	وَدِّعْ هُرَيـرَةَ. إِنَّ الرَّكْـبَ مُرْتَحِـلُ

وهو يرى أن أبا نواس فى هذه القصيدة لاهٍ ضاحكٌ بينما الأعشى حزين محبط فى حبه ونسيبه. أما أنا فأرى أن الأعشى لاهٍ ضاحكٌ أيضا، وليس حزينا كما يقول كيندى، وإلا فهل يقول الحزين المحبط إنه كثيرا ما ذهب إلى الحانة ليشرب الخمر ويقضى وقتا ممتعا يتبعه "شاوٍ مِشَلٌّ شَلُولٌ شُلشُلٌ شَوِلُ" أيا كان معنى هذه الألفاظ؟ وهل يقول الحزين المحبط إنه أحب فتاة لم تبادله الحب بل أحبت رجلا آخر لا يحبها بل يحب فتاة غيرها تحب هى بدورها رجلا سواه، على حين تحب الشاعرَ فتاةٌ لا يحبها؟ هل هذا حديث رجل جاد؟ إن صياغة الكلام لا تشى أبدا بأى جِدٍّ فى الموضوع أو حزن أو إحباط، وإلا فهل يتصور القارئ أن الشاعر، لو كان حزينا فعلا، يمكن أن يفرّغ نفسه لتتبع تلك العلاقات المتضاربة بين كل أولئك الأشخاص ويقدم لنا تقريرا دقيقا مفصلا عنها على هذا النحو؟:

عُلِّقْتُهـــا عَرَضًـــا، وَعُلِّقَـــتْ رَجُـــلًا غَيرِى، وَعُلِّــقَ أُخْــرَى غَيرَهــا الرَّجُــلُ

وَعُلِّقَتْـــــهُ فَتـــــاةٌ مــــا يحاوِلُهـــــا مِــن أَهْلِهــا مَيــتٌ يهْــذِى بِهــا وَهِــلُ

وَعُلِّقَتْنِـــــى أُخَيرَى مــــا تُلائِمُنـــــى فَــاجْتَمَعَ الحُـــبّ حُبًّــا كُلّـــهُ تبـــلُ

فَكُلُّنـــا مُغْـــرَمٌ يهْـــذى بِـــصاحِبِهِ نــــاءٍ وَدانٍ وَمَحْبـــــولٌ وَمُحْتَبِـــــلُ

قالَــت هُرَيــرَةُ لَمّــا جِئــتُ زائِرَهــا: وَيــلِى عَلَيــكَ، وَوَيــلِى مِنــكَ يــا رَجُــلُ!

بل إن كلام هريرة للشاعر ليس كلام فتاة نافرة منه، وإلا لقد كانت قادرة على أن تزجره وتسبه وتطرده بعيدا عنها. ثم هل كان الشاعر ليفكر فى زيارتها لو لم تكن تحبه كما يصور الأمر ضاحكا؟ وهل كان هو ليسكت فلا يبكى ويولول ويملأ آذان الكون نشيجا ويأسا لو كان الأمر كما يقول؟ ثم أين وجه الشبه بين تصوير الأعشى لتلك الحالة الضاحكة من الحب المعقد وبين قول أبى نواس فى مقطوعته التى بين أيدينا عن أصحاب مجلس شرابه:

ســـقيا لمجلِـــسِ فِتيـــانٍ أُنـــادِمُهُم مــا فى أَديمِهِمُـــو وَهْـــى وَلا خَلَـــلُ

هَـــذا لِـــذاكَ كَـــما هَـــذا وَذاكَ لِـــذا فَالـــشَّمْلُ مُنْـــتَظِمٌ، وَالحَبْـــلُ مُتَّـــصِلُ

أَكْـــرِمْ بِهِـــم وَبِـــنُعْمٍ مِـــن مُغَنِّيـــةٍ ففـــى الغِنَـــاءِ بِـــنُعْمٍ يـــضْرَبُ المَثَـــلُ

هَيفـــاءُ تُـــسْمِعُنا، والعـــودُ يطْرِبُنـــا: وَدِّعْ هُرَيـــرَةَ. إِنَّ الرَّكْـــبَ مُرْتَحِـــلُ

إن أبا نواس إنما يصور شدة التفاهم والمودة والانسجام بين أصحاب مجلسه، على حين يصور الأعشى الأمر بينه وبين حبيبته وحبيبها وحبيبة حبيبها... إلخ تصويرا يدل على افتقاد التفاهم والانسجام تماما بينهم، وإن كان قد فعل ذلك على سبيل الفكاهة كما قلنا، فضلا عن أن الجو فى قصيدة الشاعر الجاهلى هو جو

الحب والغرام على حين أن جو قصيدة أبى نواس هو جو الشراب والغناء. فأين وجه الشبه بين النصين؟

كذلك ليس فى طلب الأعشى من أصدقائه فى هذه القصيدة ذاتها متابعة السحاب لمعرفة أين هطل المطر أى شعور بالحزن والإحباط. وهو، حين تساءل مسفها هذا الطلب منه: "هل يمكن الشاربَ الثَّمِلَ أن يقوم بهذه المهمة؟"، لم يقصد أن ما فعله معهم عبث، إذ سرعان ما قال إنهم قد أجابوه وحددوا الموضع الذى نزل فيه الغيث بأنه ديار هريرة، التى كانت قد ارتحلت عنه وخلّفته وراءها:

يا مَنْ يرَى عارِضًا قَد بِتُّ أَرْقُبُهُ   كَأَنَّما البَرْقُ فى حافَاتِهِ الشُّعَلُ

لَهُ رِدَافٌ وَجَوْزٌ مُفْأَمٌ عَمِلٌ   مُنَطَّقٌ بِسِجَالِ الماءِ مُتَّصِلُ

لَمْ يلْهِنى اللهوُ عَنهُ حينَ أَرقُبُهُ   وَلا اللذاذَةُ مِن كَأسٍ وَلا الكَسَلُ

فَقُلتُ لِلشَربِ فى دُرْنَى، وَقَد ثَمِلوا: "شِيمُوا". وَكَيفَ يشيمُ الشارِبُ الثَمِلُ

بَرْقًا يضِيءُ عَلَى أَجْزاعِ مَسْقِطِهِ   وَبِالخَبِيةِ مِنهُ عارِضٌ هَطِلُ؟

قالوا: نِمارٌ فَبَطْنُ الخالِ جادَهُما   فَالعَسْجَدِيةُ فَالأَبْلاءُ فَالرِّجَلُ

فَالسَّفْحُ يجرى فَخِنزيرٌ فَبُرْقَتُهُ   حَتّى تَدافَعَ مِنهُ الرَّبْوُ فَالجَبَلُ

حَتّى تَحَمَّلَ مِنهُ الماءَ تَكلِفَةً   رَوْضُ القَطَا فَكَثِيبُ الغَينَةِ السَّهِلُ

يسْقِى دِيارًا لَها قَد أَصْبَحَت عُزُبًا   زُورًا تَجانَفَ عنها القَوْدُ وَالرَّسَلُ

ومن ثم فإذا كان أبو نواس قد دعا بالسقيا لأصحاب شرابه فهو لم يفعل عكس ما حدث فى قصيدة الأعشى، إذ تمت السقيا فى قصيدة الشاعر الجاهلى ونعمت ديار حبيبته بالماء، الذى هو سر الحياة فى الصحراء القاحلة المهلكة، وها

هو ذا شاعرنا العباسى يدعو لأصحابه بالسقيا أيضا، وهو دعاءٌ رَوْسَمِىٌّ لا معنى له، فمدمنو الخمر هم آخر من يحتاجون إلى الماء، بل إنهم ليأنفون منه ويسخرون من شاربيه وشاربى اللبن أيضا. ثم ماذا يصنع الشاعر وأصحابه بالماء فى حانتهم تلك، وهو إذا نزل من السماء أفسد الطرق ومنعهم العودة إلى بيوتهم متى ما انتوَوْا ذلك؟ وعلى كل حال لم يكن أهل المدن بحاجة إلى نزول الغيث، وبخاصة من كان، كأبى نواس، يعيش فى العراق حيث يجرى نهرا دجلة والفرات بالماء الغزير. وقد رأينا ابن زيدون يدعو لولادة بنت المستكفى بالسقيا لقَصْرها. فهل كانت ولادة وأهلها ينتظرون هطول المطر على قصرهم حتى يشربوا ويسقوا مواشيهم وينبت حوله العشب الذى تحتاجه تلك المواشى؟ إنه مجرد دعاء تقليدى ورثه العرب عن أسلافهم من أهل البادية مثلما نقول اليوم عن أى شخص بلغ غاية سفره واستقر فى موضعه الجديد: "ألقى عصا الترحال" رغم أنه لا عصا هناك ولا يحزنون. إنه رَوْسَمٌ تعبيرىٌّ ليس إلا.

أما فى مجلس الخمر فها هو ذا ما قاله الأعشى، وهو لا يفترق فى شىء عن مجلس خمر النواسى. ولننتبه لأول بيت وما فيه من افتخار الشاعر بأنه كثيرا ما تربص غفلة الأزواج الذين يريد اللهو بزوجاتهم حتى أمكنته الفرصة فاهتبلها وعَدَا على الزوجة ونال منها ما يشتهى، وهو ما لا يمكن أن يخطر فى بال أى محب حزين محبط لأن أحزانه وإحباطاته تستغرقه تمام الاستغراق، وتمنعه من خطور مثل ذلك الشعور فى قلبه. وبالمثل لا يمكن المحب المحبط الحزين أن يروح فى فاصل من استعادة ذكريات الشراب والغناء ومغازلة القيان كما صنع الأعشى فى الأبيات التالية:

فَقَدْ أُخالِسُ رَبَّ البَيتِ غَفْلَتَهُ وَقَدْ يحاذِرُ مِنّى ثُمَّ ما يئِلُ

وَقَـــدْ أَقُـــودُ الـــصِّبا يومًـــا فَيَتْبَعُنـــى   وَقَـــدْ يـــصاحِبُنى ذو الـــشِّرَّةِ الغَـــزِلُ

وَقَـــد غَـــدَوْتُ إِلى الحـــانوتِ يَتْبَعُنـــى   شـــاوٍ مِـــشَلٌّ شَـــلُولٌ شُلْـــشُلٌ شَـــوِلُ

فى فِتْيَـــةٍ كَـــسُيوفِ الهِنْـــدِ قَـــد عَلِمـــوا   أَنْ ليـــسَ يـــدْفَعُ عـــن ذى الحيلَـــةِ الحِيَـــلُ

نـــازَعْتُهُم قُـــضُبَ الرَّيحـــانِ مُتَّكِئًـــا   وَقَهْـــوَةً مُـــزَّةً راوُوقُهـــا خَـــضِلُ

لا يـــسْتَفِيقونَ مِنهـــا وَهْـــى راهِنَـــةٌ   إِلّا بِـــ"هـــاتِ"، وَإِن عَلّـــوا وَإِن نَهَلـــوا

يـــسعى بِهـــا ذو زجاجـــاتٍ لَـــهُ نُطَـــفٌ   مُقَلِّـــصٌ أَسْـــفَلَ الـــسِّرْبالِ مُعْتَمِـــلُ

وَمُـــسْتَجيبٍ تَخـــالُ الـــصَّنْجَ يـــسْمَعُهُ   إِذا تُرَجِّـــعُ فيـــهِ القَيْنَـــةُ الفُـــضُلُ

مِـــنْ كُـــلِّ ذَلِـــكَ يـــوْمٌ قَـــد لَهَـــوْتُ بِـــهِ   وَفى التَّجـــارِبِ طـــولُ اللهـــوِ وَالغَـــزَلُ

وَالـــساحِباتُ ذُيـــولَ الخَـــزِّ آوِنَـــةً   وَالـــرافِلاتُ عَـــلى أَعْجازِهـــا العِجَـــلُ

وما دمنا فى التناصّ الخاصّ بشطر الأعشى لقد ينبغى أن نشير إلى بعض من ضمَّنوا أشعارهم هذا الشطر غير أبى نواس: فمنهم الحمدوى، صاحب الأشعار الشهيرة فى السخرية المرة من طيلسان ابن حرب، وهو من أهل القرن الثالث للهجرة، إذ قال فى مقطوعة له فى ذلك الطيلسان:

لِطَيلَـــسانِ ابـــنِ حَـــرْبٍ نِعْمَـــةٌ سَـــبَقَتْ   بِنـــا تَـــبَيَنَ فَـــضْلِى، فَهْـــوَ مُتَّـــصِلُ

قـــد كنـــتُ دهـــرًا جَهُـــولًا ثُـــمَّ حَنَّنَنِـــى   عَلَيـــهِ خَـــوْفى مِـــنَ الأقـــوامِ إِن جَهِلـــوا

أَظَـــلُّ أَجْتَنِـــبُ الإِخـــوانَ مـــن حَـــذَرٍ   كَـــأَنَّما بِـــى جُـــرْحٌ لَيـــسَ ينْـــدَمِلُ

يـــا طَيلَـــسانًا إِذا الأَلحـــاظُ جُلْـــنَ بِـــهِ   فَعَلْـــنَ فِعْـــلَ سِـــهامٍ فيـــهِ تَنْتَـــضِلُ

لَـــئِن بَلِيـــتَ فَكَـــم أَبلَيـــتَ مِـــن أُمَـــمٍ   تَـــتْرَى أَبَـــادَتهُمُو أَيامُـــكَ الأُوَلُ

وَكَـــم رَآكَ أَخٌ لى ثُـــمَّ أَنـــشَدَنى: وَدِّع هُرَيْـــرَةَ. إِنَّ الرَّكْـــبَ مُرْتَحِـــلُ

ومنهم كذلك معاصره ابن الرومى، الذى تناول باللوم القارص فى قصيدة له غير طويلة اثنين من المؤذنين سيئى السلوك والأخلاق مبينا أن الدين ساخط على ما يفعلان، ثم اختتم القصيدة قائلا:

فقلـتُ: أحـسنتَ بـل أحـسنتما عمـلًا   وقـــدوةً، وأســاءَ اللائـــمُ العَجِـــلُ

وقلـــت للـــدين إذ أَكْـــدَتْ معادنُـــهُ:   وَدِّعْ هريـــرةَ. إن الرَّكْـــب مرتحِـــلُ

ومنهم أيضا عيسى بن سنجر الحاجرى الشهير بـ"بلبل الغرام"، وهو من أهل القرنين السادس والسابع الهجريين، فقد أُثِر عنه البيتان التاليان فى التهكم المؤلم بطبيب معاصر له:

حَـذارِ طِـبَّ ابـن شـمعونٍ، فَقَـدْ حَلَفَـتْ   أَلا تُفـــارِق جِـــسْمًا زارَهُ العِلَـــلُ

مـــا جَـــسَّ نَـــبْضَ فَتًـــى إِلّا وَأَنْـــشَدَهُ:   وَدِّعْ هريـــرةَ. إن الرَّكْـــبَ مُرْتَحِـــلُ

وبمناسـبة التنـاصّ بين أبـى نـواس والأعـشى أودّ أن أنبـه القـارئ إلى أن شاعرنا العباسى لم يقتصر على ذلك التضمين السابق، بل ضَمَّن قصيدةً أخرى له ذلك الشطر المذكور، واضعا إياه فى درج القصيدة لا فى آخرها، ومعه شطران آخران لشاعرين أمويين هما القُطَامِىّ وجرير:

وَمُعْتَـــدٍ بالـــذى تَحْـــوِى أَنامِلُـــهُ   مِـــن كَـــأْسٍ مُنْتَخِـــبٍ لَم يثْنِـــهِ المَلَـــلُ

لَكِـــنْ تَحـــاجَزَ عنهـــا أَنْ تُعَجِّـــزَهُ   بين النـــدامى، فَـــلا عُـــذْرٌ وَلا عِلَـــلُ

نَبَّهْتُـــهُ بَعـــدَما حَـــلَّ الرقـــادُ لَـــهُ   عَقْـــدًا مِـــنَ الـــسُّكْرِ إِلّا أنـــه ثَمِـــلُ

فَقُلْـتُ: كَأْسَـكَ خُـذْها. قـالَ مُحْتَجِـزًا: حَـسْبِى الـذى أَنـا فيـهِ أَيهـا الرَّجُـلُ

ثُمَّ استَدارَ بِهِ سُكْرٌ فَمالَ بِهِ   فَقُمتُ أسعى إِلَيهِ، وَهْوَ مُنجَدِلُ

قَد دَبَّتِ الخَمْرُ سِرًّا فى مَفاصِلِهِ   فَماتَ سُكْرًا، وَلَكِنْ حاطَهُ الأَجَلُ

فَلَمْ أَزَلْ أَتَفَدّاهُ وَأَرْفَعُهُ   عن وَهْدَةِ الأَرْضِ، والنشوانُ مُحتَمِلُ

حَتّى أَفاقَ، وَثَوْبُ اللَيلِ مُنْخَرِقٌ   وغارَ نَجْمُ الثُرَيا، وَاعْتَلَى زُحَلُ

فَقُلتُ: هَل لَكَ فى الصهباءِ تَأْخُذُها   مِن كَفِّ ذاتِ هَنٍ، فَالعَيشُ مُقْتَبِلُ

حِيرِيةٌ كَشُعَاعِ الشَمسِ صافِيَةٌ   يحيطُ بِالكَأسِ مِن لألائها شُعَلُ؟

فَقالَ: هاتِ، وَأَسمِعْنا عَلى طَرَبٍ:   وَدِّع هُرَيرَةَ. إِنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ

فَأَحْسَنَتْ فيهِ لم تَخْرَم مَواقِعُهُ   وَالكَأسُ فى يدِها فى جوفِها خَلَلُ

ثُمَّ استَهَشَّتْ إِلى صَوْتٍ تُمَلِّحُهُ:   إِنّا مُحَيوكَ، فَاسْلَم أَيها الطَّلَلُ

فَما تَمالَكْتُ عَينِى أَنْ تَبادَرَها   دَمْعِى، وَعاوَدَها مِن دَلِّها خَيلُ

فقالَ: أَحْسَنْتِ. ما تُدْعَينَ؟ قلتُ لَهُ:   مَنْكُوسُهُ "لَبِقٌ". هذا هو المَثَلُ

فَطارَ وَجْدًا بِها، والخَمْرُ يأْخُذُها   وَقالَ: هاتى، فأنتِ العَيشُ والأَمَلُ

إِنَّ العيونَ الَّتى فى طَرفِها مَرَضٌ   فَرَجَّعَتْهُ بِلَحْنٍ وَقْعُهُ شَكِلُ

فَخَرَّ مُعْتَجِزًا مِمّا تَرادَفَهُ   منها، وَقُلتُ لها: أَحْسَنْتِ يا قُبَلُ

فَاستَخجَلَتْ، فَتَبَدَّى الوردُ يضحكُ فى   خَدٍّ أَنيقٍ لها. يا حَبَّذا الخَجَلُ!

ومن الشواهد على تلك السمة أيضا فى شعر النواسى النص التالى الذى ينتهى بشطر مأخوذ من مطلع قصيدة له مشهورة، وبلغ من شهرته أن ضمنه عدد

من الشعراء المتأخرين قصائدهم منهم حسن عبد الباقى الموصلى والحراق وأحمد الحملاوى وعدنان الغريفى وعصام الدين العمرى ومبارك بن حمد العقيلى:

أَمَــا يَــسُرُّكَ أَنَّ الــروضَ زهــراءُ وَالخَمــرُ مُمكِنَــةٌ شَــمْطاءُ عَــذراءُ؟

مــا فى قُعــودِكَ عُــذْرٌ عــن مُعَتَّقَــةٍ كالليــلِ والِــدُها، وَالأُمُّ خَــضْراءُ

بــادِرْ، فَــإِنَّ جِنــانَ الكَــرْخِ مُونِقَــةٌ لَم تَلتَقِفْهــا يَــدٌ لِلحَــرْبِ عَــسْراءُ

فيهــا مِــنَ الــطيرِ أَصــنافٌ مُــشَتَّتَةٌ مــا بَيــنَهُنَّ وَبَينَ النُّطــقِ شَــحْناءُ

إِذا تَغَــنَّينَ لا يــبْقِينَ جانِحَــةً إِلّا بِهــا طَــرَبٌ يَــشْفَى بِــهِ الــداءُ

يــا رُبَّ منــزلِ خَمّــارٍ أَطَفــتُ بِــهِ والليــلُ حُلَّتُــهُ كالقــارِ ســوداءُ

فَقــامَ ذو وَفْــرَةٍ مِــن بَطْــنِ مَــضْجَعِهِ يمِيــلُ مِــن سُــكْرِهِ، وَالــعَينُ وَسْــناءُ

فَقالَ: "مَـن أَنـتَ؟" فى رفـقٍ، فَقُلتُ لَـهُ: بعــضُ الكِــرامِ، وَلى فى النعــتِ أَســماءُ

وَقُلـتُ: إِنّـى نَحَـوْتُ الخَمْـرَ أَخطُبُهـا قــالَ: الــدراهِمَ! هَــل لِلمَهْــرِ إِبْطــاءُ؟

لَمّــا تَــبَينَ أَنّــى غَيرُ ذى بَخَــلٍ وَلَيــسَ لى شُــغُلٌ عَنهــا وَإِبطــاءُ

أَتَــى بِهــا قَهْــوَةً كَالمِــسْكِ صــافِيَةً كَدَمْعَــةٍ مَنَحَتْهــا الخَــدَّ مَرْهــاءُ

مــا زالَ تاجِرُهــا يَــسْقِى، وَأَشْرَبُهــا وعنــدنا كاعِــبٌ بيــضاءُ حــسناءُ

كَـم قَـد تَغَنَّـت، وَلا لَـوْمٌ يلِـمُّ بِنـا: دَعْ عَنْـكَ لَـوْمِى، فَـإِنَّ اللَّـوْمَ إِغْـراءُ

أما المقطوعة التالية فقد اختتمها بالشطر الأول من أول بيت فى ميمية زهير:

مَــضى لَيــلٌ، وَأَخْلَفَــتِ النجــومُ وَنَحْــنُ لَــدَى مَــصارِعِنا جُثُــومُ

فَــدَاوِ كُلُــومَ قلْــبِ أَخِيــكَ لَيــلًا فَــإِنَّ فُــؤَادَهُ أَبَــدًا كَلِيــمُ

بِـــــــصافِيةٍ إذا قُرِعَـــــــتْ بِـــــماءٍ   جَـــرَى عـــــن مَتْنِهـــا دُرٌّ يَجُـــــومُ

تُـــضاحِكُنا كَـــعَينِ الـــدِّيكِ صِرْفًـــا   فَـــإِن مُزِجَـــت تَخَلَّلَهـــا غُيـــومُ

لَهَـــا فى الكَـــأسِ لِينُ عَـــروسِ خِـــدرٍ   وَفيهـــا للـــسّرورِ رَحًـــى تَـــدُومُ

وَلَمّـــا لاحَ ضَـــوءُ الـــصُبحِ عَنّـــا   وَحَـــرَّكَ عُـــودَهُ بَـــدْرٌ وَسِـــيمُ

بِـصَوْتِ أَخِـى الحِجَـازِ فَهـاجَ شَـوقى: لِمَـــن طَلَـــلٌ بِرامَـــةَ لا يَـــرِيمُ؟

أما الشاهد فى النص القادم فبيتٌ تامٌّ من حائية جرير الشهيرة فى عبد الملك بن مروان، إلى جانب شطر آخر:

تغنّـــتْ لى، وقـــد ركبـــتْ عليـــه   وصـــارت فـــوق منـــدمج وقـــاحِ:

ألـــسنا خير مَـــنْ ركـــبَ المطايـــا   وأنـــدى العـــالمين بطـــونَ راحِ؟

فلـــمّا أن مـــضى فيهـــا تغنّـــت: تنـــادى آلُ ليـــلى بـــالرواحِ

ولدينا فى النص التالى أيضا بيت كامل مضمَّن:

إذا ابتَهَلْـــتُ سَـــأَلْتُ اللهَ رَحْمَتَـــهُ   كَنَّيْـتُ عَنْـكَ، وَمـا يعْـدُوكَ إضـمارى

أَحببـتُ مِـن شِـعْرِ بَـشّارٍ لِحُبِّكُمُـو   بَيْتًـا شُـغِفْتُ بِـهِ مِـن شِـعْرِ بَـشّارِ:

يـــا رَحْمَـــةَ اللهِ، حُـــلِّى فى مَنازِلِنـــا   وَجَاوِرينـا. فَـدَتْكِ الـنفسُ مِـنْ جـارِ!

وقد يضمن شعره بيتين كاملين كما فى النص التالى، الذى لا يكتفى فيه بالتضمين بل ينصّ على اسم الشاعر الذى اقتبس شعره:

لَإنْ هَجَرَتْـــكَ بَعْـــدَ الوَصـــلِ أَرْوَى   فَلَـــمْ تَهْجُـــرْكَ صَـــافِيةٌ عُقَـــارُ

فَخُـــذْها مِـــن بَنـــاتِ الكَـــرْمِ صِرْفًـــا   كَـــعَينِ الـــديكِ يعْلوهـــا احْمِـــرارُ

شَرابًـــا إِن تُزاوِجْـــهُ بِـــماءٍ   تَوَلَّـــدَ مِـــنهُما دُرَرٌ كِبـــارُ

طَـــبيخُ الـــشمسِ لَمْ تَطْبُخـــهُ قِـــدْرٌ ... بِـــــماءٍ لا وَلَمْ تَلْذَعـــــهُ نــــارُ

عَـــلى أَمثالِهـــا كانَـــتْ لِكِـــسْرى ... أَنُــــوشِروانَ تَتَّجِـــــرُ التِّجــــارُ

إذا المخمـــــورُ باكَرَهـــــا ثَلاثًـــــا ... تَطَـــايرَ عَـــن مَفاصِـــلِهِ الخُـــمَارُ

وَهـــاتِ فَغَنِّنـــي بَيَتَـــي نُـــصَيبٍ ... فَقَـــد وافـــانِى القَـــدَحُ المُـــدَارُ:

"وَلَـــولا أَن يقـــالَ: صَـــبَا نُـــصَيبٌ ... لَقُلـــتُ: بِنَفْـــسِى النَّـــشَأُ الـــصِّغارُ

بِنَفـــسِى كُـــلُّ مَهْـــضُومٍ حَـــشَاها ... إذا ظُلِمَـــت فَلَيـــسَ لَهـــا انْتِـــصارُ"

وأما الشطرة المأخوذ تحتها خط فى النص التالى، وهو فى وصف الخمر ومجلسها، فلم أعرف من شعر أى شاعرٍ اقْتُبِسَتْ، وإن كان الجزء الأول من تلك الشطرة، وهو "يا دار هندٍ"، موجودا فى عدد من القصائد هنا وهناك:

فَأَقبَلَـــتْ كَـــضِياءِ الـــشَمسِ بازغـــةً ... فى الكَـأسِ مِـن بَيْنِ دامى الخَصْرِ منكـوتِ

قُلنـا لَهـا: كَـم لَهـا فى الـدَنِّ مُـذْ حُجِبَـت؟ ... قالـت: قَـدِ اتُّخِـذَتْ مِـن عهـدِ طـالوتِ

كانَـــت مُخَبَّـــأَةً فى الـــدَّنِّ قَـــد عَنَـــسَتْ ... فى الأَرضِ مدفونـــةً فى بَطْـــنِ تـــابوتِ

فَقَـــدْ أُتِيـــتُم بِهـــا مِـــن كُنْـــهِ مَعـــدِنِها ... فَحَـــاذِرُوا أَخْـــذَها فى الكَـــأْسِ بِـــالقوتِ

تُهْـــدِى إِلى الـــشَّرْبِ طيبًـــا عِنْـــدَ نَكْهَتِهـــا ... كَـــنَفْحِ مـــسكٍ فَتِيـــقِ الفـــارِ مَفْتـــوتِ

كَأَنَّهـــا بِـــزُلالِ المُـــزْنِ إذ مُزِجَـــت ... شِـــبَاكُ دُرٍّ عـــلى ديبـــاجِ يـــاقوتِ

يـــدِيرُها قَمَـــرٌ فى طَرْفِـــهِ حَـــوَرٌ ... كَـــأَنَّما اشْـــتُقَّ مِنـــهُ سِـــحْرُ هـــاروتِ

وَعِنـــدَنا ضـــارِبٌ يـــشدو فَيطرِبُنـــا: ... يـــا دارَ هِنـــدٍ بِـــذاتِ الجِـــزْعِ، حُييـــتِ

إِليـــه ألحاظُنـــا تُثْنَـــى أَعِنَّتُهـــا ... فَلَـــو ترانـــا إليـــهِ كالمَبَاهِيـــتِ

مِـن أَهـلِ هِيـتٍ سَـخِى الجـرمِ ذى أَدَبٍ ... لــه أقــولُ مِزاحًــا: هــاتِ يــا هِيتــى

فَينْــبَرِى بِفَــصِيحِ اللحــنِ عَــن نَغَــمٍ ... مُثَقَّفَـــــاتٍ فـــــصيحاتٍ بِتَثْبِيـــــتِ

حَتّـــى إِذا فَلَـــكُ الأَوْتـــارِ دارَ بِنـــا ... مـــع الطبـــولِ ظللنـــا كالـــسبابيتِ

فُزْنـــا بِهـــا فى حَـــديقاتٍ مُلَفَّفَـــةٍ ... بِالرَّنْــدِ وَالطَّلْــحِ وَالرمّــانِ والتــوتِ

تُلهيــكَ أَطيارُهــا عَــن كُــلِّ مُلهِيــةٍ ... إِذا تَـــرَنَّمَ فى تَرْجيـــعِ تَـــصْويتِ

لَمَ يثْنِنِــى اللهــوُ عَــن غِــشْيانِ مَوْرِدِهــا ... ولم أكـــن عـــن دَواعيهـــا بِـــصِمِّيتِ

ومثله البيت الأخير من النص التالى:

وَالهُـــــوا نَهـــــارًا وَلَيـــــلًا ... إِلى نِـــــــــداءِ المُنـــــــــادى

وَنَفِّـــــرُوا الليـــــلَ عـــــنكم ... بِلَـــــــــذَّةٍ وَسُـــــــــهَادِ

وَنـــــاقِلُوا الكَـــــأسَ ظَبْيـــــا ... مـــــا يرْتَعـــــى فى البَـــــوادى

لَكِـــــنْ بِـــــديوانِ يحْيـــــى ... بِفِيـــــهِ لَطْـــــخُ مِـــــدَادِ

تَخَالُـــــــــهُ ذا رُقـــــــــادٍ ... وَمـــــا بِـــــهِ مِـــــن رُقَـــــادِ

مـــــا زالَ يـــــسْقِى وَيـــــسْقَى ... حَتّـــــى انْثَنَـــــى لِلمُـــــرادِ

وَانـــــسابَ نَحْـــــوى يغَنّـــــى ... مُطَرِّبًـــــــا وَينـــــــادى:

سُـــــقِيتَ صَـــــوْبَ الغَـــــوادى ... يـــــا مَنـــــزِلًا لِـــــسُعادِ

وربـما كانـت تلـك الأبيـات والأشـطار المجهولـة المؤلـف هـى مـن نظمـه شـاعرنا، أو لعلهـا تحـوير لأبيـات وأشطار معروفـة تـصرَّف فيهـا حتـى تـوائم وزن قصيدته التى ضمنها إياها. أما فى النص التالى:

لا تَحْفِلَـــنَّ بِقَـــوْلِ الزَّاجِـــرِ اللاحـــى واشرب عـلى الـوردِ مِـن مَـشْمولَةِ الـراحِ

صَـــهباءُ صـــافِيَةٌ تُجْــدِيكَ نَكْهَتُهـــا تَـــنَفُّسَ المِـــسْكِ ملطوخًـــا بِتُفّـــاحِ

حَتّـــى إِذا سُلْـــسِلَت فى قَعْـــرِ باطِيـــةٍ أَغنـــاكَ لَأْلاؤُهـــا عـــن ضَـــوْءِ مـــصباحِ

مـــا زِلـــتُ أَسْـــقِى حبيبـــى ثُـــمَّ أَلْثُمُـــهُ وَالليـــلُ مُلتَحِـــفٌ فى ثَـــوْبِ أَمْـــساحِ

حَتّـــى تَغَنّـــى وَقَـــد مالَـــت سَـــوالِفُهُ: يـــا دَيـــرَ حَنَّـــةَ مِـــنْ ذاتِ الأُكَيراحِ

فالشطر الثانى من البيت الأخير هو الشطر الأول من أول بيت فى مقطوعته التالية:

يـــا دَيـــرَ حَنَّـــةَ مِـــن ذاتِ الأُكَيراحِ مَـنْ يـصْحُ عَنـكَ فَـإِنّى لـستُ بِالـصَّاحى

رَأَيـــتُ فيـــكَ ظِبـــاءً لا قُـــرونَ لَهـــا يلْعَـــــبْنَ مِنّـــــا بِأَلبـــــابٍ وَأَرواحِ

يعْتـــادُهُ كُـــلُّ محفـــوفٍ مَفارِقُـــهُ مِـــنَ الـــدِّهانِ عليـــه سَـــحْقُ أَمْـــساحِ

فى عُـــصْبَةٍ لَم يـــدَعْ مِـــنهُم تَخَـــوُّفُهُم وُقُـــوعَ مـــا حُـــذِّروهُ غَيرَ أَشـــباحِ

لا يـــــدْلِفونَ إِلى مـــــاءٍ بِآنِيـــــةٍ إِلّا اغترافًـــا مِـــنَ الغُـــدْرانِ بِـــالرَّاحِ

وفى الكتاب الذى نحن بصدده إشارة إلى أهمية شعر الخمر فى ذلك العصر من جهة أنه يرينا أماكن زرع الكروم وعصرها، ويصف لنا أنواع الخمر والأدوات والأوانى التى كانت تقدَّم فيها والعادات والتقاليد التى كانت تراعَى فى مجالس شربها ونوعية شاربيها... إلخ. وقد ذكر كيندى فى هذا السياق الكتاب الذى وضعه جمال الدين بن الشيخ عن أبى نواس والشخصيات والموضوعات التى تعرض لها فى شعره، وعنوانه: "Abu Nuwas: Thèmes et Personnages" (ص٥٨- ٥٩). وهى إشارة هامة فى حد ذاتها، إذ ترينا أن المستشرق مؤلف

الكتاب يؤمن بالدور الاجتماعى للأدب والشعر. وهو ما كان الباحثون يأخذون به قبل عدة عقود، ثم طرأت على النقد مناهج حَرَّمَتْ على الدارسين أن يربطوا بين نصوص الأدب وأى شىء خارجها بحجة أن الأدب عالم مغلق على نفسه يجب على الناقد مواجهته وحده وعدم الاستعانة بأى شىء آخر من أوضاع اجتماعية أو ظروف شخصية، وهو ما أدى إلى كثير من الغثاء النقدى الذى لا يصلح لشىء البتة، وأعطى المدلسين الفرصة ليخلعوا على النص ما ليس فيه معتمدين على اختفاء الضوابط التى تحكم كلام النقاد، فصاروا يعيشون فى الفراغ ويبْلُوننا بكل غريب وشاذّ من القول. ثم عادت طائفة من النقاد إلى القول بالربط بين الأدب والشعر وبين البيئة التى يصدران عنها فيما يسمى بـ"القراءة الثقافية"، وهى شىء قريب من المنهج الاجتماعى، على الأقل: فى الربط بين النص الأدبى والمحيط الذى ظهر فيه. وها هو ذا مستشرقنا يرى أن شعر الخمر يساعدنا على رصد عادات الشرب وأوانيه وأماكنه وتصرفات الندامى وما إلى هذا.

ولا شك أن ما قاله المستشرق فى هذا الصدد هو الصواب، فإن الشاعر ابن بيئته وأحوالها وثقافتها وثمرة ظروفه وإرادته وجهوده... وهكذا. والأدب ليس فرصة للعبث وتضييع الوقت والجهد فيما لا يفيد ولا يجدى بل للتعبير عما يراه مبدعه ويشعر به ويفكر فيه ويعيشه ويلاحظه مِنْ حوله...إلخ. فمن الطبيعى أن ينعكس هذا كله، فى الظروف الطبيعية على الأقل، فيما يكتب. أقول هذا لأخرج أدب العبث واللامعقول، الذى أنتج منه توفيق الحكيم مثلا بعض مسرحياته مما لا صلة بينه وبين البيئة التى يعتزى إليها لأنه إنما أراد تقليد بعض ألوان الأدب العبثى الغربى حتى لا يقال إنه كان متأخرا عما لدى الغربيين، وإن كان من المكن القول مع هذا إن مثل ذلك الأدب العابث اللامعقول يعكس شعور بعضنا

بالنقص والتبعية وتصوُّره أنه لا يصح أن يكون من أهل العصر الحديث دون أن يعرف اللامعقول كما يمارسه بعض الأدباء الغربيين، الذين ينظر إليهم فريق منا بوصفهم قادة الفكر والإبداع الأدبى والفنى وكل شىء.

ويتوقف المؤلف (ص٦٦ وما بعدها) أمام بعض النصوص النواسية يحللها ويحاول أن يستخرج منها معانى دفينة كما هو الحال مع القصيدة التالية:

لِمَن طَلَلٌ عارى المَحَلِّ دَفِينُ ... عَفَا آيُهُ إِلّا خَوَالِدُ جُونُ

كما اقْتَرَنَتْ عند المَبِيتِ حَمَائِمٌ ... غَرِيباتُ مُمْسًى ما لَهُنَّ وُكُونُ؟

دِيارُ الَّتى أَمَّا جَنَى رَشَفَاتِها ... فَيحْلُو، وَأَمّا مَسُّها فَيَلِينُ

وَما أَنصَفَتْ: أَمّا الشُّحُوبُ فَبَيِّنٌ ... بِوَجْهِى، وَأَمّا وَجْهُها فَمَصُونُ

وَدَوِّيَّةٍ لِلرِيحِ بَينَ فُرُوجِها ... فُنُونُ لُغَاتٍ: مُشْكِلٌ وَمُبِينُ

رَمَيتُ بِها العِيدِى حَتّى تَحَجَّلَت ... نَواظِرُ مِنها، وَانطَوَينَ بُطُونُ

وَذِى حَلِفٍ بِالرَّاحِ قُلْتُ لَهُ: اصْطَبِحْ ... فَلَيسَ على أمثالِ تلك يَمِينُ

شَمُولًا تَخَطَّتْها المَنُونُ، فَقَد أَتَتْ ... سِنُونَ لَها فى دَنِّها وَسِنُونُ

تُراثُ أُناسٍ عَنْ أُناسٍ تُخَرِّمُوا ... تَوارَثَها بَعْدَ البَنِينِ بَنُونُ

فَأَدْرَكَ منها الغابِرونَ حُشَاشَةً ... لَها نَزَوانٌ مَرَّةً وَسُكُونُ

كَأَنَّ سُطُورًا فَوْقَها حِمْيَرِيَّةً ... تَكَادُ، وَإِن طالَ الزَّمانُ، تَبِينُ

لَدى نَرْجِسٍ غَضِّ القِطَافِ كَأَنَّهُ، ... إِذا ما مَنَحْناهُ العُيُونَ، عُيُونُ

مُخَالِفَةٌ أَشْكالُهُنَّ: فَصُفرَةٌ ... مَكانَ سَوَادٍ، وَالبَيَاضُ جُفُونُ

فَلَمّا رَأَى نَعْتِى ارْعَوَى وَاستَعَادَنى ... فَقُلْتُ: خَليلٌ عَزَّ ثُمَّ يَهُونُ

فـــصَدَّقَ ظَنِّـــى. صـــدَّق اللهُ ظَنَّـــه   إذا ظـــن خيرا، والظنـــونُ فنـــونُ

إذ يرى فيها مقارنة بين الصحراء والخمر لصالح الخمر: فالريح التى تهب فى الصحراء تصدر صوتا يشبه لغة غير مفهومة بينما الفقاقيع التى تُرَى على وجه الخمر تبدو، مع مرور الزمن، مفهومة مثل الكتابة تقريبا. ومن ثم فالخمر أحفل بالمعانى. وهذا فهم خاطئ للنص. ذلك أن الشاعر لم يقل إن صوت الريح فى الصحراء غير مفهوم، بل قال إن بعضه مفهوم، وبعضه مُشْكِل غير واضح. ومن الناحية الأخرى لم يقل إن فقاقيع الخمر تشبه الكتابة وضوحا، بل أشار إلى ما يشبه سطورا حميرية تكاد تبين. وقد فهم المستشرق من هذا أن التشبيه يعنى أن الفقاقيع تشبه تلك الكتابة، فى حين أننى أرى فى ذلك إشارة إلى شىء يشبه كتابة حميرية على الكأس يوشك أن يمحى مع طول الزمن، وإن كان الشاعر قد عبر عن ذلك بالسلب، إذ قال بدلا من ذلك إن تلك الكتابة تكاد تبين. وهو ما أفهم منه أنها غير واضحة تماما بسبب عوامل التعرية التى اعترت الزجاج مع تطاول الزمن، فهى لا تبين بل تكاد تبين، بما يعنى أنها امحت، لكنه ليس امحاء تاما. وعلى هذا فليست هناك مقارنة بين الصحراء والخمر لا لمصلحة الخمر ولا لمصلحة الصحراء.

وفى القصيدة الأخرى التالية يتوقف ا لكاتب لدى قول اليهودى صاحب الحانة إن كنيته هى "أبو عمرو"، وهى كنية عربية تَكَنَّاها، كما يقول، رغم كراهيته لكل ما هو عربى ورغم أنها لم تزده شرفا ولا مكانة فى المجتمع، إلا أنها على الأقل أخفّ على اللسان من غيرها من الكُنَى. وأغلب الظن أنه يقصد ثقل الأسماء اليهودية، وهو ما أعجب عصبةَ المُجَّان أصحاب الشاعر، الذين أَتَوْا وفى نيتهم قضاء ثلاثة أيام لا غير فى حانته، إلا أنهم، من لذاذة الخمر والحانة، قد امتدت

إقامتهم فيها شهرا كاملا. وقد رأى المستشرق تناصًّا بين تلك الكنية وبين كنية ليلى حبيبة المجنون، التى ذكر حبيبُها المستهامُ بها أن كنيتها "أم عمرو" (ص٦٩-٧٠). وتسأل: "وأين وجه الصلة بين القصيدتين، أو بين الشاعرين، أو بين اليهودى وليلى، أو بين الحب العذرى وبين الخمر والمجون؟"، فيعْييك أن تبصر أى وجه لتلك الصلة. إنها مقارنة قائمة على النزوة والمصادفة: لقد تصادف أنْ عرف كيندى أن ليلى تكنى بـ"أم عمرو"، فقال فى نفسه: "ما المانع من عمل مقارنة بين ذلك اليهودى وتلك الفتاة؟". ثم لماذا ليلى دون كثير من حبائب الشعراء الجاهليين والإسلاميين ممن سبقوا أبا نواس ممن كن يتكَنَّيْنَ بـ"أم عمرو" أيضا مثل حبائب عمرو اللخمى والشَّنْفَرَى وأوس بن حجر وبشر بن أبى خازم وأبى زبيد الطائى والزفيان وقيس بن الخطيم وحسان بن ثابت ولبيد بن ربيعة وعمرو بن معديكرب وحُمَيد بن ثور وأبى قُلَابَة الهذلى وأبى ذؤيب الهذلى وهدبة بن الخشرم ورؤبة بن العجاج وابن قيس الرقيات والأحوص الأنصارى وعمر بن أبى ربيعة وجرير وجميل بثينة وكثير عزة والصمة القشيرى... إلخ حسبما ورد فى أشعارهم؟ ولماذا ذهب خاطر المستشرق إلى "أم عمرو" ولم يذهب إلى "أبى عمرو"، وهو مذكور قبل أبى نواس فى أشعار لأبى طالب وعلى كرم الله وجهه وكعب بن مالك الأنصارى وأنس بن زنيم الطائى وذى الرُّمَّة وبشار بن برد وخلف الأحمر؟

ولقد مدح أبو نواس نفسه ذات مرة شخصا كنيته: "أبو عمرو":

جَعَلْتُ عُبَيدًا دونَ ما أَنا خائِفٌ … وَصَيَّرْتُهُ بينى وَبَينَ يَدِ الدهرِ

أَشارَ إِلَيهِ الناسُ مِن كُلِّ جانِبٍ … وَقالوا: أَبو عَمْرٍو لَها. وأَبو عَمْرِو

فَتًى لا يحِبُّ الكَسْبَ إِلّا أَحَلَّهُ … وَلا الكَنْزَ إِلّا مِنْ ثَنَاءٍ وَمِنْ شُكْرِ

فلماذا يترك كيندى هذا كله ويذهب إلى أم عمرو، وبالذات "أم عمرو" صاحبة المجنون دون كل "أمهات عمرو" الأُخَر؟ إن المسألة وما فيها تتلخص فى أن أبا نواس قد اهتبل تلك الفرصة فانقض يخمش العرب ببراثنه كعادته كلما أتيحت له سانحة، وعمل بكل وسعه على إهانتهم. ولم يكن فى ذهنه شىء عن كنية ليلى حبيبة المجنون كما هو واضح.

أما استغراب المستشرق تَكَنِّىَ الخمار اليهودى بتلك الكنية العربية على خلاف ما تقضى به "العهدة العمرية" كما يقول واعتباره إياه شذوذا على القاعدة التى أرستها فبغض النظر عن مدى صحة شروط العهدة العمرية سوف أسوق النص التالى من رسائل الجاحظ، الذى جاء بعد أبى نواس بزمن غير طويل، وهو عن التطور الذى حصل بالنسبة إلى أسماء النصارى وكُنَاهم فى عصره: "ونحن، رحمك الله، لم نخالف العوام فى كثرة أموال النصارى، وأن فيهم ملكا قائما، وأن ثيابهم أنظف، وأن صناعتهم أحسن... فأما الملك والصناعة والهيئة فقد علمنا أنهم اتخذوا البراذين الشهرية والخيل العتاق، واتخذوا الجوقات، وضربوا بالصوالجة، وتحذفوا المدينى، ولبسوا الملحم والمطبقة، واتخذوا الشاكرية، وتَسَمَّوْا بـ"الحسن والحسين، والعباس وفضل وعلى"، واكتنَوْا بذلك أجمع، ولم يبق إلا أن يتسمَّوْا بـ"محمد"، ويكتنوا بـ"أبى القاسم"، فرغب إليهم المسلمون، وترك كثير منهم عقد الزنانير، وعقدها آخرون دون ثيابهم...". ثم لماذا نتصور أن اليهود فى بلاد الإسلام فى ذلك الوقت كلهم من نسل بنى إسرائيل؟ لقد كان هناك يهود عرب ومتعربون فى الجاهلية، وكان من علائم عروبتهم أو تعرُّبهم أسماؤهم العربية كقُرَيظة وثعلبة وأُسَيد والزبير ووهب وحُيىّ بن أخطب وصفية ابنته وكعب بن الأشرف وعبد الله بن سلام ولبيد بن أعصم والحُقَيق ومشكم وعمرو

ونافع ورافع وزيد وأسامة وعوف وحارثة وكنانة وسلسلة والربيع وعمار وقيس وياسر ومَرْحَب والزبير ورفاعة والحارث ونعمان ومحمود وراشد وخالد وسعد وعبد الرحمن وأسامة وجبل وعديّ... إلخ. بل لقد كان أبو عفك، الشاعر اليهودى الذى كثيرا ما حرض اليهودَ والمشركين على الرسول والإسلام، ينتمى إلى قبيلة بنى "عمرو" بن عوف اليهودية، ومثله قردم بن "عمرو". وكان هناك على عهد النبى صلى الله عليه وسلم يهودى يدعى: "عَمْرو" بن جحاش، وآخر اسمه جبل بن "عمرو" بن سكينة. فلِمَ يستغرب كيندى أن يكون فى عصر النواسى يهودٌ ذَوُو أصل عربى، وكنية بعضهم "أبو عمرو"؟ أما أبو نواس فكما أشرتُ: قد انتهز تلك السانحة، أو ربما اخترعها اختراعا، كى ينهال على العرب تمزيقا وتجريحا وإهانة.

أما المنهج الذى كان يتبعه أبو نواس فى بناء خمرياته فقد حاول فيليب كيندى تحليله واستخراج عناصره مستشهدا على ذلك بالقصيدة الآتية:

يا ساحِرَ الطَّرْفِ، أَنْتَ الدهرَ وَسْنانُ ... سِرُّ القُلوبِ لَدَى عَيَنَيكَ إِعْلانُ

إِذا امتَحَنْتَ بِطَرْفِ العَينِ مُكْتَتَمًا ... ناداكَ مِن طَرْفِهِ بِالسِرِّ تِبْيانُ

تَبْدو السرائِرُ إِنْ عَيناكَ رَنَّقَتَا ... كَأَنَّما لَكَ فى الأَوْهامِ سُلْطانُ

ما لى وَما لَكَ؟ قَد جَزَّأْتَنى شِيعًا ... وَأَنْتَ، مِمّا كَسانى الدهرُ، عُرْيانُ

أَراكَ تَعْمَلُ فى قَتْلِى بِلا تِرَةٍ ... كَأَنَّ قَتلِى عندَ اللهِ قُرْبانُ

غادِ المُدَامَ، وَإِن كانَت مُحَرَّمَةً ... فَلِلْكَبائِرِ عندَ اللهِ غُفْرانُ

صَهْباءُ تَبْنِى حَبَابًا كُلَّما مُزِجَت ... كَأَنَّهُ لُؤْلُؤٌ يتلوهُ عِقْيانُ

كانت على عَهْدِ نوحٍ فى سَفِينَتِهِ ... مِن حُرِّ شَحْنَتِها، وَالأَرْضُ طوفانُ

فَلَـم تَــزَل تَعْجُـمُ الــدنيا وَتَعْجُمُهـا   حَتّـى تَخَيرَهـا لِلْخَـبْءِ دِهْقـانُ

فَـصَانَهَا فى مغـارِ الأَرضِ، فَاخْتَلَفَـت   عـلى الدفينـةِ أزمـانٌ وأزمـانُ

بِبَلْـدَةٍ لَمَ تَـصِل كَلْـبٌ بِهـا طُنُبًـا   إلى خِبـاءٍ وَلا عَـبْسٌ وَذُبْيـانُ

لَيـسَتْ لِـذُهْلٍ وَلا شَـيبَانِها وَطَنًـا   لَكِنَّهـا لِبَنـى الأَحْـرارِ أَوطـانُ

أَرضٌ تَبَنَّـى بِهـا كـسرى دَسَـاكِرَهُ   فَـما بِهـا مِـن بَنِـى الرَّعْنـاءِ إنـسانُ

ومـا بهـا مـن هَـشِيمِ العُـرْبِ عَرْفَجَـةٌ   ولا بهـا مـن غِـذاءِ العُـرْبِ خُطْبـانُ

لَكِـنْ بِهـا جُلَّنـارٌ قَـد تَفَرَّعَـهُ   آسٌ، وَكَلَّلَـهُ وَرْدٌ وَسوسـانُ

فَـإِن تَنَـسَّمْتَ مِـنْ أرواحِهـا نَـسَمًا   يوْمًـا تَنَـسَّمَ فى الخَيـشومِ رَيحـانُ

يـا لَيلَـةً طَلَعَـت بالـسعدِ أَنْجُمُهـا   فَبـاتَ يفْتِـكُ بالـسكرانِ سـكرانُ

بِتْنـا نَـدِينُ لإبليـسٍ بِطاعَتِـهِ   حتـى نَعَـى الليـلَ بالنـاقوسِ رُهْبـانُ

فَقـامَ يـسْحَبُ أذيـالًا مُنَعَّمَـةً   قَـد مَـسَّها مِـن يـدى ظُلـمٌ وَعُـدْوانُ

يقـولُ: يـا أَسَـفَا! وَالـدمعُ يغْلِبُـهُ   هَتَكْـتَ مِنّـى الـذى قـد كـانَ يـصْطانُ

فَقُلْـتُ: لَيـثٌ رَأى ظَبْيـا فَواثَبَـهُ   كَـذا صُرُوفُ لَيـالى الـدهرِ ألـوانُ

فهو يرى (ص١٤- ١٥) أن أبا نواس كان يراعى عدة جوانب أساسية فى بناء خمرياته: منها المزاوجة الرقيقة بين موضوعى الخمر والجنس، والضيق بالتقوى مع الدعوة إلى وجوب انتهاب الفرصة السانحة، وتعمد الغموض مراعاة للمجتمع المتدين من خلال الحديث عن التوبة والندم والصراع بينهما وبين القيم الوثنية فى السلوك. والحق أن العنصر الثالث غائب عن الخمرية التى بين أيدينا. وكثيرا ما يختفى هذا العنصر أو ذاك من هذه القصيدة أو تلك أو اثنان

منهما أو الثلاثة جميعا. ولسنا بحاجة إلى الذهاب بعيدا، فالقصيدة البائية التى مرت قبل قليل تخلو من هذه الجوانب جميعا. كما أن الخمرية التالية تخلو تمام الخلو مما يقول:

وَقَهْوَةٍ عُتِّقَتْ فى دَيرِ شَمّاسِ ... تَفْتَرُّ فى كَأسِها عن ضوءِ مِقْباسِ

لولا مُدَاراةُ حاسيها إذا اقتَرَبَت ... مِنْ فِيهِ لَانْتَهَبَتْ مِن مُقْلَةِ الحاسى

لها أليفانِ مِن لونٍ وَرائِحَةٍ ... مَثْوَى مَقَرِّهما فى العَينِ والراسِ

مِزاجُها دَمْعُ حاسيها. فأَى فَتًى ... لم يبْكِ إذْ ذاقَها من حُرْقَةِ الكاسِ؟

سِلْمٌ، وَلَكِنَّها حَرْبٌ لِذائِقِها ... يا حَبَّذا بَأْسُها ما كان من باسِ!

نازَعْتُها فِتْيَةً غُرًّا غَطارِفَةً ... ليسوا، إذا امْتُحِنوا يوْمًا، بِأَنْكاسِ

لا يبْطَرونَ وَلا يَخْزُونَ نادِيهِم ... كَأَنَّهُم جُثَثٌ مِن غَيرِ أنفاسِ

يدِيرُها هاشِمِى الطَّرْفِ مُعْتَدِلٌ ... أَبْهَى إذا ما مشى مِن طاقَةِ الآسِ

حَثَّ المُدَامَ، وَغَنّانا عَلى طَرَبٍ: ... الآنَ طابَ الهَوَى يا مَعْشَرَ الناسِ

حَتّى إذا ظَنَّ أَنّى غَيرُ مُحتَمِلٍ ... أشارَ نَحْوى لِأَمْرٍ بَينَ جُلّاسى

فَقُلتُ: أَضْرِبُ فى معروفِهِ مَثَلًا ... لِعادَةٍ قَد مَضَت مِنّى إلى الآسى:

مَنْ يفْعَلِ الخَيرَ لا يعْدَمْ جَوازِيهُ ... لا يذْهَبُ العُرْفُ بَينَ اللهِ والناسِ

وهذه أيضا:

أَمَا يسُرُّكَ أَنَّ الأرضَ زهراءُ ... وَالخَمْرُ مُمكِنَةٌ شمطاءُ عذراءُ؟

ما فى قُعودِكَ عُذْرٌ عن مُعَتَّقَةٍ ... كَاللَّيلِ والِدُها، وَالأُمُّ خضراءُ

بــــادِرْ، فَــــإِنَّ جِنـــانَ الكَـــرْخِ مُونِقَـــةٌ   لَمْ تَلتَقِفْهـــا يـــدٌ لِلْحَـــرْبِ عَـــسْراءُ

فيهـــا مِـــنَ الـــطيرِ أَصـــنافٌ مُـــشَتَّتَةٌ   مـــا بَيـــنَهُنَّ وَبَينَ النطـــقِ شَـــحْناءُ

إِذا تَغَـــــنَّينَ لا يـــــبْقِينَ جانِحَـــــةً   إِلّا بِهـــا طَـــرَبٌ يـــشْفَى بِـــهِ الـــداءُ

يـــا رُبَّ مَنـــزِلَ خَمّـــارٍ أَطَفْـــتُ بِـــهِ   وَالليـــلُ حُلَّتُـــهُ كَالقـــارِ ســـوداءُ

فَقـــامَ ذو وَفْـــرَةٍ مِـــن بَطْـــنِ مَـــضْجَعِهِ   يمِيـــلُ مِـــن سُـــكْرِهِ، وَالـــعَينُ وَسْـــناءُ

فَقـالَ: "مَـنْ أَنـتَ؟" فى رفـقٍ، فَقُلتُ لـهُ:   بَعْــضُ الكِــرامِ، ولى فى النعــتِ أَســماءُ

وَقُلْــتُ: إِنّــى نَحَــوْتُ الخَمْــرَ أَخْطُبُهــا   قـــال: الـــدراهمَ! هَـــل لِلْمَهْـــرِ إِبْطـــاءُ؟

لَمّـــا تَـــبَينَ أَنّـــى غَيرُ ذى بَخَـــلٍ   وليـــس لى شُـــغُلٌ عنهـــا وَإِبْطـــاءُ

أَتَـــى بِهـــا قَهْـــوَةً كَالمِـــسْكِ صـــافِيَةً   كَدَمْعَـــةٍ مَنَحَتْهـــا الخَـــدَّ مَرْهـــاءُ

مـــا زالَ تاجِرُهـــا يـــسْقِى، وَأَشْرَبُهـــا   وَعِنْـــدَنا كاعِـــبٌ بيـــضاءُ حـــسناءُ

كَـــمْ قـــد تَغَنَّـــتْ ولا لَـــوْمٌ يلِـــمُّ بِنـــا: دَعْ همـــط لَـــوْمى فـــإن اللـــومَ إغـــراءُ

ثم هذه كذلك:

صِـــــفَةُ الطُلـــــولِ بَلاغَـــــةُ الفَـــــدْمِ   فاجعـــــل صِـــــفاتِكَ لِابْنَـــــةِ الكَـــــرْمِ

لا تُخْـــدَعَنَّ عَـــنِ الَّتـــى جُعِلَـــت   سُـــقْمَ الـــصحيحِ وَصِـــحَّةَ الـــسَّقِمِ

وَصَـــديقَةِ الـــروحِ الَّتـــى حُجِبَـــت   عَـــن ناظِرَيـــكَ وَقَيـــمِ الجِـــسْمِ

لا كَرْمُهـــــا مِمّـــــا يـــــذالُ وَلا   فُتِلَـــتْ مَرائِرُهـــا عَـــلى عَجْـــمِ

صـــهباء فَـــضَّلَها المُلـــوكُ عَـــلى   نُظَرائِهـــا بِفَـــضِيلَةِ القِـــدمِ

فَـــإِذا أَطَفْـــنَ بِهـــا صَـــمَتْنَ لَهـــا   صَـــمْتَ البَنـــاتِ مَهابَـــةَ الأُمِّ

وَإِذا هَـــــــتَفْنَ بِهـــــا لِنازِلَــــــةٍ قَـــدَّمْنَ كُنْيَتَهـــا عَـــلَى الِاسْــــمِ

وَإِذا أَرَدنَ لَهـــــــــــا مُحـــــــــــاوَرَةً رَوَّحْــــنَ مــــا عَـــزَّبْنَ مِــــن حِلْــــمِ

شُـــــجَّت، فَعَالَـــــت فَوقَهـــا حَبَبًـــا مُتَراصِـــــفًا كَتَراصُـــــفِ الـــــنَّظْمِ

ثُــــمَّ انْفَــرَتْ لَــكَ عَــن مَــدَبّ دَبًــا عَجْـــــلانَ صَـــــعَّدَ فى ذُرَا أُكْــــمِ

فَكَـــــأَنَّما يتلـــــو طَرائِـــــدَها نَجْـــــمٌ تَـــــواتَرَ فى قَفَـــا نَجْــــمِ

وَكَـــأَنَّ عُقْبَـــى طَعْمِهـــا صَـــبِرٌ وَعَـــلى البديهـــةِ مُـــزَّةُ الطعــــمِ

ترمـــى فَتَقْـــصِدُ مَـــنْ لَـــهُ قَـــصَدَتْ جَـــمَّ المِـــراحِ دَرِيـــرَةَ الـــسهمِ

فَعَـــلامَ تَـــذهَلُ عَـــن مُشَعْـــشَعَةٍ وَتَهِيـــمُ فى طَلَـــلٍ وفى رَسْـــمِ؟

تَـــصِفُ الطُّلُـــولَ عَـــلَى الـــسماعِ بِهـــا أَفَـــذُو العِيـــانِ كَأَنْـــتَ فى العِلْـــمِ؟

وَإِذا وَصَـــــفْتَ الـــــشىءَ مُتَّبِعًـــــا لَم تَخْـــلُ مِـــنْ زَلَـــلٍ وَمِـــنْ وَهْـــمِ

على أن شعر أبى نواس غير مقصور على الخمريات والغلمانيات، بل هناك المدائح، التى قالها فى الرشيد والأمين والبرامكة والخصيب والى مصر... وسوف أناقش الآن ما قاله فيليب كيندى (ص٨٤ وما بعدها) عن القصيدة التالية التى مدح بها شاعرنا الخليفة هارون الرشيد، والتى يعدها كيندى أفضل ما صاغته يراعة أبى نواس فى هذا الباب:

خَلُـــقَ الـــشبابُ، وَشِرَّتـــى لَم تَخْلُـــقِ وَرَمَيـــتُ فى غَـــرَضِ الزمـــانِ بِـــأَفْوَقِ

تَقَـــــعُ الـــــسهامُ وراءهُ، وَكَأَنَّـــــهُ، أَثَـــرَ الخَوالِـــفِ، طالِـــبٌ لَم يلْحَـــقِ

وَأَرى قُــــوَاى تَكاءَدَتْهـــــا رَيثَــــــةٌ فَـــإِذا بَطَـــشْتُ بَطَـــشْتُ رِخْـــوَ المِرْفَـــقِ

وَلَقَـــد غَـــدَوْتُ بِدُســـتُبانِ مُعَلَّـــمٍ صَـــخِبِ الجَلاجِـــلِ فى الوَظيـــفِ مُـــسَبَّقِ

حُرٌّ صَنَعْناهُ لِتُحْسِنَ كَفُّهُ ... عَمَلَ الرَّفيقَةِ وَاسْتِلابَ الأَخْرَقِ

يَجْلُو القَذَى بِعَقِيقَتَينِ اكْتَنَّتا ... بِذَرًا سَلِيمِ الجَفْنِ غَيرِ مُخَرَّقِ

أَلْقَى زَآبِرَهُ وَأَخلَقَ بِزَّةً ... كانت ذخيرةَ صانِعٍ مُتَنَوِّقِ

فَكَأَنَّهُ مُتَدَرِّعٌ ديباجَةً ... عن قالِصِ التُّبّانِ غَيرِ مُسَوَّقِ

وَإِذا شَهِدْتَ بِهِ الوَقِيعَةَ أَقلَعَتْ ... عَنهُ الغَيابَةُ وَهْوَ حُرُّ المِصْدَقِ

فَتَرَى الإِوَزَّ فُوَيتَ خَطْمِ مُشَيعٍ ... غَرْثان ينتشط الشَّوَاكِلَ سُوذَقِ

يعْتامُ جُلَّتَها وَيقْصُرُ شَأْوُها ... بِمُؤَنَّفٍ سَلِبِ الشَّباةِ مُذَلَّقِ

حَتّى رَفَعْنا قِدْرَنا بِرِضَامِها ... واللحمُ بَينَ مُوَزَّرٍ وَمُوَشَّقِ

هَذا أَميرُ المُؤمِنينَ انتاشَنى ... والنفسُ بَينَ مُحَنْجَرٍ وَمُخَنَّقِ

نَفْسِى فِداؤُكَ يَوْمَ وابِقَ مُنْعِمًا ... لولا عَواطِفُ حِلْمِهِ لَم أُطْلَقِ

حَرَّمْتَ مِنْ لحمى عَلَيكَ مُحَلَّلًا ... وَجَمَعْتَ من شَتَّى إلى مُتَفَرِّقِ

فَاقْذِف بِرَحْلِكَ فى جَنَابِ خَليفَةٍ ... سَبّاقِ غاياتٍ بِها لَم يُسْبَقِ

إِنّا إِلَيكَ مِنَ الصَّليبِ فَجَاسِمٍ ... طَلَعَ النِّجَادَ بِنا وَجِيفُ الأَيْنُقِ

يتْبَعْنَ مائِرَةَ المِلاطِ كَأَنَّما ... ترنو بِعَين مُضِلَّةٍ لَم تَفْرَقِ

خَنْساءُ تَرْعَى جُؤْذَرًا بِخَميلَةٍ ... وَبِها إِلَيهِ صَبابَةٌ كَالأَوْلَقِ

حَتّى إِذا وَجَدَتْهُ لَم تَرَ عِندَهُ ... إِلّا مَجَرَّ إِهابِهِ المُتَمَزِّقِ

يأْبَى لِهارونَ الخَليفَةِ عُنْصُرٌ ... زاكٍ تَمَكَّنَ فى المُصَاصِ المُعْرِقِ

مَلِكٌ تَطِيبُ طِبَاعُهُ، وَمِزاجُهُ ... عَذْبُ المَذَاقِ عَلى فَمِ المُتَذَوِّقِ

يلْقَــى جَمِيــعَ الأَمْــرِ، وَهــوَ مُقَــسَّمٌ   بَينَ المَناسِــــكِ وَالعَــــدُوِّ المُوفِــــقِ

تحميــــكَ مِمّــــا يسْتَــــسِرُّ فــــؤادُه   ضــحكاتُ وَجْــهٍ لا يرِيبُــكَ مُــشْرِقِ

حَتّــــى إِذا أمــــضى عَزِيمَــــةَ رَأْيــــهِ   أَخَــــذَتْ بِــــسَمْعِ عَــــدُوِّهِ وَالمَنْطِــــقِ

إِنّــى حَلَفــتُ عَلَيــكَ جَهْــدَ أَلِيــةٍ   قَــــسَمًا بِكُــــلِّ مُقَــــصِّرٍ وَمُحَلِّــــقِ

لَقَـــدِ اتَّقَيـــتَ اللهَ حَـــقَّ تُقاتِـــهِ   وَجَهَــدْتَ نَفْــسَكَ فَــوْقَ جَهْــدِ المُتَّقِــى

وَأَخَفْــتَ أَهْــلَ الــشِّرْكِ حَتّــى إِنَّــهُ   لَتَخافُــكَ النُّطَــفُ الَّتــى لَم تُخْلَــقِ

وَبِـــضاعَةُ الــــشُعَراءِ إِن نَفَّقْتَهــــا   نَفَقَــــتْ، وَإِن أَكْــــسَدْتَها لَم تَنْفُــــقِ

إذ يرى أنها، رغم تباعد موضوعاتها، توفر متعة للقارئ إذا ما أخذ كل موضوع على حدة دون النظر إلى انعدام الرابط بينه وبين سائر الموضوعات، كما هو الحال مثلا عند قراءتنا لما قاله الشاعر عن الزمان وأفاعيله معه وهدمه لقواه. كذلك يرى المؤلف تناغما بين موضوع الصيد حيث يفترس الصقر الإوز افتراسا وبين حديثه عن انقضاض الرشيد على الأعداء. وبالمثل يرى أن فى القصيدة تحركا من الماضى نحو الحاضر والمستقبل: فالنواسى يتحدث أولا عن شبابه الذى ولى وضاع، ثم ينتقل إلى الحديث عن حاضره وما يؤمِّله من الخليفة من عطاء وكرم وكذلك ما ينزله الخليفة بأعدائه من هزيمة وترويع.

والواقع أن ما قاله أبو نواس عن الشباب لايلمس القلب كثيرا، إذ هو كلام سريع ليس فيه تريث ولا تعمق، علاوة على أن قوله ببقاء شِرَّته كما هى كفيل بإفساد جو الحزن الذى يقول المستشرق إن الحديث عن الزمن وتولى الشباب يخلقه فى النفس خلقا. ويضاف إلى ذلك أن أبيات النواسى المطولة نسبيا عن الصقر والصيد والطعام وانتشائه به تُجْهِز تماما على ما يمكن أن يكون قد عَلِقَ

بالنفس من أساه على ما فات من أيام الشباب. وهناك أيضا الانتقال الفجائى من الحديث عن الصيد إلى مدح الخليفة. وفيه نرى الشاعر غير مَعْنِيٍّ بالتمهيد لهذا الانتقال ولو بعبارة "فعَدِّ عن ذا" مثلا. أى أنه ينقصه "حسن التخلص" بتعبير النقاد القدماء. إن القارئ ليحس أنه قد صُدَّ بغتةً وبقوة عن متابعة طريقه ولُوِيتْ عنقه إلى الخلف وأُكْرِه على الاتجاه عكس ما كان سائرا دون أن تتاح له فرصة لفهم الوضع الجديد والاستعداد له، وهو ما يضاعف الضيق بما حدث. كما أن مدح الشاعر لهارون الرشيد بالشجاعة والانقضاض القاتل على الأعداء هو كلام عام مجرد ليس فيه مثلا ما فى قصيدة أبى تمام فى وصف انتصار المعتصم فى عمورية ولا ما فى قصائد المتنبى فى تصوير بطولات سيف الدولة فى حروبه مع الروم من صور بديعة وتفاصيل حية وصياغة فحلة وتدفق شعورى ونشوة قومية دينية وإعجاب صادق بإنجازات الممدوح.

والملاحظ أن الشاعر فى البيتين التاليين:

إنّى حَلَفتُ عَلَيكَ جَهْدَ أَلِيةٍ قَسَمًا بِكُلِّ مُقَصِّرٍ وَمُحَلِّقِ

لَقَدِ اتَّقَيْتَ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَجَهَدْتَ نَفْسَكَ فَوْقَ جَهْدِ المُتَّقِى

قد استعمل كلمة "عليك". وقد ظننته فى البداية يحلف على الرشيد ليفعلن كذا مع أنه إنما يريد أن يقسم له على أنه صادق فى مديحه. لكنى لما ترويت فى الأمر وجدت لذلك الاستعمال توجيها، وهو أن قوله: "عليك" لا يقْصَد به المناشدة بل يعنى "بشأنك" أو "فيما يخصك" بالتعبير العصرى. على أن هذا لا يحل الإشكال، إذ الإنسان إنما يحلف ليطمئن المخاطب بأنه صادق، وهذا إنما يكون فيما يجهله المخاطب. فهل النواسى يخاطب الرشيد هنا بما يجهله؟ ثم إن الحَلِف إنما يستعمل فيما يحيط به الشك، ولا أظن من اللائق أن يقسم النواسى على تقوى الرشيد، وإلا

كان معنى ذلك أن هذه التقوى محل شك وتحتاج من ثم إلى حلف يؤكدها. كما أننى لا أستسيغ قول الشاعر إن لحمه حلال على الرشيد. إنها صورة لا تليق بالخليفة، فالخليفة ليس حيوانا مفترسا يأكل لحوم البشر ولا هو مغتاب يأكل لحم أخيه ميتا. وبالمثل لا يمكننى أن أتقبل أن يكون هناك تذوق لطعم مزاج الخليفة. إن مزاج الخليفة ليس طعاما يؤكل أو شرابا يحتسى. واضح أن الشاعر يرص الكلام رصًّا، وليس الكلام خارجا من مكامن الإعجاب فى قلبه.

ولا شك أن البيت الختامى قد أضاف إلى القصيدة وهنا على وهن، إذ الشاعر لا يستطيع أن ينسى أنه إنما نظم هذا الكلام من أجل المال، ولا يقدر من ثم على إخفاء قلقه من أن تخيب ظنونه فى الخليفة، فيحرمه ولا يعطيه على "بضاعته" هذه شيئا دون أن يجرؤ هو على التعقيب على ذلك ببنت شفة. ويزيد الأمر فسادا أنه قبل ذلك قد أكد أن الخليفة انتاشه مما هو فيه. فكيف ينتاشه، وفى ذات الوقت يمكن أن يتجاهله فلا يعطيه على شعره هذا شيئا مما يعطيه الممدوحون لمادحيهم؟

على أن القصيدة تتميز بما فى مقدمتها من جديد، إذ الشاعر لا يفتتحها بالوقوف على الأطلال ولا بالثناء على الخمر مثلا، بل بطردية ينطلق فيها واصفا الصقر وما أنزله بالإوز المراد اصطياده من بلاء كانت عاقبته أن أكل الشاعر وصحابه من هذا الصيد وشربوا وقصفوا هانئين مسعودين. وهو ما لا أذكر أنى ألفيته عند سابقيه من الشعراء. ويمكن، ما دمنا فى الحديث عن الربط بين موضوعات القصيدة المتباعدة، أن نرى فى هذه الطردية إشارة من بعيد إلى ما يأمله أبو نواس من الخليفة من عطايا ونِعَم حتى يستطيع الحفاظ على العيش الهانئ السعيد المُشْبِه لما وَفَّره له الصقرُ، الذى أبصر فيه كيندى ما يمكن أن نعده

"معادلا موضوعيا" للرشيد. لكن القصيدة، بوجه عام، شعر فاتر غير نابع من الوجدان.

وأخيرا أود أن أقول كلمة سريعة عن ترجمة القصيدة. فقد سها المترجم فاستبدل كلمة "الشباب" بكلمة "الزمان" والعكس بالعكس فى البيتين الأولين بحيث إن الذى خَلُقَ فى الترجمة ليس هو الشباب بل الزمان، والذى رماه الشاعر بالسهام ليس هو الزمان بل الشباب. كذلك نراه يحول الكلام فى البيت التالى الذى يخاطب الشاعرُ فيه الرشيدَ قائلا إنه قطع إليه رحلة طويلة مرهقة:

إِنّا إِلَيكَ مِنَ الصَّلِيب فَداسِمٍ طَلَعَ النِّجادَ بِنا وَجيفُ الأَينُقِ

إلى أمر يأمر فيه نفسه بنَخْس نوقه حتى تجدَّ فى الوجيف فتصل به سريعا إلى بلاط الخليفة. وشتان هذا وذاك. كذلك نراه يتصور أن الناقة التى تتبعها سائر النوق فى الرحلة هى بقرة وحشية ترى ابنها وقد افتُرِس ومُزِّق إهابه على أديم الأرض، غير منتبه إلى قول الشاعر: "كأنها". أى أن الناقة عند أبى نواس "تشبه" بقرة هذا حالها، و"ليست هى نفسها البقرة" كما هو الأمر فى الترجمة. أما فى قول أبى نواس:

يأْبَى لِهارونَ الخليفةِ عُنْصُرٌ مَحْضٌ تَمَكَّنَ فى المُصَاصِ المُعْرِقِ

فقد تحول المعنى إلى أن الرشيد يحتقر كل شىء سوى ذلك العنصر العريق.

وقد سبق فى ثمانينات القرن الماضى أن حللت، فى كتابى: "فى الشعر العباسى- تحليل وتذوق"، لأبى نواس مدحة أخرى قالها فى العباس حفيد أبى جعفر المنصور، فلم تعجبنى بل ألفيتها، فى القسم الخاص بالمديح، مجرد رص لكلام بارد، والسلام. وهى القصيدة التى مطلعها:

أيها المنتابُ عن عُفُرِهْ لستَ من لَيلِى ولا سَمَرِهْ

وتتكون القصيدة من عدة أغراض: فهناك المقدمة النسيبية، ثم حديث الشاعر عن تجاربه فى الحياة وتمدُّحه بها، ثم انتقاله للحديث عن رحلته إلى الممدوح متلبثا أمام حصانه يصفه ويثنى على ما بذله من جهد فى قطع الفيافى والقفار وإيصاله فى النهاية إلى غايته. وفى المقدمة النسيبية نجد الشاعر يحمل على حبيبته حملة شديدة جراء خيانتها إياه ثم رغبتها فى العودة ثانية إليه ورفضه لذلك. وهى مقدمة لا تتناسب والمديح، فالجوان مختلفان تمام الاختلاف، وبخاصة أنه ما إن يبدأ مديحه حتى ينسى كُلِّيا ما كان فيه من أحزان بسبب الحبيبة الغادرة التى ترغب فى العودة بعدما طعنته وتريده أن ينسى ما حدث وكأن شيئا لم يكن، بينما هو يرفض ذلك. ومع هذا ففى تلك المقدمة فى حد ذاتها ألم وسخط شديدان، وإن كانا مكتومين، يضفيان عليها حرارة وقوة، وبخاصة أنه لا يعفى نفسه من اللوم لأنه كان أعمى لا يبصر النتائج، فوقع له مع تلك الحبيبة ما وقع مما جلب عليه الخزى والعار. كذلك نجد فى الموضوع الثانى شيئا غير قليل من الحرارة خلال حديثه عما مر به من تجاريب الحياة التى محصته وصلّبت عوده. أما فى وصفه لحصانه فهو يردد كلاما وعبارات محفوظة لا تقدم جديدا وتخلو من الحرارة والجاذبية. وأخيرا نصل إلى المديح، وهو عبارة عن كلام يقال كثيرا فى مثل تلك المناسبات يخلو من الحرارة.

ويزيد هذا المديحَ سخفا وَصْفُ الشاعر لممدوحه بأن "رسول الله من نَفَرِه"، وكأن العباس هو الأصل، والرسول فرع تابع له. وقد وجدت، وأنا أعيد بحث تلك القصيدة فى الفترة الأخيرة، أن هذه المسألة أثيرت من قديم، إذ جاء فى "ديوان أبى نواس" للصولى: "ذكر أبو على الأصفر، وكان من رواة أبى نواس، قال: لما عمل أبو نواس: "أيها المنتاب عن عُفُرِهْ" أنشدنيها. فلما بلغ قوله:

كيـــف لا يـــــدْنِيك مِـــنْ أمـــلٍ   مَــــنْ رســـــولُ اللهِ مِـــنْ نَفَــــرِهْ؟

وقـع لى أنـه كـلامٌ مـستهجَنٌ موضـوعٌ فى غير موضـعه، إذ كـان حـق سـيدنا رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم أن يـضاف إليـه ولا يـضاف إلى أحـد. فقلـت: أعرفتَ عيب هذا البيت؟ فقال: ما يعيبه إلا جاهل بمجارى كلام العرب. إنما أردتُ أن رسول الله من القبيل الذى هذا الممدوح منه. أما سمعتَ قولَ حسان بن ثابت شاعر دين الإسلام:

ومـــا زال فى الإســـلام مـــن آل هاشـــمٍ   دعـــائمُ عِــــزٍّ لا تُــــرَام ومَفْخَـــرُ

بهاليـــلُ مـــنهم جعفـــرٌ وابـــنُ أمـــه   عـــلى، ومــــنهم أحمـــدُ المـــتخيرُ؟"

وهو ردٌّ فائلٌ، فقد نُسِب رسول الله فى بيت حسان إلى آل هاشم، وهذا أمر طبيعى لأن بنى هاشم سابقون عليه صلى الله عليه وسلم، فضلا عن أن نسبته عليه السلام هى للقبيلة جمعاء، أما نسبته إلى العباس حفيد المنصور فهى تقلب الأوضـاع وتـضع هـذا الممـدوح فى صـدارة المـشهد، وتقـصى الرسـول إلى خلفيـة الصورة وتجعله تابعا للعباس. وشتان الأمران!

كـما أن قولـه عـن العبـاس إنـه "لِـسليل الـشمس مـن قمـره" هـو كـلام يليـق بوصف العرائس فى الأفراح والليالى الملاح. أما قوله عنه إنه "ملِك" فهو السخف مجسما، إذ من أين تأتيه الملوكية، وهو مجرد حفيد من أحفاد المنصور، وما أكثر أحفاده وأحفاد الخلفاء العباسيين الآخرين مما يجعل ذلك الوصف تنطعا ثقيلا غير مهضوم، وبالذات لأن المنصور قد مضى وذهبت ريحه، ولم يعد لأحد من ذريته موضـع فى الزعامـة والقيـادة، فـضلا عـن الخلافـة والملـك؟ وهـذه هـى القـصيدة كاملة:

أَيهـــا المُنْتَــــابُ عــــن عُفُـــرِهْ   لَـــسْتَ مــــن لَيـــلِى ولا سَـــمَرِهْ

لا أَذُودُ الطيرَ عَنْ شَجَرٍ　　　قد بَلَوْتُ المُرَّ مِنْ ثَمَرِه

فَاتَّصِلْ إن كُنْتَ مُتَّصِلًا　　　بِقُوَى مَنْ أنت مِنْ وَطَرِه

خِفْتُ مأثورَ الحديثِ غَدًا　　　وَغَدٌ دانٍ لِمُنْتَظِرِهْ

خابَ مَنْ أسرى إلى بَلَدٍ　　　غيرِ معلومٍ مَدَى سَفَرِه

وَسَّدَتْهُ ثِنْى ساعِدِهِ　　　سِنَةٌ حَلَّتْ إلى شَفَرِه

فَامْضِ. لا تَمْنُنْ عَلَى يدًا　　　مَنُّكَ المعروفَ مِن كَدَرِه

رُبَّ فِتيانٍ رَبَأْتُهُمُو　　　مَسْقِطَ العَيوقِ مِن سَحَرِهْ

فَاتَّقَوْا بِى ما يريبُهُمُو　　　إِنَّ تَقْوَى الشرِّ مِن حَذَرِه

وابن عَمٍّ لا يكَاشِفُنا　　　قد لَبِسْناهُ على غَمَرِه

كَمَنَ الشَّنَآنُ فيهِ لنا　　　كَكُمُونِ النارِ فى حَجَرِهْ

وَرِضَابٍ بِتُّ أَرْشُفُهُ　　　ينْقَعُ الظمآنَ مِن خَصَرِه

عَلَّنِيهِ خُوطُ إِسْحِلَةٍ　　　لانَ مَتْناهُ لِمُهتَصِرِه

ذا، وَمُغْبَرٍّ مَخارِمُهُ　　　تَحْسِرُ الأبصارُ عَن قُطُرِهْ

لا تَرَى عَينُ البصير بِهِ　　　ما خَلَا الآجالَ مِن بَقَرِه

خاضَ بِى لُجَّيْهِ ذو جرزٍ　　　يفْعِمُ الفَضْلَينِ مِن ضُمُرِه

يكْتَسِى عُثْنونُهُ زَبَدًا　　　فَنَصِيلاهُ إلى نُخَرِهْ

ثُمَّ يعْتَمُّ الحِجَاجُ بِهِ　　　كَاعْتِمامِ الفُوفِ فى عُشَرِه

ثُمَّ تَذْروهُ الرياحُ كما　　　طارَ قطنُ النَّدْفِ عن وَتَرِهْ

كُـــــلُّ حاجـــــاتى تَناوَلَهـــــا وَهْـــــوَ لَمْ تَـــــنْقُصْ قُـــــوَى أَشَرِه

ثُـــــمَّ أَدْنـــــانى إِلى مَلِـــــكٍ يـــــأْمَنُ الجـــــانى لَـــــدَى حُجَـــــرِه

تَأْخُـــــذُ الأَيـــــدِى مَظالِمَهـــــا ثُـــــمَّ تَـــــسْتَذْرِى إِلى عُـــــصُرِهْ

كَيـــــفَ لا يـــــدْنِيكَ مِـــــنْ أَمَـــــلٍ مَـــــنْ رَســـــولُ اللهِ مِـــــن نَفَـــــرِه؟

فَاسْـــــلُ عَـــــن نَـــــوْءٍ تُؤَمِّلُـــــهُ حَـــــسْبُكَ العَبّـــــاسُ مِـــــن مَطَـــــرِه

مَلِـــــكٌ قَـــــلَّ الـــــشَّبِيهُ لَـــــهُ لَمْ تَقَـــــعْ عَينٌ عَـــــلى خَطَـــــرِه

لا تَغَطَّـــــى عنـــــهُ مَكْرُمَـــــةٌ بِرُبَـــــى وادٍ وَلا خَمَـــــرِهْ

ذُلِّلَـــــت تِلـــــكَ الفِجـــــاجُ لَـــــهُ فَهْـــــوَ مُختـــــارٌ عَـــــلى بَـــــصَرِه

سَـــــبَقَ التفـــــريطَ رائِـــــدُهُ وَكَفـــــاهُ الـــــعَينَ مِـــــن أَثَـــــرِه

وَإِذا مَـــــجَّ القَنَـــــا عَلَقًـــــا وَتَـــــراءَى المَـــــوْتُ فى صُـــــوَرِه

راحَ فى ثِنْيـــــى مُفاضَـــــتِهِ أَسَـــــدٌ يَـــــدْمَى شَـــــبَا ظُفُـــــرِه

تَتَأَيـــــا الـــــطيرُ غُدْوَتَـــــهُ ثِقَـــــةً بِالـــــشبعِ مِـــــن جَـــــزَرِهْ

وَتَـــــرى الـــــساداتِ ماثِلَـــــةً لِـــــسَليلِ الـــــشمسِ مِـــــن قَمَـــــرِه

فَهُمُـــــو شَـــــتَّى ظُنونُهُمُـــــو حَـــــذَرَ المكنـــــونِ مِـــــن فِكَـــــرِه

وَكَـــــريمُ الخـــــالِ مِـــــن يمَـــــنٍ وَكَـــــريمُ العَـــــمِّ مِـــــن مُـــــضَرِه

قَـــــد لَبِـــــسْتَ الـــــدَهرَ لِـــــبْسَ فَتًـــــى أَخَـــــذَ الآدابَ عَـــــن عِـــــبَرِه

فَـــــادَّخِرْ خَيرًا تُثـــــابُ بِـــــهِ كُـــــلُّ مَـــــدْخورٍ لِمُـــــدَّخِرِهْ

وهى قصيدة لم يوردها المؤلف ولم يتحدث عنها، بل اهتم بقصيدة أخرى مدح بها الشاعرُ حفيدَ المنصور هذا حين خرج معه للحج ذات مرة بعد أن أقلع العباس عن الخمر. لكن أبا نواس، كما ترينا القصيدة بوضوح، لم يقلع عنها كما أقلع ممدوحه. ثم إنه لم يكتف بهذا بل جاهر، فى هذا السياق الدينى الذى أثنى فيه ثناء جميلا عظيما على حفيد المنصور بالتقوى والأريحية، بأنه ما زال يشرب الخمر ويتعشق سقاتها، وأنه لم يرعو عن انحرافه رغم ما ظهر فى رأسه من شيب كان ينبغى أن يمنع صاحبه من التهتك واجتراح المعاصى. ومن الواضح أن ثم ارتباكا فى بناء القصيدة وصياغة معانيها. ولا ننس أسلوب الشحاتة الصفيق الوجه الذى يتظاهر صاحبه مع ذلك بالحياء والخوف من الشماتة، وكأنه من حساسيته يخشى على مشاعره من الهواء الطائر. وأقر بأننى أكاد أسخر من حج النواسى الذى أتصور أنه لم يكن لوجه الله، بل من أجل حبيبته جنان مرة، ومن أجل المنصور صاحبه فى الشراب قبلا مرة أخرى. لكنى سرعان ما أفيق قائلا لنفسى: من أنت حتى تسخر من حجه؟ ألا يمكن أن يتقبل الله منه الفرض ويرده عليك ويصكه فى وجهك صكا؟ ولنقرأ:

دِيـــارُ نَـــوَارٍ مـــا دِيـــارُ نَـــوَارِ؟	كَـسَوْنَكَ شَـجْوًا هُـنَّ منـه عَـوَارِى
يقولـون: "فى الـشيبِ الوَقَـارُ لِأَهْلِـهِ"	وَشَـــيبى، بِحَمْـــدِ اللهِ، غَيرُ وَقـــارِ
إِذا كُنْـتُ لا أَنْفَـكُّ عـن طاعَـةِ الهـوى	فَـإِنَّ الهـوى يرمـى الفتـى بِبَـوَارِ
فَهـــا إِنَّ قلبـــى لا مَحالَـــةَ مائِـــلٌ	إِلى رَشَـــإٍ يـــسعى بِكَـــأسِ عُقَـــارِ
شَـــمُولٍ إِذا شُـــجَّتْ تَقُـــولُ: عَقيقَـــةٌ	تَنـــافَسَ فيهـــا الـــسَّوْمُ بَينَ تِجَـــارِ
كَـأَنَّ بَقايـا مـا عَفَـا مِـن حَبَابِهـا	تَفـــاريقُ شَـــيبٍ فى سَـــوادِ عِـــذارِ

تَـــرَدَّتْ بِـــهِ ثُـــمَّ انْفَـــرَتْ عَـــنْ أَدِيمِـــهِ تَفَـــرِّى لَيـــلٍ عَـــنْ بَيـــاضِ نَهـــارِ

تُعَاطيكَهـــا كَـــفٌّ كَـــأَنَّ بَنَانَهـــا، إذا اعْتَرَضَـــتْها الـــعَيْنُ، صَـــفُّ مَـــدَارِ

حَلَفْـــتُ يمِينًـــا بَـــرَّةً لا يـــشُوبُها فَجَـــارٌ، وَمـــا دهـــرى يـــمِينُ فَجَـــارِ:

لَقَـــد قَـــوَّمَ العَبّـــاسُ للنـــاسِ حِجَّهُـــم وَســـاسَ بِرَهْبانِيـــةٍ وَوَقـــارِ

وَعَـــرَّفَهُم أعلامَهـــم، وَأَراهُمُـــو مَنَـــارَ الهُـــدَى مَوصـــولَةً بِمَنَـــارِ

وَأَطعَـــمَ حَتّـــى مـــا بِمَكَّـــةَ آكِـــلٌ وأعطـــى عَطَايـــا لَمْ تَكُـــنْ بِـــضِمارِ

وَحُمْـــلانُ أَبنـــاءِ الـــسَبيلِ تَراهُمُـــو قِطـــارًا إذا راحـــوا أمـــامَ قِطـــارِ

أَبَـــتْ لَـــكَ، يـــا عَبّـــاسُ، نَفْـــسٌ سَـــخِيَةٌ بِزِبْـــرِجِ دنيانـــا وعِتْـــقِ نَجَـــارِ

وَأَنَّـــكَ لِلمنـــصورِ منـــصورِ هاشِـــمٍ، وَمـــا بَعْـــدَهُ مِـــن غايـــةٍ لِفَخَـــارِ

فَجَـــدّاكَ: هَـــذا خَيرُ قَحطـــانَ واحِـــدًا وَهَـــذا، إذا مـــا عُـــدَّ، خَيرُ نِـــزارِ

إِلَيـــكَ غَـــدَتْ بـــى حاجَـــةٌ لَمْ أَبُـــحْ بِهـــا أَخـــافُ عليهـــا شـــامِتًا فَـــأُدارِى

فَـــأَرْخِ عَلَيهـــا سِـــتْرَ معروفِـــكَ، الـــذى سَـــتَرْتَ بِـــهِ قِـــدْمًا عَـــلَى عُـــوَارى

أما فى ترجمة القصيدة (ص٨٩- ٩٠) فقد تحول التركيب فى قول الشاعر:

دِيـــارُ نَـــوَارٍ مـــا دِيـــارُ نَـــوَارِ؟ كَـــسَوْنَكَ شَـــجْوًا هُـــنَّ منـــه عَـــوَارِى

من جملة استفهامية فى الشطر الأول على غرار قوله تعالى: "الحاقة ما الحاقة؟" وأخرى خبرية فى الشطر الثانى إلى جملة واحدة استفهامية ضمت الجملتين معا، وأصبحت "ما" فيها "لماذا؟" على النحو التالى: "لم كَسَتْكَ ديارُ نوار شجوا هى منه عارية؟" ويبدو أنه قرأ الكلام على النحو التالى: "ما دِيارُ نَوَارِ

كَسَوْنَكَ شَجْوًا هُنَّ منه عَوَارِى؟" ظانا أن "ما ديار نوار" تعنى "ما لديار نوار...؟". وهذا هو النص الإنجليزى:

The abodes of Nawar! Why have the abodes of Nawar
Cloaked you in sorrows, blithe though they are themselves?

ونتنقل إلى الحديث عن الأهاجى النواسية، والكلام فيها يطول: فمنها البذىء الذى لا يوفر فيها النواسى عِرْضًا دون أن يمزقه ويفضح أصحابه نساء ورجالا، غير مُدَارٍ ولا مُوَرٍّ ولا محاولٍ تحفظا ولو من طرف اللسان. إنه يستحيل عندئذ بالوعة من المجارى المنتنة التى لا تطاق رائحتها. وهناك الأهاجى الخفيفة التى يعجب بعضها الذوق الفنى بما فيه من معان طريفة وخيالات محلقة. وهناك الأهاجى التى ينقلب فيها على من كان قد مدحهم من قبل غير شاعر بخجل من تكذيب نفسه بنفسه، إذ يأتى إلى ما كان قد مطرهم به من ثناء غامر عاطر فينقضه نقضا ويزعم عكسه المزاعم... إلخ. ومن الأهاجى الخفيفة البارعة الممتعة قوله فى رغيف من الرُّغْفان:

رَغيفُ سَعيدٍ عِنْدَهُ عِدْلُ نَفسِهِ ... يقَبِّلُهُ طَوْرًا، وَطَوْرًا يلاعِبُهْ

وَيخْرِجُهُ مِن كُمِّهِ فيشمّهُ ... وَيجْلِسُهُ فى حِجْرِهِ وَيخاطِبُهْ

وَإنْ جاءهُ المسكينُ يطْلُبُ فَضْلَهُ ... فَقَد ثَكِلَتْهُ أُمُّهُ وَأَقارِبُهْ

يكِرُّ عَلَيهِ السَّوْطُ مِن كُلِّ جانِبٍ ... وَتُكْسَرُ رِجلاهُ، وَينْتَفُ شارِبُه

وقد جاءت ترجمة تلك الأبيات (ص٩٦) على النحو التالى:

Sa'id's loaf of bread is worth as much to him as his soul;
He kisses it sometimes, other times he plays with it,
He puts it on his lap and sniffs it,
He holds it out before him and talks to it;
And when a poor man approaches him for it
He would seem to have lost his mother and relatives!

والملاحظ أن المترجم قد تصرف أحيانا فى النص، وأخطأ الفهم أحيانا أخرى رغم أن الترجمة بوجه عام ممتعة: فمثلا نراه لم يترجم عبارة "وَيخْرِجُهُ مِن كمِّهِ". كما ترجم عبارة "يطلب فضله" على أنه قد جاء يطلب الرغيف ذاته، وشتان المعنيان. أما عبارة "فَقَد ثَكِلَتْهُ أُمُّهُ وَأَقارِبُهْ"، وهى تعنى أن الشحات فى هذه الحالة يصير فى عداد الأموات جراء ما يقع عليه من أذى أوانذاك، فمن الواضح أن المترجم قد أخطأ نقلها إلى لغة جنبول، إذ صارت تعنى أن سعيدا يبدو حينئذ وكأنه فقد أمه وأقاربه، وبذلك انعكس المعنى وجها لقفا. إن الشخص حين تثكله أمه فمعناه أنه قد مات لا أنه قد فقدها حسبما فهم كيندى، فضلا عن أنه قد حول الحرف: "قد"، الذى يدل على التحقيق، إلى فعل يعنى التشكك فى الأمر: "يبدو". ولعل القارئ لم ينس كيف جعل النواسى من أكل رغيفٍ مقدمةً لأحد أشعاره وكأنه قد أحرز مكسبا من مكاسب الدنيا عظيما. فهذا يذكّر بهذا. إنه فى النصين يدلل الرغيف تدليلا شديدا: هنا نجد سعيدا هو من يدلل رغيفه. وهناك نجد أبا نواس هو المدلِّل.

ومن أهاجى أبى نواس التى أوردها كيندى وحللها (ص٩٨- ١٠٠) أُهْجِيته التالية فى أبان اللاحقى الشاعر المشهور

جالَسْتُ يومًا أَبَانًا   لا دَرَّ دَرُّ أَبَانِ

وَنَحنُ حُضْرُ رِواقِ الـ   أَميرِ بِالنَّهْرَوانِ

حَتّى إذا ما صَلاةُ الـ   أُولَى دَنَتْ لِأَوَانِ

فقام ثَمَّ بها ذو   فصاحة وبيانِ

فكلما قال قلنا   إلى انقضاء الأذانِ

فقــــال: كيــــف شــــهدتم　　　بـــذا بـــغير عِيـــانِ؟

لا أشـــهد الـــدهرَ حتـــى　　　تُعَـــاينَ العينـــانِ

فقلـــت: ســـبحان ربـــى!　　　فقـــال: ســـبحان مـــانى!

فَقُلـــتُ: عيـــسى رَسُـــولٌ　　　فَقَـــالَ: مِـــن شَـــيطانِ

فَقُلـــتُ: موســـى نَجِـــيُّ الـــ　　　ـــمُهَيْمِنِ المَنّـــانِ

فَقَـــالَ: رَبُّـــكَ ذو مُقْـــ　　　ـــلَةٍ إِذَنْ وَلِـــسانِ

أَنَفْـــسُهُ خَلَقَتْـــهُ　　　أَم مَـــنْ؟ فَقُمْـــتُ مكـــانى

وَقُلـــتُ: رَبِّـــى ذو رَحْـــ　　　ـــمَةٍ وذو غُفْـــرانِ

وَقُمْـــتُ أَسْـــحَبُ ذَيـــلى　　　عَـــن هـــازِلٍ بِـــالقُرَانِ

عَـــن كـــافِرٍ يـــتَمَارَى　　　بِـــالكُفْرِ بـــالرحمنِ

يرِيـــدُ أَن يتَـــساوَى　　　بِالعُـــصْبَةِ المُجّـــانِ

بِعَجْـــرَدٍ وَعِبـــادٍ　　　والـــوالِبى الهِجَـــانِ

وَابـــنِ الإِيـــاسِ، الَّـــذى نـــا　　　حَ نَخْلَتَـــى حُلْـــوانِ

وَابـــنِ الخَليـــعِ عَـــلِى　　　رَيحانَـــةِ النُّـــدْمانِ

إِنّـــى وَأَنْـــتَ لـــزانٍ　　　مِـــن زنيـــةٍ وَزَوَانِ

ويحكم فيليب كيندى على هذه القصيدة بأنها تجمع بين الهجاء والمجون. كما خطّأ أبانًا فى نسبة عيسى إلى الشيطان عند المانوية. ذلك أن المانوية، حسبما قال، تبجل عيسى ولا تنظر إليه أبدا بتلك العين، ومن ثم لا يمكن أن ينسبوه إلى

الشيطان، وإن كان هناك من يرى أنه قد صار شيطانا بعد تمكن اليهود من صلبه. وقد نقل هذا الاعتراض، فيما هو واضح، من كتاب "الحيوان" للجاحظ، الذى قال تعقيبا على هذه الأبيات: "وتَعَجُّبى من أبى نواس، وقد كان جالَسَ المتكلمين، أشدُّ من تعجُّبى من حَمَّادٍ حين يحكى عن قومٍ من هؤلاء قَوْلًا لا يقوله أحد، وهذه قُرَّة عَينِ المَهْجُوّ. والذى يقول: "سبحانَ مانى" يعظِّم أمر عيسى تعظيما شديدا، فكيف يقول إنَّه من قِبَلِ شيطان؟".

لكن المسألة، فى رأيى، لا ينبغى أن تؤخذ بهذا الشكل، إذ المستشرق نفسه قد قال، كما رأينا، إن القصيدة مبنية فى جانب منها على المجون. وعلى هذا لا يصح أن ننظر إليها بوصفها تعبيرا دقيقا عن العقيدة المانوية بل على أنها تماجن من أبى نواس. ومن جهة أخرى مَنْ قال إن أبانًا كان يعبر، أو أريد له أن يعبر، عن العقيدة المانوية تعبيرا علميا؟ وهذا إن كان قد صدر منه هذا الكلام أو كان هناك مجلس أصلا عند الأمير بالنهروان. هل يظن المستشرق أن أبانًا كان ليجرؤ على النطق بتلك العبارات الكافرة فى حضرة الأمير المسلم فى ذلك الوقت؟ أو هل يظن أن الأمير كان ليسمح لأبان أو لغير أبان فى مجلسه بأن تصدر عنه تلك الأقاويل؟ إن هذا لهو المستحيل بعينه، وإلا لزُلْزِلَتْ مكانة الأمير ومكانه زلزالا ولتم التنكيل به وجُعِل عبرة لغيره. وبالمناسبة فإن أبانًا يفْتَرَض أنه قال إن عيسى رسول من لدن الشيطان، وليس هو نفسه شيطانا. وكل المراد من القصيدة، فى نظرى، هو إثارة الشك فى عقيدة أبان وإظهاره بأنه مخالف لكل شىء يقوله المسلمون سواء تعلق بالله أو بالرسل أو بالدار الآخرة لا أنه مانَوِىّ على سبيل التحديد، ومداعبته هذه المداعبة الخشنة. والبيت الأخير خير معضد لما أقول، فقد نسب الشاعر المجموعة كلها بما فيهم هو ذاته إلى الفاحشة جاعلا آباءهم

وأمهاتهم أيضا أهل زنا. ثم متى كان النواسى يغضب للدين كل ذلك الغضب؟ كذلك لو كان أبو نواس جادا فى تلك الاتهامات لفزع أبان من قصيدته تلك ولترضَّاه حتى يسكت، لكنه رد عليه بما هو أشنع، إذ انقض على عِرْضه وعِرْض أمه فَرْيا وتمزيقًا فقال:

إنْ يكـــــن هـــــذا النواسِــــــى بـــــــلا ذنـــــــبٍ هَجَانــــــا

فلقـــــــد ...ـــــــناه حينًـــــا وصـــــــــــفعناه زمانـــــــــــــا

هـــــــانئ الجَرْبَـــــــى أبـــــوه زاده الله هوانـــــــــــــــــــــــــا

ســــــائلِ العبــــــاسَ واســــــمع فيـــــه مـــــن أمـــــك شـــــانا

عَجَنُــــــوا مـــــن جلَّنـــــارٍ، ليكيــــــــــدوك، عِجَانـــــــــا

والمقصود بعباس فى الأبيات هوالزوج الثانى لأم شاعرنا بعد موت والده. وأرى أن الأمر عبث أكثر منه جدا. وقد مضى مؤلف "الأغانى" صاحب الخبر الخاص برد أبان على أبى نواس قائلا: "كان أبان اللاحقى صديقا للمعذَّل بن غَيلان، وكانا مع صداقتهما يتعابثان بالهجاء، فيهجوه المعذل بالكفر وينسبه إلى الشؤم، ويهجوه أبان وينسبه إلى الفُسَاء الذى تُهْجَى به عبد القيس، وبالقِصَر، وكان المعذل قصيرا. فسعى فى الصلاح بينهما أبو عيينة المهلبى، فقال له أخوه عبد الله، وهو أسنّ منه: يا أخى، إن فى هذين شرا كثيرا، ولا بد من أن يخرجاه. فدعهما ليكون شرهما بينهما، وإلا فَرَّقاه على الناس". وهو تعليق يقوِّى ما أقوله عن طبيعة ما دار بين النواسى واللاحقى من تهاجٍ واتهامات.

ولا يكتفى كيندى بهذا بل يزيد فيزعم أن هناك خطأ نحويا أبلق فى قول الشاعر:

فقـــــــال: ربـــــــك ذو مُقْـــــــــ ـــــــــلةٍ إذن وذو أذنـــــــــانِ

الذى يترجمه هكذا: "Your Lord... with eyes and ears!?"، حسب رواية الصولى بدلا من روايتنا الآنفة. ويرى القارئ كيف تحولت الجملة فى الترجمة من الخبر إلى الإنشاء وحُذِف فعل الكينونة (is) وحلَّ مكانه ثلاث نقاط. وأنا أرجح الرواية الأخرى التى أوردتُها آنفا لأن الكلام يدور حول كلام الله لموسى، ومن ثم كان اللسان أجدر من الأذنين بالذكر، علاوة على أن أبا نواس لا يستعمل مثل تلك اللغة التى سأتعرض لها بعيد قليل. ويمضى المستشرق فى الدعوى فيقول إن أبا نواس قد أراد السخرية من أبان بالإبقاء على هذا الخطإ الذى لا يجهل صوابَه تلميذٌ من تلاميذ المدارس كى يعرف الناس أن أبانًا جاهل بالنحو. والواقع أن لو كان تفسير المستشرق صحيحا لما فات شارحَ الديوان ذلك. فكيف عرف كيندى أن أبا نواس قد أراد هذا الذى يقوله عنه؟ ثم هل كان أبو نواس يكتفى بهذا دون أن ينص نصا على أن الغلطة هى غلطة أبان، على الأقل: كيلا يظن ظان أنها غلطته هو فى صياغته الشعرية لما قاله أبان؟ لقد فات المؤلفَ أن بعض العرب القدماء، وهم بنو الحارث بن كعب، كانوا يجْرُون المثنَّى والأسماء الستة بالألف دائما رفعا ونصبا وخفضا. وبالتالى فإن أبانًا، بفَرْض أنه قال ذلك، لم يخطئ حين أعرب المثنى بالألف رغم أنه فى حالة جر. ترى أكان النحويون ليصمتوا أمام هذا الخطإ، وكأن شيئا لم يكن؟ ومن الشواهد الشعرية التى تتبع هذا الإعراب النصوص التالية:

أَعْـــرِفُ مِنْهـــا الجِيــــدَ وَالعَينانـــا وَمَنْخِـــــرَين أَشْـــــبَهَا ظَبْيانـــــا

* *

إن أباهـــــا وأبـــــا أباهـــــا قـــــد بلغـــــا فى المجـــد غايتاهـــا

❋ ❋

يـــــــا ليـــــــــت عيناهــــــــا لنـــــــــا وفاهـــــــــا

❋ ❋

خَـــــــــــبّ الفــــــــــــؤادِ مائـــــــــــل اليـــــــــــدانِ

بـل إن هنـاك لغـة أخـرى نـادرة الانتـشار تـستعمل للمثنـى الألـفَ دائـما مـع إعرابه بالضم على النون فى حالة الرفع، والكسر فى حالة الخفض، والفتح فى حالة النصب، فنقول: "على هذا الرف كتابانٌ نافعانٌ، وقرأتُ كتابانًا كبيرانًا، وأقرأ الآن فى كتابانٍ صعبانٍ". أقول هذا حتى يتبين للقارئ مدى التغشمر فى الاندفاع نحو تخطئة الشعراء القدماء الكبار. فما بالنا إذا كان المخطِّئ مستشرقا؟

وفى هـاتين اللغتين يقـول عبـاس حسن فى "النحـو الـوافى" إن "إعـراب المثنـى وملحقاتـه بـالحروف هـو أشـهر المـذاهب وأقواهـا... ويجـب الاقتـصار عليـه فى عصرنا منعًا للفوضى والاضطراب فى الاستعمال الكلامى والكتابى، وأما اللغات الأخـرى فـلا يـسوغ اسـتعمالها اليـوم، وإنـما تُـذْكَر للمتخصـصين ليـسترشدوا بهـا فى فهم بعض النصوص اللغوية الواردة عن العرب بتلك اللغات واللهجات. ومن أشهرها: (١) إلزام المثنى وملحقاتِه (غير "كلا وكلتا") الألفَ فى جميع أحواله مع إعرابـه بحركـات مقـدرة عليهـا. تقـول: "عنـدى كتابـانِ نافعـانِ، اشـتريت كتابـانِ نافعانِ، قرأت فى كتابانِ نافعانِ"، فيكون المثنى مرفوعًا بضمة مقدرة على الألف، ومنصوبًا بفتحة مقدرة عليها، ومجرورًا بكسرة مقدرة كذلك. فهو يعرب إعراب المقصور، والنون للتثنية فى كل الحالات. (٢) إلزام المثنى الألف والنون فى جميع أحوالـه مـع إعرابـه بحركـات ظـاهرة عـلى النـون كأنـه اسـم مفـرد. تقـول: "عنـدى

كتابـانٌ نافعـانٌ، واشـتريت كتابانًـا نافعانًـا، وقـرأت فى كتابـانٍ نافعـانٍ". ويحـذف التنوين إذا وجد ما يقضى ذلك كوجود "أل" فى أول المثنى أو إضافته، وكذلك لمنع الصرف إذا وجد مانع من الصرف... فيرفع معه بالضمة من غير تنوين، وينصب ويجر بالفتحة من غير تنوين أيضًا".

ولأبى نواس أيضا، كما أشرنا آنفا، هجاء مقذع مفحش لا يتورع فيه عن أى شيء، فنراه يذكر العورات والسوءات ويصوّب لسانه الزفر إلى أعراض الأمهات والزوجات والبنات غير محترم شيئا ولا معنى ولا قيمة. والعجيب أن يزعم أنه قد زنى بأم فلان أو علان أو ترتان ممن يهجوهم رغم ما نعرفه من انحرافه فى هذا المجال. ومع هذا نرى فحشه هنا قد انحط إلى أحط الدركات واتسم بالعنف والقوة. وهذا من أعجب العجب! وله فى أهاجيه التى من هذا النوع خيال نشيط وعجيب رغم ما يسودها من قلة الأدب البشعة. ولا أريد أن أُغَثِّىَ القراءَ بالاستشهاد بشعره على ما أقول. والملاحظ أن المستشرق لم يتحرج من إيراد بعض النصوص التى من هذا القبيل، لكن فى نطاق محدود. كذلك هجا أبو نواس، ضمن من هجاهم، بعض المغنيات والقيان والنساء اللاتى كانت له بهن علاقة ثم فسدت، فتعرض لهن فى تصوير شنيع كقوله فى قيان موسى:

إذا ما كُنْتَ عندَ قِيانِ موسى ... فَعِنْدَ اللهِ فَاحْتَسِبِ السرورا

خَنافِسُ خَلْفَ عيدانٍ قُعُودٌ ... يطَوِّلُ قُرْبُها اليوْمَ القصيرا

إذا غَنَّينَ صَوْتًا كان مَوْتًا ... وَهِجْنَ بِهِ عَلَيكَ الزَّمْهَرِيرا

وقوله فى امرأة كان يحبها ثم ضاق بها فانقلب عليها هاجيا:

أَكْثِرى أَو فَأَقِلِّى ... قَد مَلِلْناكِ فَمَلِّى

مـا إِلى حُبِّـكِ عَـوْدٌ   مـا دَعَـا اللهَ مُـصَلِّى

قَـد وهبنـاكِ لَعَمْـرِى   وَتَـصَدَّقنا بِحِمْـلِ

لَم يكُـن مِثلُـكِ، لَـولا   سَـفَهُ الـرَأى، هَـوًى لى

أَيهـا الـسائِلُ عنهـا   اسْـمَعِ اللَفـظَ المُحَـلّى

شَخـصُها شَـخصٌ قَـبيحٌ   وَلَهَـا وَجْـهٌ مُـوَلّى

وَخَفَـتْ عَـن كُـلِّ عَينٍ   وَخَفَـتْ عَـن كُـلِّ دَلِّ

وَلَهَـا ثَغْـرٌ كَـأَنَّ الـ   ـلهَ غَـشّاهُ بِكُحْـلِ

تَـصِفُ النكهـةُ منهـا   جِيفَـةً فى يـومِ طَـلِّ

وَتُفَـلّى حينَ تَلقـا   كَ لِتَحْظَـى بِـالتَفَلّى

رِدْفُهـا طَـسْتٌ، وَلَكِـنْ   بَطنُهـا زُكْـرَةُ خَـلِّ

اشْـهَدوا أَنّـى بَـرِىءٌ   مِـنْ هَوَاهـا مُـتَخَلّى

وقوله فى أخرى تظهر النسك، لكنها فى الخفاء خالعة للعِذَار:

وَمُظهِـرَةٍ لِخَلْـقِ اللهِ نُـسْكًا   وتلقـانى بِـدَلٍّ وَابتِـسامِ

أَتَيـتُ فُؤادَهـا أَشـكو إِلَيـهِ   فَلَـم أَخْلُـصْ إِلَيـهِ مِـنَ الزِّحَـامِ

فيـا مَـنْ لَيـسَ يكْفِيهـا خَليـلٌ   وَلا أَلْفَـا خَليـلٍ كُـلَّ عـامِ

أَظُنُّـكِ مِـن بَقِيـةِ قَـوْمِ موسـى   فهـم لا يـصْبِرونَ عـلى طَعـامِ

وقوله فى امرأةٍ اسمُها بنان:

وَجْـهُ بَنَـانٍ كَأَنَّـهُ قَمَـرٌ   يلُـوحُ فى لَيلَـةِ الـثلاثينِ

وَالخُلْــقُ، مِــن حُـسْنِهِ وَبَهْجَتِــهِ، كَطَاقَــةِ الـشوكِ فى الريـــاحينِ

يبـــدرُ مِـــنْ ســجف جيبهــا نَـسَمٌ فى الطِّيــبِ يحْكــى مَبــاوِلَ الـعِينِ

وَالفَــمُ، مِــن ضــيقِهِ إذا ابتَــسَمَت، كَأَنَّــــهُ قَــصْعَةُ المـــساكينِ

لهـــا ثَنَايـــا تَحْكِـــى ببَهْجَتِهـــا وَحُـــسْنِها أَلْـــسُنَ المـــوازينِ

وَحَـــسْبُكَ الحُـــسْنُ فى ضَـــفائِرِها مِثـــلُ الـــشماريخِ فى العـــراجينِ

وَالجِيـــدُ زَيـــنٌ لِمَـــن تَأَمَّلَـــهُ أَشْـــبَهُ شَــىءٍ بِجِيـــدِ تِـــنّينِ

وَمَنْكِبَاهـــا فى حُـــسْنِ خَلْقِهِـــما فى مِثـــلِ رُمّـــانَتَينِ مِـــنْ طينِ

وَالـــبَطْنُ طـــاوٍ تَحْكِـــى لَطافَتُـــهُ مـــا ضَـــمَّنوهُ كُتْـــبَ الـــدواوينِ

والـــساقُ بَرّاقَـــةٌ خَلاخِلُهـــا كَأَنَّهـــا مِحْـــرَكُ الأَتـــاتينِ

تَفـــتِنُ مَـــنْ رامَهـــا بِلَحْظَتِهـــا كَأَنَّهـــا لحظـــةُ المجـــانينِ

وَأَحـــسَنُ النـــاسِ مَحْجِـــرًا أَنِفًـــا أَشـــبَهُ شَـــىءٍ بِمَحْجِـــرِ النـــونِ

وَأَقـــرَبُ النـــاسِ فى الخُطَـــى خَفَـــرًا خُطْوَتُهـــا مِـــن سَـــبَا إِلى الـــصينِ

وُلِـــدْتِ مِـــن أُسْرَةٍ مُبارَكَـــةٍ لا عَيــبَ فيهِــم مِـــنَ الـــشَياطينِ

ولا يتوقف هجو أبى نواس على البشر بل يتعداهم إلى الأحداث والمعانى والأزمان. فمن ذلك مثلا هجوه شهر رمضان:

إذا مـــضى مـــن رَمَـــضانَ النِّـــصْفُ

تَـــشَوَّقَ القَـــصْفُ لنـــا وَالعَـــزْفُ

وَأُصْـــلِحَ النـــاى وَرُمَّ الـــدفُّ

وَاخْتَلَفَــــــتْ بَينَ الزُّنـــــاةِ الـــــصُّحْفُ

لِوَعْـــــدِ يـــــومٍ ليـــــس فيــــهِ خُلْـــفُ

حَتّـــــى إِذا مــــا اجتمعــــوا وَاصْـــطَفّوا

تَكَـــــشَّفُوا وَاعتَنَقُـــــوا وَالتَفّـــــوا

فَبَعْـــــضُهُم أَرضٌ، وَبَعْـــــضٌ سَـــــقْفُ

ومنه هجاؤه الحرب والقتال وتفضيله مجالس الخمر عليها:

إِذا عَبَّـــــا أبـــــو الهَيجـــــا ءِ لِلهَيجـــــاءِ فُرْســـــانا

وَســـــارَت رايـــــةُ المَـــــوْتِ أمـــــامَ الـــــشيخِ إِعلانـــــا

وَشَـــــبَّت حَرْبُهـــــا وَاشْتَـــــ ـــــعَلَتْ تُلهِـــــبُ نيرانـــــا

وَأَبْـــــدَتْ لَوْعَـــــةَ الوَقْـــــ ـــــعَةِ أَضراسًـــــا وأســـــنانا

جَعَلنـــــا القَـــــوْسَ أَيـــــدينا وَنَبْـــــلَ القَـــــوْسِ سَوْســـــانا

وَقَـــــدَّمنا مَكـــــانَ النَّبْـــــ ـــــلِ وَالمِطْـــــرَدِ رَيحانـــــا

فَعـــــادَت حَرْبُنـــــا أُنـــــسًا وَعُـــــدْنا نَحـــــنُ خُلّانـــــا

بِفِتْيـــــانٍ يـــــرَوْنَ القَتـــــ ـــــلَ فى اللـــــذةِ قُرْبانـــــا

إِذا مـــــا ضَرَبُـــــوا الطَّبْـــــلَ ضَرَبْنـــــا نحـــــن عيـــــدانا

وَأَنـــــشَأنا كَرادِيـــــسًا مِـــــنَ الخِيرِى أَلوانـــــا

وَأَحجـــــارُ المَجـــــانيقِ لَنـــــا تُفّـــــاحُ لُبْنانـــــا

وَمَنْـــــشَا حَرْبِنـــــا ســـــاقٍ سَـــــبَا خَمْـــــرًا فَـــــسَقّانا

يحُثُّ الكَأسَ كَى تَلحَـ ـقَ أُخْرانا بِأُولانا

تَرَى هَذاكَ مَصْروعًا وَذا ينْجَرُّ سَكْرانا

فَهَذِى الحَربُ لا حَربٌ تَغُمُّ الناسَ عُدوانا

بِها نَقْتُلُهُم ثُمَّ بِها نَنْشُرُ قَتْلانا

* *

عُجْ بفتيانِ اصطباحِ لا بفتيانِ الصياحِ

نحو حرب ليس يخْشَى عندها كَلْمُ الجراحِ

إنّهم ثَمَّ بما يصلـ ـح فيها من سلاحِ

بأباريقَ وأكوا بٍ وريحانٍ وراحِ

وبيضٍ من زجاجِ الشا م لا بِيض الصِّفاحِ

وبسُمْرٍ من مُلاءِ الـ ـمشكِ لا سُمْر الرماحِ

ولأبى نواس مشاركة فى أشعار الطرد، وقد ترك وراءه عددا منها غير قليل. والملاحظ أنه يستفتح بعضها بعبارة "وقد أغتدى والليلُ/ والصبحُ..." أو ما يشبهها. وفى رأى فيليب كيندى أن شعر الطرد النواسى يساوى شعره الخمرى عددا وأن اهتمامه بالصيد يساوى اهتمامه بالخمر، وأنه لو لم يكن له سوى طردياته لظل يحتل فى تاريخ الشعر العربى مكانة هامة. كما رجح أن تكون معظم طردياته قد نُظِمت وهو فى بغداد أيام الأمين تصويرا لرحلات صيد اشترك فيها مع ذلك الخليفة (ص١٠٩). فأما أن للنواسى عددا من الطرديات ذا اعتبار فلا مراء فى ذلك، وأما أن شعر الطرد عنده يساوى شعر الخمر فى المقدار أو أن اهتمامه

بالصيد يساوى اهتمامه بالخمر فلا. لقد تحولت الخمر ومطاردة الغلمان لديه إلى غاية الحياة القصوى، أما الصيد فيقصر عنهما كثيرا جدا. نعم لا ريب كان يحب الصيد، لكن هذا الحب لم يبلغ أبدا نشوته بأم الخبائث والولع بالغلمان المساكين، خيبة الله عليه!

وتبقى دعوى المستشرق أن رحلات الصيد كانت فى مَعِية الأمين، وهو ما لا دليل عليه. وأتصور، مجرد تصور، أَنْ لو كان هذا صحيحا لذَكَرَ أبو نواس ذلك فى طردياته على نحو أو على آخر، على الأقل: على سبيل التعظم والتفاخر بصحبة الخليفة، وبخاصة أنه كان مقربا من ذلك الخليفة تقريبا شديدا يتيح له أن يذكر ذلك صراحة دون أى تحرج، إن كان فى الأمر ما يبعث أصلا على التحرج. وفوق ذلك نراه يقول فى طردياته عادة إنه قد خرج للصيد هو وجماعة من أصدقائه، وإن ذلك كان فى أيام الشباب والفتوة، مما يدل على أن المأمون ليس هو المقصود، فلا أحسب الشاعر يمكن أن يصف الخليفة بأنه أحد هؤلاء الأصدقاء، فضلا عن أنه لم يكن قد عرفه بعد وهو شاب.

وقد رأينا كيف بدأ بعض مدائحه بوصف رحلات الصيد، وكانت تلك فرصة مناسبة لذكر خروجه فى معية الخليفة، لكنه لم يفعل. فما دلالة ذلك؟ ثم إنه يشير عادة إلى كلب واحد، وفى بعض الأحيان ينص على أنه "كَلْبِى/ كلبُ النواسىِّ". ولو كانت رحلات صيد خليفية لكان هناك كلابٌ كُثْرٌ. بل إنه ليتحدث أحيانا عن طبخ الصيد الذى اصطيد، فنلحظ البساطة والشعبية اللتين لا توائمان النزهة الخليفية. وهذه شواهد على ما نقول:

أَنعَتُ كَلبًا لَقِنَ النُّحَاسِ

مَحْسورَ أَقطارِ شُؤونِ الراسِ

يــــــــدِيرُ فى وَقْـــــــبَيْنِ ذا حِمَـــــــــاسِ

طَمّاحَـــــــــتَينِ كَلَظَـــــــــى المِقْبـــــــــاسِ

مِثْـــــــلَ احْــــــوِرارِ الـــــــشَّادِنِ المَيـــــــاسِ

مُـــــــسَلَّكِ الخَلْـــــــقِ كَغُـــــــصْنِ الآسِ

نِعْـــــــمَ الخَليـــــــلُ وَالأَخُ المُوَاســـــــى

مِـــــــن غَيرِ مـــــــا بَيـــــعٍ وَلا مِكَـــــــاسِ

كَـــــم تَيـــــسِ رَمْـــــلٍ لاحَ فى الكِنَـــــاسِ

عَفَّـــــــرَهُ بِجـــــــانِبَى أَوْطـــــــاسِ

لَم يعْـــــــطَ إِلّا مِثْلَـــــــهُ النُّوَاســـــــى

لَم يعْـــــــطَ إِلّا مِثْلَـــــــهُ النُّواســـــــى

❋ ❋

يـــــا رُبَّ بَيـــــتٍ بِفـــــضاءٍ سَبْـــــسَبِ

بَعِيـــــدِ بَين الـــــسَّمْكِ وَالمُطَنَّـــــبِ

لِفِتْيَـــــةٍ قَـــــد بَكَّـــــروا بِأَكْلُـــــبِ

قَـــــد أَدَّبُوهـــــا أَحْـــــسَنَ التَّـــــأَدُّبِ

❋ ❋

يـــــا رُبَّ خَـــــرْقٍ نـــــازِحٍ حَـــــدِيبِ

أَخْـــــضَلَهُ الـــــسَّحابُ بِالـــــصَّبيبِ

غَزَوْتُـــــــــهُ بمُخْطَـــــــفٍ وَثُــــــوبِ

مُـــــــضَمَّرِ الكَـــــــشْحَينِ كَاليعْـــــــسُوبِ

* *

قَــــدْ أَغْتَــــدِى والليــــلُ فى إِهابِــــهِ

أَدْعَــــجُ مــــا جُــــرِّدَ مِــــن خِــــضابِهِ

مُــــدَثَّرٌ لَم يبْــــدُ مِــــن حِجَابِــــهِ

كَالحَبَــــشِى انْــــسَلَّ مِــــن ثِيابِــــهِ

بِهَيكَــــلٍ قُوبِــــلَ فى أَنــــسابِهِ

مُــــرَدَّدُ الأَعْــــوَجِ فى أَصــــلابِهِ

يهْدِيــــهِ مِثْــــلُ العَقْــــوِ فى انتِــــصابِهِ

وَكاهِــــلٍ وَعُنُــــقٍ يــــأبَى بِــــهِ

يــــصافِحُ اللّــــدانَ مِــــن أضرابِــــهِ

بِــــوَقِحٍ يقيــــهِ فى انــــسِيابِهِ

نَــــشا المَطاريــــدَ وَحَــــدَّ نابِــــهِ

حَتّــــى إِذا الــــصبحُ بَــــدا مِــــن بابِــــهِ

وَكَــــشَّرَت أَشْــــداقُهُ عَــــن نابِــــهِ

عَــــنَّ لَنــــا كَــــالرَّأْلِ لا نَــــرَى بِــــهِ

ذو حُــــوَّةٍ أُفــــرِدَ عَــــنْ أَصــــحابِهِ

يفْـــــرِى متـــــانَ الأرضِ مَـــــعْ سِـــــهَابِهِ

أَطاعَـــــــــهُ الحـــــــــوذانُ فى إِسرابِـــــــهِ

فَقَـــــــد رَمَـــــاهُ الـــــنَّحْضُ فى أَقرابِـــــهِ

وَالطَّـــــــرْفُ قَـــــــد زُمِّـــــــلَ فى ثِيابِـــــهِ

قائِـــــــدُهُ مِـــــــن أَرَنٍ يـــــــشْقَى بِـــــهِ

قُلنـــــا لَـــــهُ: عَـــــرٍّ مِـــــن أَسْـــــلابِهِ

فَـــــلَاحَ كَالحاجِـــــبِ مِـــــن سَـــــحَابِهِ

أَو كالـــــصنيعِ اسْـــــتُلَّ مِـــــن قرابِـــــهِ

فَـــــسَدَّدَ الطَّـــــرْفَ ومـــــا هَـــــاهَى بِـــــهِ

فانـــــــصاعَ كالأَجْـــــــدَلِ فى انـــــــصِبابِهِ

أَو كـــــــالحريقِ فى هَـــــــشِيمِ غابِـــــــهِ

مُلتَهِبًـــــــا يـــــــسْتَنُّ فى التِهَابِـــــــهِ

كَـــــأَنَّما البَيـــــداءُ مِـــــنْ نِهابِـــــهِ

✻ ✻

قَـــــد أَغتَـــــدى وَاللَيـــــلُ داجٍ عَـــــسكَرُهْ

وَالـــــصُبحُ يفْـــــرِى جُلَّـــــهُ وَيـــــدْحَرُهْ

كَاللهَـــــــبِ المُـــــــرتَجِّ طـــــــارَ شَرَرُه

بِـــــأَحْجَنِ الكَلّـــــوبِ أَقْنَـــــى مِنْـــــسَرُهْ

مُعـــــــاوِدُ الإِقْــــــدامِ حينَ تَـــــــذْمُرُه

أَحْـــــوَى الظهـــــارِ جَـــــسِدٌ مُعَـــــذَّرُهْ

كَـــــــأَنَّمَا زَعْفَــــــــرَهُ مُزَعْفِــــــــرُه

لا يوئِـــــلُ الأَبْغَـــــثَ مِنـــــهُ حَـــــذَرُهْ

حينًـــــا يـــــسَاهيهِ، وحينًـــــا يـــــدْجُرُه

يهْـــــوِى لَـــــهُ مَخالِبًـــــا تُـــــشَرْشِرُهْ

طَـــــورًا يفَرّيـــــهِ، وَطَـــــورًا ينْقُـــــرُه

والـــــــسربُ لا ينْفَعُـــــــهُ تَـــــــسَتُّرُهْ

مِـــــنَ الإِوَزِّ الخانِـــــساتِ تَقْفِـــــرُه

صَـــــكًّا إِذا جَـــــدَّ بِـــــهِ تَقَـــــدُّرُهْ

كما أن وصف الكلب فى القصيدة التالية يدل دلالة قوية جدا على أنه لا يمكن أن يكون كلبا من كلاب الخليفة بل كلب ناس ليست لهم سعة فى رزقهم:

أَنْعَـــــتُ كَلْبًـــــا أَهْلُـــــه فى كَـــــدِّهِ

قـــــد سَـــــعِدَتْ جُـــــدُودُهم بجَـــــدِّهِ

فكـــــلُّ خَيرٍ عنـــــدهم مـــــن عنـــــدِه

يظَـــــلُّ مَـــــوْلاهُ لـــــه كعَبْـــــدِهِ

يبِيـــــتُ أَدْنَـــــى صـــــاحِبٍ مـــــن مَهْـــــدِهِ

وإِنْ غَـــــدَا جَلَّلَـــــه بـــــبُرْدِهِ

ذَا غُـــــــــرَّةٍ مُحَجَّـــــــــلاً بزَنْـــــــــدِهِ

تَلَـــــذُّ منـــــه الـــــعَينُ حُـــــسْنَ قَـــــدِّهِ

تـــــأْخِيرَ شِـــــدْقَيه وطُـــــولَ خَـــــدِّه

تَلقَـــــى الظِّبـــــاءُ عَنَتًـــــا مـــــن طَـــــرْدِهِ

يـــــشرَب كأْسًـــــا شَـــــدُّها فى شَـــــدِّهِ

يـــــا لَـــــكَ مـــــن كَلْـــــبٍ نَـــــسِيجِ وَحْـــــدِهِ

ومن بين ما قاله كيندى عن طرديات أبى نواس أنها قد بلغت الغاية فى ذلك المجال. إلا أنى لا أشاطره ذلك الرأى، إذ ظلت الطردية تجد من الشعراء الكبار من يقبل عليها ويهتم بها وينظم فيها ويبدع قصائدها كما فى حالة ابن المعتز الشاعر والناقد والخليفة العباسى، والملك العمانى سليمان بن سليمان النبهانى من أهل القرن التاسع والعاشر الهجريين مثلا. ومن طرديات الأخير هذا النص البديع الذى يقول فيه:

ولقـــد غَـــدَوْتُ مُـــسوِّمًا شـــوذانقًا بجبـــال آيهـــة بـــه ومراحـــا

شـــهما أحَـــدَّ القلـــبِ أشـــهبَ ضـــاريا غَرْثـــان ينْتَـــشِط الكُـــلَى جَرّاحـــا

يعـــد المطـــارحَ أحْجُنًـــا عِرْنِينُـــه سَـــلِب المنـــاسر يقـــبض الأرواحـــا

يرمـــى الفِجـــاجَ بمقلتـــى متفَقِّـــدٍ ســـاطٍ أضـــاعَ فلـــم يـــزل مُلتاحـــا

قـــد حُـــرِّمَ اللـــبنَ الحليـــبَ، وقـــد غَـــدَا أبـــدا عليـــه دَمُ القَـــنِيصِ مُبَاحـــا

فـــترى الغَطَـــاطَ لـــدى الغُطَـــاطِ مخافـــةً ينجُـــونَ منـــه، ولم يجِـــدنَ بَرَاحـــا

عِفْـــنَ الوُكُـــور لكـــى تنـــالَ بـــسُدْفةٍ رزقًـــا، فأصـــبح رزقُهـــنّ ذباحـــا

فأصـــــابَ ثَـــمَّ ثمانيــــا وثمانيــــا وثمانيــــا أُثْخِـــنّ منــــه جِراحـــــا

فمُوَشَّـــقٌ مـــن صـــيدِه ومُـــضَهَّبٌ ومقـــدَّرٌ نـــشلُ العَـــبيطِ شـــياحا

ومـــضى كأشـــهمِ مـــا يكـــونُ مظفَّـــرًا ندِسًـــا يرُوقُـــك نخـــوةً وِطَماحـــا

وقد أورد المستشرق ترجمة لبعض طرديات أبى نواس. وهذه هى الطردية الأولى، وتجد ترجمتها ص١١٢ – ١١٣ :

لَمَّـــــا تَبَـــدَّى الـــــصبحُ مِـــــن حِجابِـــــهِ

كَطَلْعَـــــــةِ الأَشْـــــمَطِ مِـــــن جِلْبَابِـــــهِ

وَانْعَـــــــــدَلَ الليـــــــــلُ إِلى مَآبِـــــــــهِ

كَالحَبَـــــشِى افْـــــترَّ عَـــــن أَنْيابِـــــهِ

هِجْنـــــا بِكَلْـــــبٍ طالَمَـــــا هِجْنـــــا بِـــــهِ

ينْتَـــــسِفُ المِقْـــــوَدَ مِـــــن كَلّابِـــــهِ

مِـــــنْ صَرَخٍ يغْلُـــــو إِذا اغْلَـــــوْلَى بِـــــهِ

وَمَيعَـــــةٍ تَغْلِـــــبُ مِـــــنْ شَـــــبَابِهِ

كَـــــأَنَّ مَتْنَيـــــهِ لَـــــدَى انْـــــسِلابِهِ

مَتْنَـــــا شُـــــجَاعٍ لَـــــجَّ فى انْـــــسِيابِهِ

كَـــــأَنَّما الأُظْفـــــورُ فى قِنابِـــــهِ

مُوسَـــــى صَـــــنَاعٍ رُدَّ فى نِـــــصابِهِ

تَـــــراهُ فى الحُـــــضْرِ إذا هـــــاهَى بِـــــهِ

يكـــــادُ أَن يخـــــرُجَ مِـــــن إِهابِـــــهِ

شَـــدًّا بِـــبَطْنِ القـــاعِ مَـــنْ أَلْهَـــى بِـــهِ

يـــــترُكُ وَجْـــــهَ الأَرْضِ فى إِهابِـــــهِ

كَـــــأَنَّ نَـــــشْوانَ تَوَكَّلْنـــــا بِـــــهِ

يعْفُـــو عـــلى مـــا جَـــرَّ مِـــن ثِيابِـــهِ

إِلّا الَّـــــذى أَثَّـــــرَ مِـــــن هُدّابِـــــهِ

تَـــرَى سَـــوَامَ الـــوَحشِ تُحْتَـــوَى بِـــهِ

يعْـــــتَلْن أَسْرَى ظُفْـــــرِه ونابِـــــهِ

وقد لاحظت مثلا أنه ترجم قول الشاعر:

كَـــــأَنَّ مَتْنَيـــــهِ لَـــــدَى انْـــــسِلابِهِ

مَتْنَـــــا شُـــــجَاعٍ لَـــــجَّ فى انْـــــسِيابِهِ

بما يعنى أن الخطين المرسومين على ظهر الكلب يشبهان ثعبانين مع أنه لا خطين هناك ولا يحزنون. والصواب هو أن النواسى يشبِّه جانبى ظهر الكلب بجانبى الثعبان، وذلك من الوضوح بمكان. كما ترجم "صَنَاع" بما يقابل "الحجّام" رغم أن المقصود الرجل الحاذق الماهر فى العمل بيديه لا الحجام. ولست أدرى كيف فهم هذا المعنى من الكلمة.

وهذه طردية أخرى، لكن الحيوان الصائد هذه المرة فهد لا كلب:

قَـــدْ أَغْتَـــدى والليـــلُ أَحـــوى الـــسُّدِّ

والـــــصبحُ فى الظلـــــماءِ ذو تَقَـــــدِّى

مِثـــــلُ اهتِـــــزازِ العَـــــضْبِ ذى الفِرنْــــــدِ

بِـــــــأَهْرَتِ الـــــــشِّدْقَينِ مُرْمَئِـــــــدِّ

أَزْبَـــــــرَ مَـــــــضْبورِ القَـــــرَا عِلْكَـــــدِّ

طـــــاوى الحَـــــشَا فى طَـــــى جِـــــسْمٍ مَعْـــــدِ

كَـــــرِهِ الـــــرِّوا جَـــــمٍّ غُـــــضونِ الخَـــــدِّ

دُلامِـــــــزٍ ذى نَكَـــــــفٍ مُـــــــسْوَدِّ

شَرَنْبَـــــــثٍ أَغْلَـــــــبَ مُـــــــصْمَعِدِّ

كَاللَّيـــــــثِ إِلّا نُمْـــــــرَةً بِالجِلْـــــــدِ

لِلـــــــشَّبَحِ الحائِـــــــلِ مُـــــــسْتَعِدِّ

عـــــــاينَ بَعْـــــــدَ النَّظَـــــــرِ المُمْتَـــــــدِّ

سِرْبَينِ عَنَّـــــــا بِجَـــــــبِينٍ صَـــــــلْدِ

فَـــــــانْقَضَّ يـــــــأْدُو غيرَ مُجْرَهِـــــــدِّ

فى لَهَـــــــبٍ عَنْـــــــهُ وَخَتْـــــــلٍ إِدِّ

مِثـــــلَ انْـــــسِيابِ الحَيـــــةِ العِرْبَـــــدِّ

بِكُـــــلِّ نَـــــشْزٍ وَبِكُـــــلِّ وَهْـــــدِ

حَتّـــــى إذا كـــــانَ كَهَـــــافى القَـــــصْدِ

صَعْـــــصَعَها بِالصَّحْـــــصَحانِ الجُـــــرْدِ

وَعـــــاثَ فيهـــــا بِفَريـــــغِ الـــــشَّدِّ

بَعْـــــــدَ شَرِيجَـــــــى طَمَـــــــعٍ وَحَـــــــرْدِ

لا خَيرَ فى الــــــــصيدِ بِــــــــغَيرِ فَهْــــــــدِ

وقد أدى المترجم قول الشاعر: "والليلُ أَحوى السُّدِّ" بأن ذلك كان فى الفجر مع أن النص لا يذكر الفجر. كما ترجم "الظلماء" بالظلال، وهو ما يبتعد قليلا عن المعنى المراد. لكن لا بد من الإقرار بالجهد المبذول فى ترجمة مثل ذلك النص المفعم بحُوشِيّ الألفاظ مما يجد العربى الأصيل فى فهمه عنتا شديدا ولا يمكنه معرفة معناه إلا بالرجوع إلى المعاجم القديمة المبسوطة. وهذه ترجمة القصيدة، ويجدها القارئ ص١١٤- ١١٥:

I would set off at dawn,(– when the night was [still dark]
Like a cloud blocking sight
Yet morning made headway upon the shadows,
Slicing through the dimness like a sword finely wrought –)
With a beast, broad jawed, swift and energetic,
Stout in frame, with a strapping back and heavy set
Yet taut, lean, and tapering in at the waist
Vicious to look at! Ample folds on bright cheeks
Black at the base of the ears and the root of the jaws
Broad-muzzled like a Bactrian camel over a rosy collar
With large paws and razor-sharp claws
Like a lion yet with stippled coat
Ready to pounce on any moving figure
* *
After an extensive look around he spotted
Two herds of gazelle appearing on a hard flatland
So he set off to stalk them at a furtive pace;
He crept along, sneaking up unawares,
Gliding forward like a male viper
Over raised and hollow terrain,
Then when poised before the quarry
He scattered them upon the even ground
Wreaking carnage with lacerating tears.
* *

After a period of want and economy
There is no benefit from a hunt without a cheetah.

ومما أورد المؤلف ترجمَته أيضا من طرديات أبى نواس الرثائيةُ التاليةُ التى بكى فيها كلبا له لدغته حية، فمات من سُمّها:

يـــا بُـــؤْسَ كَلْبِـــى سَـــيدِ الكِـــلابِ

قَـــد كـــانَ أَغْنَـــانى عَـــنِ العُقـــابِ

وَكـــانَ قَـــد أَجْـــزَى عَـــنِ القَـــصّابِ

وَعَـــن شِرائـــى جَلَـــبَ الجَـــلّابِ

بين الظِّبـــاءِ العُفْـــرِ والكـــلاب

وَكُـــلِّ شِـــصٍّ طـــالِعٍ وَثّـــابِ

يَخْتَطِـــفُ القُطّـــانَ فى الرَّوابـــى

كَـــالبَرْقِ بَينَ الـــنَّجْمِ والـــسحابِ

كـــم مِـــن غَـــزالٍ لاحِـــقِ الأَقْـــرابِ

ذى جَيئَـــةٍ صَـــعْبٍ وَذى ذَهَـــابِ

أَشْـــبَعَنى مِنـــهُ مِـــنَ الكبـــابِ

خَرَجْـــتُ والـــدنيا إِلى تَبَـــابِ

بِـــهِ، وَكـــانَ عُـــدَّتى ونـــابى

أَصْـــفَرُ قَـــد ضُرِّجَ بِـــالمُلّابِ

كَـــأَنَّما يـــدْهَنُ بِالزِّرْيـــابِ

فَبَيـــــــنَما نَحْـــــــنُ بِـــــــهِ فى الغـــــــابِ

إِذْ بَـــــــــرَزَت كالحَـــــــــةُ الأَنْيـــــــــابِ

رقـــــــشاءُ جـــــــرداءُ مِـــــــنَ الثيـــــــابِ

كَـــــــأَنَّما تُبْـــــــصِرُ مِـــــــن نِقـــــــابِ

فَعَلَّقَـــــــــتْ عُرْقوبَـــــــــهُ بِنَـــــــــابِ

لَم تَـــــــــرَ لى حَقًّـــــــــا وَلَمْ تُحَـــــــــابِ

لا أُبْـــــــتُ إِنْ أُبْـــــــتِ بِـــــــلا عِقـــــــابِ

حَتّـــــــى تَـــــــذُوقِى أَوْجَـــــــعَ العَـــــــذَابِ

ويجد القارئ ترجمتها ص١١٦ من الكتاب. وها هى ذى:

Poor dog! – He was a lord among hounds!
He fulfilled my need of a falcon,
Took the place of butcher
And stockpiling quartermaster.
Among the throngs of ruddy white gazelles, dogs
And every rampant catcher,
He snatched hill-dwelling fauna
Quick as a lightning flash glimpsed mid star and cloud.
How many a lean-flanked gazelle
Who came and went defiantly
Did he provide me with for grilled meat?
I set out with him when the world rested,
My teeth and utensils still
Yellow-stained from the saffron cooking of a previous catch,
As if greased lightly with liquid gold.
There we were, in the thicket,
When, lo, a serpent appeared baring its fangs,
Striped and naked of all covering,
And staring through its facial mask.

It dug its fangs into my poor hound's hocks
And showed no partiality for me –
O would I had not returned without punishment
... Not before you had tasted the most painful

وأحسب أن عبارة: "a lord among hounds" لا تعبر بقوة عما يريد أبو نواس، الذى يقول إن كلبه كان "سيد الكلاب" بما يفيد أنه سيد الكلاب جميعا، بينما تقول العبارة الإنجليزية إنه كان "سيدا" بين الكلاب، وهو ما قد يعنى أنه كان مجرد سيد واحد، والسيد الواحد يكون بجانبه أسياد آخرون. أما قول الشاعر عن الكلب:

خَرَجْـــــــتُ والـــــــدنيا إلى تَبَـــــابِ

بِـــــهِ، وَكـــــانَ عُـــــدَّتى ونـــــابى

أَصْــــــفَرُ قَـــــــد ضُرِّجَ بِـــــالمُلّابِ

كَـــــأَنَّما يـــــــدْهَنُ بِالزِّرْيـــــابِ

وهو ما يعنى أن الكلب كان عدته ونابه وأنه كان أصفر اللون، فقد تحول إلى أن أسنان الشاعر وأوانيه لا تزال صُفْرًا من طبيخ الزعفران فى صيد سابق. ونأتى إلى دعاء أبى نواس على نفسه بعدم العودة سالما إن لم يعاقب الحية على ما جنت يداها أشد عقاب:

لا أُبْـــــتُ إِنْ أُبْـــــتِ بِـــــلا عِقـــــابِ

حَتّـــــى تَـــــذُوقِى أَوْجَـــــعَ العَـــــذَابِ

وقد حولته الترجمة من دعاء إلى تمنٍّ، إذ صار المعنى: "يا ليتنى لم أعد دون أن تذوقى أقسى العقاب".

وفى الصفحتين التاليتين بعد ذلك يتناول المؤلف قصيدة فى لعب كرة الصولجان يصف فيها صاحبها المباراة وصفا حيا منذ البداية حتى النهاية، وكانت وقفة المؤلف أمامها طويلة نسبيا رغم أنها قصيدة مختلَف حول نسبتها، إذ أضاف الصولى، وهو يقدم لها بوصفها من القصائد المعزُوّة لأبى نواس، عبارة "إن كان قد قال (أى هذه القصيدة)"، فأثار الشك فيها منذ البداية. وإنى إلى نفيها عن أبى نواس أَمْيل لأكثر من سبب: ففضلا عن شك الصولى فى تلك النسبة، وكان قريبا من عصر أبى نواس ويهتم به وبشعره اهتماما شديدا، نلاحظ أنها هى القصيدة الوحيدة حول هذا الموضوع فى ديوانه الذى جمعه هذا العالم. وثانيا فإن أبا نواس لم يكن يوما من المغرمين بتلك الرياضة فيما نعرف: فلا هو ذكر هذا فى شعره أو فى الأقوال المنسوبة إليه ولا قاله أحد ممن كتبوا أو تحدثوا عنه. لقد كان الرجل مغرما فى المقام الأول بالخمر والغلمان، وبعد ذلك بالصيد، ثم لا شىء آخر. فكيف نصدق أنه كان يلعب تلك الكرة؟ وثالثا تقول الرواية إنه كان مع العباس بن موسى الهادى فى رحلة من الرحلات بعيساباذ، ففوجئوا بجماعة تستعد للعب كرة الصولجان، وهنا انبرى أبو نواس وعرض الاشتراك معهم ثم انضم إلى أحد الفريقين، وكسب المباراة: هكذا رغم أنه لم يعْرَف عنه ممارسة لتلك الرياضة ولا استعد لها بتدريب أو إحماء، بل بادر من فوره وانخرط فى اللعب وفاز. ورابعا لو كان أبو نواس هو قائل ذلك الشعر بعد أن انتصر وأكل وشرب عقب المباراة لقد كان حريا أن يتغنى مفاخرا بانتصاره ومتلذذا بالحديث عما تمتع به معهم من طعام وشراب جريا على عادته فى المناسبات الشبيهة.

ليس ذلك فقط، بل إن ناظم القصيدة ينظر إلى المباراة، فيما يبدو، من مقعد النظارة خارجها، وليس من داخلها باعتباره لاعبا من اللاعبين، إذ يستخدم فى

وصف أحداث اللعب ضمير الغائب، ولم يحدث البتة أن أشار إلى نفسه بوصفه أحد المشاركين فيها اللّهم إلا في الشطر الأول من القصيدة حين قال: "قد أشهد اللهو..." مما قد يكون معناه أنه شهد المباراة من مقاعد النظارة لا أنه شارك اللاعبين، وهو المعنى الذى نقله المترجم إلى الإنجليزية: " And I might watch the pleasures of bright young men".

أنقول إذن إن أبا نواس هو ناظم القصيدة، لكنه لم يشترك فى اللعب؟ لكن هل كان ليفلت تلك السانحة من يده فلا يمدح العباس بن موسى الهادى ويجعل وصف المباراة مدخلا لذاك المديح كعادته فى مثل تلك الظروف؟ كما أن روح أبى نواس فى لغته ومزاجه تختلف عن روح تلك القصيدة، وإلا فأين فكاهته وتلقائيته وحرصه على أن يجعل من نفسه محور شعره مثلا؟ وأين غريب طردياته، التى يمكن إلحاق تلك القصيدة بها، إذ فيها مطاردة أيضا، وإن كان موضوع المطاردة كرة، وعَقَبَها لهو وقصف كما يقصف الصيادون ويلهون بعد انتهائهم من صيدهم؟ كذلك لا أذكر أنى رأيت فى شعر أبى نواس الألفاظ أو العبارات التالية: "أَشْهَد اللهو، فتيانٌ غُرَر، وَلَدُ العباس، هذاك وهذاك، البَيطار، الشَّابِر، صَفْق المتن، نَعَرَ، عَطْعَطَ، كذلك، الخَطَر (أى الرهان. وقد ترجمها المستشرق بـ"danger"، وهو ما بدا الكلام معه مضحكا، إذ كيف يغلق الإنسان الخطر؟ أما "غَلِقَ الرهنُ" فمعناه أن مرتهنه قد استحقه)".

ثم إن القصيدة غائبة عن ديوان أبى نواس المنتشر بين أيدى الدارسين، وهو غير الديوان الذى جمعه الصولى وأورد فيه أشعارا قال إنه غير مطمئن لنسبتها إلى النواسى، علاوة على أنه استعمل فى تقديم القصيدة المذكورة عبارة تشكيكية كما وضحنا. ومع هذا فقد نسبها ابن الأثير إلى أبى نواس، أما غيره ممن رجعت إليهم

فقد اكتفى عند استشهاده ببعض أبياتها بقوله: "وقال آخر: ..." أو "وقال بعضهم: ..." مثلا. لكن المشكلة، فى حدود علمى، تكمن فى أن القصيدة لم تنسب إلى غير أبى نواس فى المراجع التى نقبتُ فيها، وهى ليست بالقليلة. وعلى أية حال هذه هى القصيدة، ويجد القارئ ترجمتها ص١١٨ – ١١٩:

قـــــد أشـــــهد اللهـــــو بفتيـــــانٍ غُـــــرَرْ

مِـــــنْ ولـــــد العبـــــاس ســـــادات البـــــشرْ

ومـــــن بنـــــى قحطـــــانَ والحـــــىِّ مُـــــضَرْ

مـــــن كـــــل مـــــألوفٍ كـــــريم المُعْتَـــــصَرْ

زيـــــن حُـــــسْنَ وجهـــــه طِيـــــبُ الخـــــبَرْ

عـــــلى جيـــــادٍ كتماثيـــــل الـــــصُّوَرْ

مـــــن كـــــل طِـــــرْفٍ أَعْـــــوَجِىٍّ قـــــد ضَـــــمَرْ

لم يكْـــــوِه البيطـــــار مـــــن داء الحَمَـــــرْ

جِـــــنٌّ عـــــلى جِـــــنٍّ، وإن كـــــانوا بـــــشرْ

كـــــأنما خِيطُـــــوا عليهـــــا بـــــالإبَرْ

أو سُـــــمِّر الفـــــارسُ فيهـــــا فانْـــــسَمَرْ

بين ريـــــاضٍ مثـــــل مَوْشِـــــىِّ الحِـــــبَرْ

مكلَّـــــلاتٍ ببهـــــاءٍ وزَهَـــــرْ

فَـــــضَّلَه حِـــــذْقٌ وضَـــــرْبٌ مـــــشتهَـــــرْ

ولم يجُـــــرْ فيهـــــم ولا الـــــعين فَـــــتَرْ

واســــــتقدم القـــــومَ رئيـــــسٌ ذو خَطَــــــرْ

بكُــــــرَةٍ دحــــــا بهــــــا ثــــــم زَجَــــرْ

فانحـــــــــدرتْ كـــــــالنجم وَلَّى فانكــــــــدرْ

رَفْعًــــــا ووَضْـــــــعًا أيـــــما ذاك اســــــتقرّْ

تُــــــدْفَع بالـــــضرب إذا الـــــضرب اســــــتمرّْ

تـــــــدافُعَ النَّبْــــــل بإزعــــــاج الـــــــوَتَرْ

فكــــــم تـــــرى فيهـــــم حليـــــمًا ذا وَقَــــرْ

إذا أجــــــاد الـــــــضربَ فَـــــدَّى ونَعَــــــرْ

وعطعــــط المــــرءُ الـــــذى يرجــــو الظَّفَـــرْ

واكتأبــــتْ نفـــسُ الـــــذى خــــاف الـــغِيَرْ

وأيقنـــــوا أنْ قـــــــد علاهــــــم وقَهَــــــرْ

حتــــى يفـــــوز بالرِّهــــــان مَـــــنْ قَمَـــــرْ

يـــــــسَاءُ هــــــذاك، وهــــــذاك يــــــسَرّْ

كـــــذلك الـــــدهرُ وتـــــصريفُ القَــــدَرْ

الحكم على أبى نواس وشعره:

وبعـد فكيـف الـسبيل إلى الحكـم عـلى أبـى نـواس؟ إن هنـاك مـن وصـفه بالعبقرية والعظمة، وهناك من نزل به إلى الحضيض. فأين مكانته الحقيقية؟ ترى هل هو شاعر عبقرى؟ أم هل هو شاعر عادى لا قيمة له؟ لقد عده المستشرق

فيليب كيندى شاعرا عبقريا، بل لقد نص على هذا صراحة فى عنوان الكتاب كما هو واضح. وألفينا د. طه حسين أيضا يصفه (فى مقال له بـ"الأهرام" فى ٣٠ مايو ١٩٥٣م بعنوان "أبو نواس أيضا") بـ"هذا الشاعر العظيم". وبالمثل وصفه عبد الرحمن صدقى فى كتابه عنه بأنه شاعر عظيم. كذلك فمنزلة أبى نواس فى نظر عبد الحليم عباس منزلة رفيعة بلغها بحق وعن جدارة بهذا الشعر الذى تركه لنا، ولا تضير الركاكةُ القليلةُ التى لا يخلو منها نظمه تلك الثروةَ الشعريةَ الضخمةَ التى هى من مفاخر الشعر العربى. وغريب من ناقد كالدكتور طه حسين أو كالأستاذ عبد الرحمن صدقى أن يصف النواسى بـ"هذا الشاعر العظيم". ترى أين العظمة فيه أو فى شعره أو فى سلوكه وأخلاقه وذوقه وآرائه ومواقفه؟ لقد كان يمكن كلا منهما أن يمدح سلاسة لغته وانسيابية شعره، لكن أن يقول إنه شاعر عظيم فهذا ما لا أفهمه ولا يمكن أن أفهمه آخر الدهر.

وهناك من لا يرى فى أبى نواس عظمة ولا عبقرية كإبراهيم المازنى، الذى عرض بجريدة "البلاغ" بتاريخ ١٣ أغسطس ١٩٤٤م كتاب عبد الحليم عباس عن الشاعر، ورد على ما جاء فيه قائلا: "أما أن أبا نواس شاعر فهذا ما لا شك فيه. وأما أن شعره ثروة ضخمة ومفخرة من مفاخر الشعر العربى وأن الشاعر بلغ هذه المنزلة التى لا يزال يتبوأها بحقٍّ وعن جدارة فهذا ما نخالف المؤلف فيه. فلسنا نراه أكثر من شاعر ظريف مُجِيد فى بابه على قلة قيمته، يطيب للمرء أن يتسلى ويتلهى به فى ساعات الفراغ حين يؤثر اللهو على الجِدّ، ولكنه ليس بشاعر عظيم ولا من شعراء الطبقة الأولى. ولو ذهب شعره كله ما نقص الأدب العربى شيئًا يستحق الذكر أو الأسف. وما على القارئ إلا أن يسائل: أيهما يخسر الأدب العربى بضياع شعره خسارة جسيمة: المعرى والمتنبى وابن الرومى مثلًا أم هذا

النواسى؟ وأحسب أن الجواب مما لا يقع عليه الخلاف. وإذا نحن وصفنا أبا نواس بالعظمة ووضعناه فى الصف الأول فبماذا نصف المعرى والمتنبى؟ وأين نضعهما يا ترى؟ وأين يكون محل ابن الرومى وأبى تمام ... إلخ، إلخ؟

إنه شعر لهو وعبث يبتسم المرء وهو يقرؤه، وقد يرثى لقائله أحيانًا، ويتسلى به ويعجب ببراعته فيه، ولكنه لا يوسِّع أفق النفس أو العقل، ولا يعمِّق الشعور، ولا يترك أثرًا له شأن فى الحياة. كلا، لم يكن أبو نواس إنسانًا فحلًا أو شاعرًا فحلًا، وإنما كان مخلوقًا ضعيفًا عجز عن النهوض بأعباء الحياة فلاذ بالخمر وعكف عليها فرارًا وخَوَرًا. وقد شرب غيرُه من الشعراء الخمر واستطابوها، ولكنهم لم يتضعضعوا كما تضعضع، ولم يجعلوا الحياة كلها «خمورًا وأمورًا» ولا شىء إلا الزق والقينة. وماذا تراه كان يصنع بالقينة وهو مخمور يحسب «الديك حمارًا»، وكأن الحياة داء وبلاء، ومعاناتها عذاب وأوجاع وشقاء، ومن الرحمة أن يُحْقَن المرء بالمورفين ليستريح منها؟ وما الفرق بالله بين خمريات صاحبنا وكلام الحشاشين ومدمنى المخدرات فى طيب ما يفيدون من متعة؟ ولسنا ننظر بهذا القول إلى القيمة الأخلاقية للشعر ونضعها فى المقام الأول، وإنما ننظر إلى قيمة الحياة نفسها وإلى معناها فى نظر الشاعر. وقد أُعطِينَا الحياة لنحياها لا لنهرب منها ونغيب عنها، وكَفَى بالموت غيبة طويلة. وقد آن أن نضع كل شىء فى موضعه، وأن نضبط موازيننا ونُحْكِمها ونتقى أن نغالى أو نهوّل بشىء، وليس ألزم لنا من تصحيح الموازين والمقاييس القديمة الموروثة".

هذا ما قاله المازنى فى شعر أبى نواس. لكن هل صحيح أن شعر النواسى لا قيمة له؟ أنا معه فى أن كثيرا من موضوعاته ليس فى نفسه ذا قيمة، لكن فى شعره فنا وبراعة فى الوصف والتصوير، فضلا عن براعته فى استعمال اللغة

واقتداره على التصرف الرائع فيها وقوته فى تناول أى معنى وموهبته فى إبداع القصص ووصف المكان والزمان ورسم الشخصيات وإدارة الحوار ورشاقة النظم واستطاعته قول الشعر متى توجه إليه ذهنه بمنتهى اليسر والسلاسة.

على أن هذا لا يعنى أنه شاعر عبقرى كما ينظر إليه المستشرق Philip Kennedy فى كتابه: "Abu Nuwas- A Poet of Genius" ولا أنه شاعر عظيم كما وصفه طه حسين. الحق أننا لا نستطيع أن نوافق شاعرنا على شغفه المَرَضِىّ بالخمر ولا على انحرافه وشعره الغلمانى، فلسنا من الذين يغضون الطَّرْف عن الجانب الأخلاقى فى الأدب، وإن كنا لا يمكننا غمط موهبته الشعرية. وقد كنت ولا أزال أقول ضاحكا إننا نتعلم الأدب من قليل الأدب. أقصد أننا كثيرا ما نتعلم اللغة والبراعة فى التعبير من شعراء الهجاء والمجون مثلا متى ما كانوا بارعين. لكننا لا نتوقف عند هذا بل نمضى فننتقدهم على انحرافهم والتوائهم عن قصد السبيل وعلى قبح سلوكهم حين يتبدى هذا القبح فى إبداعهم كما هو الحال فى جانب غير صغير من شعر أبى نواس. ولا يمكننى أن أتقبل نفسيا أو أخلاقيا أو إنسانيا ما يحكى عن أبى نواس من الانحراف والتفاخر بعدوانه على الغلمان مما يغَثِّى ويقَيئ. بل هناك حكايات عنه لو صحت لنزلت به إلى مقام الحيوان، إذ تصوره مرميا فى الأزبال والأوساخ فى الشوارع سكران بعدما طاردته الصبيان، وقد غاب عن وعيه تماما كا جاء فى كتاب "أخبار أبى نواس" لأبى هفان.

ومن هنا لا نستطيع موافقة المستشرق فيليب كيندى على ما حكم به على أبى نواس (ص١) حين جعله واحدا من أعظم الشعراء العرب القدامى. لا شك أن أبا نواس سلس النظم ومرن اللغة إلى حد بعيد، وعنده مقدرة عجيبة على افتراع الصور، وما إلى ذلك. لكن القول بعظمته أو عبقريته شيء آخر. ترى كيف

نرافئ المستشرق المذكور أوالدكتور طه حسين على هذا الحكم، وأبو نواس فى جانب كبير من شعره هو شاعر الشذوذ والدنس، وفى جانب آخر هو شاعر المديح الذى يضع نصب عينيه الحصول على المال وكفى دون نظر إلى الوسيلة التى حصل بها الممدوح على أمواله ولا عدم أحقية الشاعر المداح فيها؟ فأَنَّى تأتيه العظمة إذن؟ سيقال: إنك تُدْخِل العامل الأخلاقى فى المقياس الذى تقيس به جودة الشعر. وجوابى هو: نعم، فالشعر ليس شكلا فنيا ولا تعبيرا لغويا فحسب، بل هو إلى جانب هذا مضمون يحتوى على رسالة يريد الشاعر توصيلها إلى قرائه ومستمعيه.

وليس من المقبول لدىَّ أَنْ أُعَظِّم من شأن شاعر يشرب الخمر ويدعو إلى الشذوذ وينغمس فيه ويستمتع به ويزينه للآخرين الذين لم يبتلهم الله بهذه البلوى اللاإنسانية، ويجعل هِجِّيرَاه إفسادَ المجتمع وأهله. إن الشعراء ليس على رؤوسهم ريشة حتى نستثنيهم مما يحمله المواطنون الآخرون من مسؤولية أخلاقية. وما دام قانون المجتمع الذى يعيش فيه الشاعر يجرم الشذوذ والخمر ويعاقب من يأتيهما فإن ذلك يلْزَم الشاعر أيضا. وليس من المنطقى أن يجتهد المجتمع بكل مؤسساته فى محاربة تلك الموبقات ثم نترك الشعراء يهدمون ما يبذله المجتمع من جهود، وينفقه من أموال، ويصرفه من وقت، ويستعين به من فكر، ويجيش له من شرطة ورجال قانون دون أن نوقفهم عند ما ينبغى أن يقف عنده المواطنون الآخرون من حد. إننا لو فعلنا ذلك فمعناه أننا نعانى انفصاما فى الشخصية، والعياذ بالله!

لقد ذكر ابن المعتز فى "طبقات الشعراء" أن أبا نواس "قد اتصل بالوزراء والأشراف فجالسهم وعاشرهم، فتعلم منهم الظرف والنظافة، فصار مثلًا فى الناس، وأحبه الخاصة والعامة"، لكنه "كان يهرب من الخلفاء والملوك بجهده،

ويلام على ذلك، فيقول: إنما يصبر على مجالسة هؤلاء الفحولُ المنقطعون الذين لا ينبعثون ولا ينطقون إلا بأمرهم. الله! لكأنى على النار إذا دخلتُ عليهم حتى أنصرف إلى إخوانى ومَنْ أشاربه، ولأنى إذا كنت عندهم فلا أملك من أمرى شيئا".

ولا أدرى كيف كان أبو نواس يرضى عن سلوكه الشاذ وأخلاقه المنحرفة، وهو الذى تصوره الروايات مثقفا من طراز رفيع لا فى اللغة والشعر فحسب بل فى علوم القرآن والحديث والفقه والكلام ومعارف الإغريق والهنود والفرس؟ هذا ما لا أفهمه. أما من ناحية لغته وشدة أَسْر أسلوبه وبديع فنه فيكفى أن نورد ما جاء فى "طبقات الشعراء" لابن المعتز من حكم أبى عمر الشيبانى، الذى يقول: "لولا ما أخذ فيه أبو نواس من الرَّفَث لاحتججنا بشعره لأنه مُحْكَم القول"، وما ذكره ابن المعتز فى قوله: "حدثنى إبراهيم بن الخصيب قال: أخبرنى ابن أبى المنذر قال: إنما نَفَقَ شعر أبى نواس على الناس لسهولته وحسن ألفاظه. وهو مع ذلك كثير البدائع. والذى يراد من الشعر هذان".

ومع هذا فإن أشعار أبى نواس لا تعرف وصف الطبيعة ولا تقف مبهورة أمام جلالها وجمالها ولا تصور استيلاءها على الفكر والقلب وما تبعثه فى النفس من روعة وذهول وسحر وفتنة ولا تتأمل الكون والحياة ولا تستبطن نوازع النفس الإنسانية ولا تلقى الضوء على الأركان المظلمة فيها فتنير السبيل لمن يريد أن يفهم تلك النفس، اللّٰهم إلا نفوس السكارى والشواذ ومن على شاكلتهم. كما أنها لا توقظ فى الإنسان نزعته الإنسانية أو عزته القومية، مثلما لا تقترب من مسرات الحب العميقة ولواعجه التى نجد وصفها لدن جميل بن مَعْمَر أو كُثَيِّر عَزَّة أو مجنون ليلى مثلا، بل هى فى الشذوذ والخمر، وكذلك المدح الذى لا غرض

من ورائه سوى المال، والمال فقط، والذى لا يقدم لنا فى الغالب جديدا سوى المعانى المحفوظة والعبارات المعادة المكرورة، والذى لا يعرف كيف ينفق شاعرنا ما يجلبه له من مال إلا فى الحانات وعلى الغلمان. فكيف يكون أبو نواس إذن شاعرا عظيما أو عبقريا؟ بالله متى كانت العبقرية فى التردى فى نجاسات الدنس وقذارة الانحراف والعكوف على الخمر؟

ومرة أخرى لا نكران أنه شاعر بارع فى نظم الشعر وصياغة العبارة واقتناص الصور الطريفة المدهشة أحيانا كثيرة، لكن كل ذلك قد ضاع فيما لا يفيد من الناحية النفسية والعقلية لأنه لا يرقى إحساسا ولا يسْمُق بفكر، اللّٰهم إلا فى ابتهالاته واستغفاره ربه وشعوره بالخزى لتجاوزه الحدود فى سلوكه وكلامه. والحياة مملوءة بالبراعات التى لا تستفيد الإنسانية منها شيئا بل تضرها، وكثيرا ما يكون ضررها شديدا بشعا. أذكر أنى قرأت ذات مرة أن صبيا بريطانيا قد راهن لِدَاته أن يبتلع سمكة حية، ويبدو أنه قام بذلك التحدى مرارا، إلا أنه فى تلك المرة أخطأ وحاول ابتلاع السمكة من ناحية ذيلها لا رأسها، فما كان منها حين شعرتْ أنها ذاهبة إلى المجهول إلا أن نشرت زعانفها فنَشِبَتْ فى حلقه ولم يمكن تحريكها من موضعها، فاختنق الصبى ومات بعد أن فشل زملاؤه فى إنقاذه. فهذه براعة من براعات الحياة لا يستفيد منها البشر شيئا بل تجلب على صاحبها الأذى الشنيع. وهناك مَنْ وضع رأسه بين فكى تمساح يرِى من معه أنه بارع يستطيع أن ينتزع رأسه فى الوقت المناسب متى فكر التمساح فى إطباق فكيه، لكنه عجز عن ذلك، وضاعت رأسه وحياته. فأبو نواس من الناحية النفسية والعقلية والإنسانية يذكّرنا بهذا وذاك.

ولقد جعل أبو نواس من الخمر ميدانا لإظهار براعته اللغوية والبيانية، لكنه أثار اشمئزازنا وغثياننا وسبب لنا حَكَّة ذوقية وأخلاقية مزعجة لا يمكن

مداواتها، على عكس ما صنعه مثلا هانس فالادا الروائى الألمانى الذى اتخذ من الخمر أيضا موضوعا لرواية طويلة اسمها: "نهاية السكير" (Der Trinker)، لكنه أبدع فيها وأمتع، إذ صور لنا تصويرا أدبيا واقعيا مشوِّقا ومقنعا فى آنٍ حياة رجل من رجال الأعمال كان موفقا ناجحا فى كل شىء: فى ماله وفى أسرته وفى وضعه الاجتماعى وفى عمله، ثم حدث أن أدمن الخمر وتورط فيها تورطا شديدا، فانقلبت حياته قليلا قليلا من النقيض إلى النقيض، وانتهى به المآل إلى الفقر والضياع والانحطاط والمذلة والدمار. وهو ما انتهى إلى مثله أبو نواس، فقد ضيع كل ما كسبه من أموال المديح على الخمر وعلى الغلمان والقاذورات، وأخذ يغالب الحقائق زاعما أنه سعيد لا يشعر بقلق ولا يحمل للدنيا هما، وليس فى الإمكان أبدع مما كان. وللعلم لم تكن حياة فالادا هادئة بل كانت مفعمة بالقلاقل والمزعجات، ومنها تناوله المورفين، الذى نجح بعزمه القوى فى التخلص منه. وقد استطاع، رغم تلك الظروف المزعجة، إبداع هذه الرواية الرائعة التى نُشِرَتْ بعد وفاته عن إدمان الخمر وما تجره من كوارث اجتماعية ونفسية ومالية ونفسية وأخلاقية مرتفعا فوق ضعفه ومحولا إياه إلى عمل أدبى بديع يزيده روعة أنه ألفه وهو رهن الاعتقال فى مصحة نفسية نازية. وتجنبا لتضييع الوقت فى الجدال نتساءل: إلام انتهى أبو نواس؟ إلى المرض والمهانة الاجتماعية رغم ظرفه وخفة ظله وبراعته فى نظم الشعر لغة وبيانا وتصويرا وسلاسة وانسيابية، ومات دون أن يثمر شيئا مستقيما لا اجتماعيا ولا نفسيا ولا أخلاقيا. وكان يمكن أن توظَّف موهبته الشعرية فيما هو أجدى وأبقى بدلا من هذه المهارات والبراعات التى ضاعت على لاشىء تقريبا. لا بل أثارت لدينا الغثيان وقلبت لنا معداتنا وهاجت سخطنا

واشمئزازنا وجعلتنا طوال الوقت متوفزى الأعصاب ضائقى الصدر رغم إقرارنا ببراعة الرجل كما قلنا وكررنا مرارا.

كذلك لا بد من الإشارة إلى أن بعض الباحثين يزعمون أن أشعاره فى الشذوذ هى مما حُمِلَ عليه حملا. وفى مقاله المذكور آنفا يرى المازنى أيضا أن ما يعزَى من الشعر القبيح إلى أبى نواس كله أو أكثره منحول على الأرجح. أما أنا فلا أستطيع الذهاب إلى هذا المدى. أجل ربما كان بعض الشعر الذى من هذا الوادى قد أضيف إليه زيفا، لكن أن يقال إن كل شعر فى هذا المجال قد نُحِلَه النواسى هو كلام، فيما يبدو لى، غير مقبول ولا معقول، وإلا فلماذا حمل هذا الشعر عليه؟ ولماذا لم يقل القدماء ذلك؟ وأين ديوانه الذى يحتوى على شعره الصحيح فقط؟ ثم إن كثيرا جدا جدا من الشعر الذى فى ديوانه يرتكس فى تلك الحمأة الدنسة المنتنة، وفى المقابل نراه فى أكثر من موضع من ذلك الديوان يعبر عن نفوره الشديد من معاشرة النساء ويلهج بالغلمان، مبديا ابتهاجه بذلك الانحراف. فالأمر ليس أمر نص أو اثنين أو ثلاثة من النصوص الشاذة بل أمر قسم ضخم من الديوان. كما أن أخباره تطفح بتفاصيل تلك السيرة العفنة المنتنة. وكل من كتبوا عنه ممن كانوا قريبين منه زمنيا ذكروا عنه هذا.

ولا ينبغى أن ننسى أنه لم يتزوج، وإن كان هناك من قال إنه تزوج وأنجب ولدين، وهو ما أخذ العقاد به فى كتابه: "الحسن بن هانئ"، وهو ما يبدولى غريبا لا يصدق. أما إذا كان لنا أن نصدق أبا هفان فى الخبر الذى ساقه عن زواجه فإنه سرعان ما أضاف أن ذلك الزواج قد فشل منذ اللحظة الأولى، ولنفس السبب الشاذ. قال أبو هفان فى "أخبار أبى نواس": "خُبِّرْتُ أن أبا نواس قدم عليه أقاربه فقالوا له: يا هذا، إنه قد نَفِدَ عمرك، وتصرَّمت أيامك، وساء عملك، واقترب

أجلك. فلو تزوجت بعض أهلك؟ وما زالوا به حتى زوّجوه قرابةً له، وكانت جميلة بارعة. فلما دخل بها أعرض عنها وخرج على غلمان كانوا يتعهدونه فدعاهم وألبسهم الأُزُر المفرَّجة والخَلُوقية، وخلا بهم يومهم ذلك. فلما أمسى طَلَّقَها وأنشد:

لا أبتغــــى بالطَّمْـــــث مطمومـــــةً ولا أبيـــــع الظبـــــى بالأرنـــــبِ

لا أُدْخِـــل الجُحْـــر يــــدى طائعـــا أخـــشى مـــن الحيـــة والعقـــربِ

أبو هفان: أخبرنى الجماز قال: قال لى الجنديسابورى: كنت أمضى مع أبى نواس إلى باب أسماء بنت المهدى، وذلك أن الشعراء كانوا يجتمعون ببابها، فقال لى: امض بنا لنتعرف خبرًا إنْ كان. فمضيت معه، فإذا نحن بجارية قد طلعت من القصر عليها قَبَاء ومِنْطَقة، وفى رجليها نعل، مهضومة كاعب ناهد، فأعجبته، فكان يناغيها ويغازلها ويعبث بها، وينشدها أشعارا يعرِّض بها فيها ويعلمها أنه يحبها، وكان يجاذبها إذا خرجت فلا ينكر عليه ذلك أحد لعبثه بالناس جميعا، ولأنه لم يكن يعتدّ بالنساء ولا يعْرَف بعشقهن، فقال يوما آخر: امض بنا إلى باب أسماء. فمضيت معه، فإذا نحن بالجارية قد خرجت عليها قَبَاءُ وَشْى منسوجٌ بالذهب، وعلى رأسها قلنسوةُ إبْرَيسَمٍ رقيقةٌ منسوجة بالذهب، وعليها مِنْطَقَةٌ بزُنَّار أخضر معرَّقة بالذهب قد غرقت فى خصرها، فما تكاد تبين إلا معاليقها من انهضامه، وفى رجليها نعلٌ مدبَّجة الدروز، وبيدها عود خيزران ملون. فلما طلعت علينا صرت أنا وكل من حضر هناك ننظر إليها وإلى براعتها وجمالها، فالتفت إلى أبو نواس وقال: مثلَ هذه فاشتر يا نخاس. فقلت: هذه ما تصلح إلا للخليفة، ولا تصلح لمن دونه. فلبثت عندنا ساعة تمزح وتمرح وتتثنى فى مشيتها، ثم وقفت فى موضع قريب منا وتسمع كلامنا. ونظرت إلى أبى نواس".

وقد وقف المستشرق مؤلف الكتاب بعض الشيء عند هذا الجانب فى شعر النواسى (ص٤٧– ٤٩). ومن هذا الضرب من الأشعار قوله:

وَناهِــدَةِ الثــديينِ مِــن خَــدَمِ القَــصْرِ سَـبَتْنى بِحُـسْنِ الجيـدِ وَالوَجْـهِ وَالنحـرِ

غُلامِيـــــةٌ فى زِيهـــــا بَرْمَكِيـــــةٌ مُزَوَّقَـــةُ الأصـــداغِ مَطْمومَـــةُ الـــشَّعرِ

كَلِفـتُ بِـما أَبْـصَرتُ مِـن حُـسنِ وَجهِهـا زَمانًـا، وَمـا حُـبُّ الكَواعِـبِ مِـنْ أَمْـرى

فـما زِلْـتُ بِالأَشْـعارِ فى كُـلِّ مَـشْهَدٍ أُلَينُهـــا، وَالـــشِّعْرُ مِـــن عُقَـــدِ الـــسِّحْرِ

إلى أَنْ أَجابَـــتْ لِلْوِصـــالِ وَأَقْبَلَـــتْ عَـــلى غَيرِ ميعـــادٍ إِلَى مَـــعَ العَـــصْرِ

فَقُلْــتُ لَهــا: "أَهــلًا"، ودارت كُؤُوسُــنا بِمَــشْمُولَةٍ كَــالوَرْسِ أَو شُــعَلِ الجَمْــرِ

فَقالَــت: عَــساها الخَمْــرُ؟ إِنّــى بَريئَــةٌ إلى الله مِــن وَصْـلِ الرجـالِ مَـعَ الخَمْـرِ

فَقُلْــتُ: اشْرَبــى إِن كــانَ هَــذا مُحَرَّمًــا فَفـى عُنُقـى، يـا ريـمُ، وِزرُكِ مَـعْ وِزْرِى

فَطالَبْتُهـــا شَـــيئًا، فَقالَـــت بِعَـــبْرَةٍ: "أَمــوتُ إِذَنْ منــهُ"، وَدَمْعَتُهــا تجــرى

فَـما زِلـتُ فى رِفـقٍ، وَنَفـسى تَقـولُ لى: جُوَيرِيـــةٌ بِكْـــرٌ، وَذا جَـــزَعُ البِكْـــرِ

فَلَـــمّا تَواصَـــلنا تَوَسَّـــطْتُ لُجَّـــةً غَرِقْـتُ بِهـا يـا قَـوْمُ مِـن لُجَـجِ البَحْـرِ

فَـصِحْتُ: "أَغِثْنِـى يـا غُـلامُ"، فَجـاءَنى وَقَـد زَلِقَـتْ رِجْـلى، وَلَجَّجْـتُ فى الغَمْـرِ

فَلَـــولا صِـــياحى بِـــالغُلامِ وَأَنَّـــهُ تَـــدارَكَنى بِالحَبْـــلِ صِرْتُ إِلى القَعْـــرِ

فَآلَيـــتُ لا أَرْكَـــبُ البَحْـــرَ غازِيـــا حيـــاتى وَلا ســـافَرْتُ إِلّا عـــلى الظَّهْـــرِ

وقوله:

صـــــاحبةَ القَرْقَـــــرِ، لا تَـــــشْغَبِى تحمَّـــــــلِى طالقـــــــةً واذهبـــــــى

مُـــرِّى، فكَـــمْ مثلـــكِ مـــن حُـــرّةٍ رائعـــةٍ لم تَـــكُ مـــن مَطْلَبِـــى

لا أبتغـــى بالطَّمْـــثِ مطمومـــةً ولا أبيـــعُ الظبـــى بالأرنـــبِ

لا أشـــتهى الحَيـــضَ ولا أهلَـــهُ غيرُكِ أشـــهى منـــكِ بالأرنـــبِ

بَـــلَى، فـــإن كنـــتِ غلاميـــةً مـــن شرط مـــثلى فَـــرِدِى مـــشربى

لا أُدْخِـــلُ الجحـــرَ يـــدى طائعًـــا أخـــشى مـــن الحيـــةِ والعقـــربِ

وإن كنت رغم هذا لا أفهم معنى ذلك التخوف من النساء. من المفهوم أن يفضل بعض الرجال الغلام على المرأة رغم شذوذ ذلك، فالشذوذ فى البشر موجود رغم بغضنا له واشمئزازنا منه، أما أن يكون هناك من ينظر إلى المرأة على أنها جحر مملوء بالعقارب والحياة أو على أنها بحر يغرق الإنسان فيه ويهلك فهذا ما لا أستطيع فهمه. والشاعر، من جهته، قد اكتفى بالتعبير عن خوفه من الغرق فى البحار ومن التعرض للدغ الأفاعى والحيات دون أن يبين لنا وجه الشبه بين المرأة وبين الغرق فى البحر أو بينها وبين خطر الجحور. لقد عودنا النواسى على الصراحة فى حديثه عن الشذوذ، فكيف لم يكن صريحا فى الحديث عن رعبه من هذا الوضع الطبيعى؟ إن ذلك لأمر غريب! ولنلاحظ أننا لا نتكلم هنا عن العجز بل عن الرعب والفزع، عن شخص يرى أن الاقتراب من المرأة هو بمثابة وضع اليد فى جحر مملوء بالأفاعى والحيات أو بمثابة عوم فى أمواج البحر الهائلة المغرقة دون قارب أو مركب. فما معنى هذا؟

ثم إن شعره فى جنان وغيرها ممن تغزل بهن فى شبابه يخلو من الحرقات، وإن دل فى ذات الوقت على براعة فى نظم الشعر السلس الرقيق. وهذا كل ما هنالك. وعلى أية حال سرعان ما كف عن نظم هذا اللون من الشعر، فكأن صاحبه لا

يعرف شيئا اسمه التعلق بالنساء. ويضاف إلى ذلك أن هناك شعرا له يعترض فيه بشدة على من يعذلونه فى أمر الشذوذ ويرى أنه على صواب فيه حتى لَيَكْذِب زاعما أن له فى كتاب الله مُتَّكَأً فى هذا الميل الشاذ. فهل هذا كله مكذوب عليه؟ لكن لمه؟ ولماذا هو من دون الشعراء جميعا؟

وبمناسبة ما نحن فيه فقد ذكر المستشرق مؤلف الكتاب، بناء على ما كتبه بعض القدماء كالأصفهانى والجاحظ، أن الشعراء إلى نهاية عصر بنى أمية لم يكونوا يعرفون الغزل بالمذكر، وإنما كانوا يتغزلون فقط بالنساء. ويرجع الجاحظ السبب فى عدم وجود الشذوذ فى ذلك العصر إلى أن جند بنى أمية كانوا يصطحبون زوجاتهم معهم، بخلاف جند العباسيين، الذين لم يكونوا يأخذونهن فى الغزوات، وكانت أعينهم طوال الوقت تقع على الغلمان فحسب، مما سهل انتشار الشذوذ. والواقع أننى لا أستطيع أن أتذكر شعرا جاهليا أو إسلاميا أو أمويا خارجا عن الفطرة.

وعن انتشار التعلق بالغلمان والتغزل بهم فى عهد العباسيين يقول د. شوقى ضيف فى "العصر العباسى الأول": "وقد أشاع هؤلاء المُجّان والخُلَعاء آفة مزرية هى آفة التعلق بالغلمان المُرْد. وكان أول من اشتهر بالغزل فيهم والبة بن الحباب. وهو يصرح بذلك تصريحا فى غير مواربة ولا استحياء. ويقال إنه هو الذى يتحمل وزر إفساد أبى نواس. بل هو، فى رأينا، الذى يحمل وزر العصر كله وما شاع فيه من هذا الغزل المقيت الذى يخنق كرامة الشباب والرجال خنقا. وربما كان من أسباب شيوعه كثرة الغلمان والخصيان فى بغداد وغيرها من مدن العراق. وكان منهم من تسقط عنه رجولته حتى ليلبس ملابس النساء، وكان من الجوارى من يلبس لبس الغلمان لفتا للشباب والرجال. ويرْوَى أن الأمين، حين أَفْضَتْ

إليه الخلافةُ، قَدَّم الخصيان وآثَرَهم، فشاعت قالة السوء فيه. ورأت أمه زبيدة، دَرْءًا لتلك القالة، أن تبعث إليه بعشرات من الجوارى أَلْبَسَتْهُنَّ لُبْس الرجال حتى ينصرف عن الخصيان، فكن يختلفن بين يديه، وأبرزَهن للناس. ولم يلبث كثيرون أن جارَوْه فى هذا الصنيع. وكن يسمَّين بـ"الغلاميات". وعمت هذه البدعة فى الساقيات بالحانات. ولعل ذلك هو السر فى أن أبا نواس كثيرا ما يتحدث عن بعض الجوارى بضمير المذكر. ومِنْ تَتِمَّة هذا التبادل بين الجوارى والخصيان فى الزى والهيئة حينئذ كثرةُ المخنثين بين المغنين والضاربين على الدفوف، وكانوا يتشبهون بالنساء فى عاداتهن وثيابهن وضَفْر شعورهن وصبغ أظافرهن بالحناء".

وهناك نقطة أثارها المؤلف (ص٤٨- ٤٩) لدن حديثه عن نُونِية نواسية بذيئة انتهت بأن قذفه غلام بتفاحة ردًّا لمحاولته العدوان عليه، فاصطدمت بسِنّه. وهنا لم يشإ المستشرق أن يفوّت هذه الفرصة دون أن يربط بين تلك الحادثة المفحشة وبين إصابة رباعية النبى عليه الصلاة والسلام فى غزوة أحد. ترى ما وجه العلاقة بين الأمرين؟ لا شىء. فلا الواقعتان متشابهتان، ولا طبيعة الإصابة هنا وهناك واحدة، ولا النتيجة هى هى: فهنا شذوذ وفحش، وهناك جهاد ودفاع عن الدين والدولة والأمة. وهنا تفاح يقْذَف به الشاعر العربيد، فتصطدم التفاحة بسن من أسنانه، وهناك كسر رباعية للنبى فى معركة حياة أو موت. وهنا شاعر شاذ دنس ماجن متساخف، وهناك نبى طاهر كريم هو سيد الأنبياء والمرسلين. وليس فى كلام أبى نواس ما يمكن لَيه بأى حال ولا على أى وضع إلى هذه الناحية.

وأبو نواس لا يحتاج إلى توصية، فكيف يقوّله المؤلف ما لم يقل بل ما لم يدر فى خاطره بحال؟ ولِمَ يزُجّ المستشرق باسم النبى وانكسار رباعيته الشريفة فى هذا

السياق، فضلا عن مقارنته بين الحادثتين والشخصيتين والنتيجتين رغم أنه لا يوجد أى وجه لتلك المقارنة؟ ألا إن فى هذا لمجافاة شديدة لأصول النقد الأدبى وطبيعة الموازنات النصية ومبادئ التناصّ، وقبل ذلك كله: مخاصمة للذوق السليم والطوية السليمة والحياد البحثى! ثم يتساءل فى براءة خبيثة: ترى هل هذا الكلام هو سخرية من الجهاد؟ أى جهاد يمكن أن تتضمن أبيات أبى نواس الإشارة إليه، فضلا عن السخرية منه؟

إن الكاتب للأسف إنما يختلق أحيانا الموضوعات المسيئة اختلاقا وينْحَل النيات الشريرة الناس نَحْلًا دون أَوْهَى سبب أو صلة. وشاعرنا، بحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه، ليس قصير اللسان ولا عفيف البيان ولا ناقص الوقاحة حتى نضيف إليه ما لم ينو أن يقوله. وهو، على كل بذاءاته وسلاطة لسانه فى شعره، لم يحاول أن يقترب فى أى من قصائده أو مقطوعاته من مقام النبى محمد بحال. فلماذا الزج به صلى الله عليه وسلم فى هذا السياق الذى أقل ما يقال فيه أنه سياق مهين؟ لو كان لا بد للمقارنة فى هذا السياق لقد كان بمستطاع مستشرقنا أن يستحضر ضرب الثريا بخواتمها ثَنِيتَيِ الشاعر المغرم بالتعرض للجميلات عمر بن أبى ربيعة. والسياق، كما نرى، قريب من قريب، والرجلان شاعران عابثان، وإن كان عمر عابثا طبيعى العبث على عكس العبث النواسى المنحرف، والضرب فى الحالتين آتٍ من حِبٍّ غاضبٍ أو متظاهر بالغضب، وليس فى الأمر كسر بأى حال بل مجرد ضرب فى الأسنان. لكن المؤلف، فيما أرى، إنما يريد الإساءة. وهيهات!

وعودا إلى ما قاله المازنى بشأن شعر النواسى ونفيه عنه أية قيمة تقريبا نقول إن لأبى نواس أشعارا أخرى بعيدا عن الانحراف، أشعارا فى الإنابة إلى ربه وفى

تصوير حالات الحيرة الفكرية التى كانت تلم به بين الحين والحين، وفى التهكم والهجاء، وفى المديح كذلك على عدم استلطافى بوحه عام للمديح، وهذه الأشعار ليست بالقليلة. ومنها ما هو ممتع. فالقول بأن شعر أبى نواس كله غير ذى قيمة هو مما لا نوافق المازنى عليه. ثم إن كثيرا من الشعر القديم يدور حول هذه الموضوعات: موضوعات المدح والفخر والهجاء وما إلى ذلك بسبيل، وكذلك الغلمانيات أيضا، وإن لم يصل الشعر عند غير أبى نواس فى الغلمانيات إلى هذا الحد البشع الذى يخيل لقارئه أو سامعه أنه يخوض بحارا من المجارى المنتنة التى تصل إلى أنفه. وليس كل الشعراء العرب متنبئين أو آباء علاء أو أبناء رومى، ولا ينبغى أن يتَّخَذ ذلك تَعِلَّةً للقول بأن أشعارهم لو حُذِفَتْ لما نقص ذلك من الأدب العربى شيئا، مثلما لا يعجب كل النقاد جميعا بأشعار المتنبى وأبى العلاء وابن الرومى.

ولاريب أن الأبيات التالية ترينا براعة فى النظم قلما تستوى للشعراء. صحيح أنها فى الخمر، ولكن ما العمل، وهذا أبو نواس، وهذا توجهه؟ إننى أبغض الخمر وشاربيها ولا أطيق النظر مجرد النظر إلى كؤوسها وزجاجاتها، بيد أن الأبيات مرقصة مطربة بل تكاد هى نفسها تَرْقُص وتُغَنِّى. والحمد لله أنها ليست فى الشذوذ، فقضاء أخف من قضاء:

سُلَافُ دَنٍّ، كَشَمْسِ دَجْنِ ... كَدَمْعِ جَفْنِ، كخَمْرِ عَدْنِ

طبيخُ شَمْسٍ، كلَوْن وَرْسِ ... ربيبُ فُرْسٍ، حليفُ سجْنِ

رأيت عِلْجَا، بباطرنْجَا ... لها تَوَجَّى، فلم يثَنِّ

حتى تَبَدَّتْ، وقد تَصَدَّتْ ... لنا ومَلَّتْ، حلولَ دَنِّ

فاحتْ بريحِ، كريحِ شِيحِ ... يومٍ صَبُوحِ، وغَيم دَجْنِ

يسقيك ساقِى، على اشتياقِ   إلى التلاقى، بماءِ مُزْنِ

يدير طَرْفَا، يعِير حَتْفَا   إذا تَكَفَّى، من التثنِّى

على غناءِ، وصوت ناءِ   دواء داءِ، من التجنِّى

ولَثْمِ خَدٍّ، كطعم شهْدِ   من ذات قَدٍّ، وهْى تغنِّى

غناءَ دَلِّ، وضرْب طبلِ   ورَمْى نَبْلِ، بطَرْف جِنِّى

يا مَنْ لحانى، على القِيانِ   اللهوُ شانى، فلا تَلُمْنى

أَطَلْتَ عَذْلَا، فقلتُ: مَنْ لا   يريد إلَّا، السُّلُوَّ عنى؟

أسخنتَ عينَا، تراك زَينَا   فأين أينَا، الفرارُ منى؟

هتكت سِتْرِى، فباح سِرِّى   وعِيلَ صبرى، لِطُول حُزْنِى

وانظر إلى هذه الصور البارعة كما فى قوله مثلا معبرا عن معاناته من السهد:

جَفَتْ عينى عن التغميض حتّى   كأنّ جفونَها عنها قِصَارُ

وقوله يمدح محمدا الأمين الخليفة العباسى:

أَخَذْتُ بِحَبْلٍ مِن حِبَالِ مُحَمَّدٍ   أَمِنْتُ بِهِ مِنْ نائِبِ الحَدَثانِ

تَغَطَّيْتُ مِنْ دَهْرِى بِظِلِّ جَنَاحِهِ   فَعَيِنِى تَرَى دَهْرِى، وَلَيسَ يرَانِى

فَلَوْ تَسْأَلُ الأَيامَ: "ما اسمى؟" لَمَا دَرَتْ   "وَأَينَ مَكانى؟" ما عَرَفْنَ مَكَانِى

وقوله يصف رسوما على كأس خمر كان يشرب فيه، وقد مر بنا من قبل:

تدور علينا الرّاحُ فى عَسْجَدِيةٍ   حَبَتْها بألوان التصاوير فارسُ

قَرَارَتُها كِسْرَى، وفى جنباتها   مَهًا تَدَّرِيها بالقِسِى الفوارسُ

فلِلـــرَّاحِ مـــازُرَّتْ عليـــه جيوبُهـــا وللـــماء مـــا دارتْ عليـــه القلانـــسُ

وقوله يصف سيفا:

وإن لله ســـــيفًا فـــــوق هـــــامِهِمو بِكَـــفِّ أبلـــجَ لا غُمْـــرٍ ولا وَانِـــى

يـــستيقظ المـــوتُ منـــه عنـــد هِزَّتِـــه فـــالموت مـــن نـــائمٍ فيـــه ويقظـــانِ

وقوله فى إحدى طردياته يصف كلبا من كلاب الصيد:

لَمّـــــا تَجَـــــلّى اللَّيـــــلُ، وَابْيـــــضَّ الأُفُـــــقْ

وَانْجـــابَ سِـــتْرُ اللَّيـــلِ عَـــنْ وَجْـــهِ الطُـــرُقْ

بـــــــاكَرَنى سَـــــــهْلُ المُحَيـــــــا وَالخُلُـــــــقْ

نَـــــدْبٌ إِذا اســـــتَنْدَبْتَهُ شَـــــهْمٌ لَبِـــــقْ

يـــــدْعو إِلى الـــــصيدِ ألا قُلـــــتَ: انْطَلِـــــقْ

بِأَكْلُـــــبٍ غُـــــضْفٍ صَـــــحِيحاتِ الحَـــــدَقْ

مـــــن أَصـــــفَرِ اللَّـــــوْنِ وَمُـــــبْيَضٍّ يقَـــــقْ

كَـــــأَنَّما أُذْنـــــاهُ مِـــــن بَعْـــــضِ المِـــــزَقْ

لَـــــوْ يلْـــــصِقُ الخَـــــدَّ بِـــــأُذْنٍ لَالْتَـــــصَقْ

والوصف، كما نرى، وصف قوى يمور بالحياة، لا يكاد يغادر شيئا فى الكلب دون أن يلتقطه ويبرزه فى أسلوب رشيق مُوحٍ يتنزَّى نشاطا وحيوية فى تصوير بديع. وهذه أهم مزايا النص وأمثاله من أشعار الصيد عند أبى نواس، وعند الشعراء جميعا بوجه عام، لا اللغة البدوية كما يقول كاتب مادة أبى نواس فى "Encyclopaedia of Arabic Poetry". وبالمناسبة فليس فى الشعر الجاهلى،

وهو شعر بدوى فى المقام الأول، نماذج للصيد كثيرة حتى يقال إن طرديات أبى نواس إنما تفتننا بسبب لغتها البدوية المقتبسة منها. ولعل الأوفق أن نقول إنه، فى طردياته، يكثر من الغريب.

وما دمنا فى سياق الكلام عن لغة أبى نواس نشير إلى ما يذكره كاتب المادة المذكورة فى "Encyclopaedia of Arabic Poetry" من أن شعر النواسى الغزلى والماجن يشتمل على بعض التعبيرات العامية، وهو ما لا أفهمه، إذ كل ما يقوله أبو نواس مُعْرَبٌ يجرى على سَنَن العربية الفصحى. ولعل الأوفق أن يقال إنه يستعمل فى تلك الحالة عبارات بسيطة ليس فيها فخامة الأسلوب التقليدى مثلا. والطريف أن نجد الكاتب يحكم على لغة أبى نواس بأنها لغة فصحى سليمة بوجه عام، وكأن أمثال أبى نواس يمكن أن يخطئوا فى قواعد اللغة، وكأن المستشرق قد بلغ من معرفته باللسان العربى بحيث صار فى وضع يخوِّله تخطئة أبى نواس! ويضيف الكاتب أن أبا نواس، لكونه شاعرا محدثا، فإنه يستعمل الصور البيانية، وبخاصة فيما يسوقه من أوصاف. وهذا أيضا مما لا أفهمه، إذ الشعر، بوصفه شعرا، لا يمكنه الاستغناء عن تلك الصور، محدَثا كان أم قديما.

وإلى جانب الشواهد الماضية على براعة أبى نواس الشعرية بعيدا عن الشذوذ والانحراف نستطيع أن نضيف قوله يصف اجتماع شمل الحبيبن ثم افتراقهما:

إِلْفَانِ كانا لِهذا الوَصْلِ قَد خُلِقا ... داما عَلَيهِ، وَدامَ الحُبُّ، فَاتَّفَقا

كانا كَغُصْنَينِ فى ساقٍ، فَشَانَهُما ... رَيبُ الزَّمانِ وَصَرْفُ الدَّهْرِ، فَانْفَلَقا

وَاصْفَرَّ عُودٌ لها مِن بَعْدِ خُضْرَتِهِ ... وَأَسْقَطَ البَينُ عَن أَغْصانِهِ الوَرَقا

باتَتْ عُيونُهُما لِلْبَينِ ساهِرَةً ... وَلِلْفِراقِ، وَلَولا البَينُ ما افْتَرَقا

وقوله يصف صوت صب الخمر فى الكؤوس:

فَـــالخَمْرُ فينـــا كَالبِجَـــادِى حُمْـــرَةً   وَالكَـــأْسُ مِـــن ياقوتَـــةٍ بَيـــضاءِ

وَالكُـــوبُ يـــضْحَكُ كَـــالغَزَالِ مُـــسَبِّحًا   عِنْـــدَ الرُّكـــوعِ بِلُثْغَـــةِ الفَأفَـــاءِ

وقوله يسخر من بخل أحدهم سخرية رائقة بديعة لم أرها لدى غيره على كثرة ما طالعت من مثل هذا الشعر. وقد مر هذا الشعر قبلا:

رَغيـــفُ سَـــعيدٍ عِنـــدَهُ عِـــدْلُ نَفـــسِهِ   يقَلِّبُـــهُ طَـــورًا، وَطَـــورًا يلاعِبُـــه

وَيخْرِجُـــهُ مِـــن كِمِّـــهِ فَيـــشُمّهُ   وَيجْلِـــسَهُ فى حِجْـــرِهِ وَيخاطِبُـــه

وَإِن جـــاءهُ المَـــسكينُ يطلُـــبُ فَـــضْلَهُ   فَقَـــد ثَكِلَتْـــهُ أُمُّـــهُ وَأَقارِبُـــه

يكِـــرُّ عَلَيـــهِ الـــسَّوطُ مِـــن كُـــلِّ جانِـــبٍ   وَتُكْـــسَرُ رِجـــلاهُ وَينْتَـــفُ شـــارِبُه

ومثله الأبيات التالية المتفننة العجيبة:

لا رَعَـــــى اللهُ ابـــــنَ رَوْحٍ   وَسَّـــــخَ اســـــمى بِلُعابِـــــه

أَسْـــقَمَ اســـمى ريـــحُ فيـــهِ   فَـــأَظُنُّ اســـمى لِمَـــا بِـــه

فَـــاطْلُبوا لى اسْـــمًا سِـــواهُ   وَأَجِـــــدُّوا فى طِلابِـــــه

وفوق ذلك اشتهر أبو نواس بسيرورة عدد غير قليل من أبياته بوصفها أمثالا يسْتَشْهَد بها حتى لتشتمل القصيدة الواحدة من قصائده على عدد من تلك الأبيات كما هو الحال فى رائيته المشهورة:

لا أَذودُ الـــطَّيرَ عَـــنْ شَـــجَرٍ   قَـــدْ بَلَـــوْتُ المُـــرَّ مِـــن ثَمَـــرِهْ

وقوله:

خِفْـــتُ مَـــأْثورَ الحـــديثِ غَـــدًا   وَغَـــــدٌ دانٍ لِمُنتَظِـــــرِهْ

وقوله:

خـــــابَ مَـــــنْ أَسْرَى إِلَى بَلَـــــدٍ غَير مَعْلـــــومٍ مَـــــدَى سَـــــفَرِهْ

وقوله:

فَـــــامْضِ لا تَمْــــنُنْ عَـــلَى يـــدًا مَنُّـــكَ المعـــروفَ مِـــنْ كَـــدَرِهْ

وقوله:

فَـــــاتَّقَوْا بــــى مــــا يرِيبُهُمُـــــو إِنَّ تَقْـــوَى الـــشَّرِّ مِـــن حَـــذَرِهْ

وقوله:

فَـــــادَّخِرْ خَيرًا تُثَـــــابُ بِـــــهِ كُـــــلُّ مَـــــدْخُورٍ لِمُـــــدَّخِرِهْ

وهــذا فى قــصيدة واحــدة. وقــد أورد لــه الثعــالبى فى كتابــه: "التمثيــل والمحاضرة" عددا آخر من تلك الأمثال أخذها من قصائد متنوعة. وهى:

دع عنــك لَــوْمِى، فــإنّ اللّــوم إغــراءُ ودَاوِنِــى بــالتى كانــت هــى الــداءُ

❊ ❊

ألا رُبّ إحـــــــسانٍ عليـــــــك ثقيـــــــلِ

❊ ❊

ولِلّرجـــــــاء حرمـــــــةٌ لا تُجْهَـــــــلُ

❊ ❊

مـــــن فـــــرص اللّـــــص ضـــــجّة الـــــسُّوقِ

❊ ❊

أيـــــة نـــــارٍ قَـــــدَحَ القـــــادحُ؟ وأى جـــــدٍّ بَلَـــــغَ المـــــازحُ؟

❋ ❋

مـــــن يعمـــــل الـــــطّين يأكـــــل الطّينـــــا

❋ ❋

إذا امـــتحن الـــدنيا لبيـــبٌ تكـــشّفت لـــه عـــن عـــدوٍّ فى ثيـــاب صـــديق

❋ ❋

وليـــــــــس لله بمـــــــــستنكَرٍ أن يجمـــــع العـــــالم فى واحـــــدِ

❋ ❋

صـــــار جـــــدًّا مـــــا مزحـــــت بـــــه رُبَّ جِـــــدٍّ جَـــــرَّه اللَّعِـــــبُ

❋ ❋

كفَـــــى حَزَنًـــــا أنّ الجـــــوادَ مقـــــتَّرٌ عليـــــه، ولا معـــــروفَ عنـــــد بخيـــــلِ

❋ ❋

وأَوْبـــــة مـــــشتاقٍ بـــــغير دراهـــــمٍ إلى أهلـــــه مـــــن أعظـــــم الحَـــــدَثانِ

وقد وصف الجاحظ شعره فقال: "وأما بشار وأبو نواس فمعناهما واحد، والعِدَّة اثنان. وبشار حَلَّ من الطبع بحيث لم يتكلف قَطُّ قولًا ولا تَعِبَ فى عملِ شعرٍ، وأبو نواس حَلَّ من الطبع بحيث يصل شعره إلى القلب بلا إِذْن". وقال المبرد: "ما تعاطى قولَ الشعر أحدٌ من المحدثين أحذقُ من أبى نواس". وفى "نزهة الألباء فى طبقات الأدباء" للأنبارى: "قال عمرو بن بحر الجاحظ: ما رأيت رجلًا أعلم باللغة من أبى نواس ولا أفصح لهجةً مع حلاوة ومجانبة للاستكره.

وقال الشعر، وكان يسْتَشْهَد بشعره. وقال أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنى: كان أبو نواس للمحدثين كامرئ القيس للمتقدمين... وقال ميمون: سألت أبا يوسف يعقوب بن السِّكِّيت عما يختار لى روايتَه من الشعر، فقال: إذا رويتَ من أشعار الجاهليين فلامرئ القيس والأعشى، ومن الإسلاميين فلجرير والفرزدق، ومن المُحْدَثين فلأبى نواس، فحسبك. وقال أبو العباس المبرد عن الجاحظ، قال: سمعت إبراهيم النظام يقول وقد أُنْشِد شعر أبى نواس فى الخمر: هذا الذى جُمِع له الكلام فاختار أحسنه. وقال فى حقه سفيان بن عيينة: هذا أشعر الناس (يعنى أبا نواس). وقال الجاحظ: لا أعرف من كلام الشعراء أرفع من قول أبى نواس:

أيـــةَ نـــارٍ قَـــدَحَ القـــادِحُ؟ وأى جِـــدٍّ بلـــغ المـــازحُ؟

وأنشد الأبيات".

وفى "معاهد التنصيص على شواهد التلخيص" للعباسى: "ما زال العلماء والأشراف يروون شعر أبى نواس ويتفكهون به ويفضلونه على أشعار القدماء. قال محمد بن داود الجراح: كان أبو نواس من أجود الناس بديهةً، وأرقِّهم حاشيةً، لَسِنًا بالشعر يقوله فى كل حال. والردىء من شعره ما حُفِظ عنه فى سُكْره. قال الجاحظ: لا أعرف بعد بشار مُوَلَّدًا أشعر من أبى نواس. وقال الأصمعى: ما أروى لأحد من أهل الزمان ما أرويه لأبى نواس. وقال أبو عبيدة: أبو نواس للمحدثين كامرئ القيس للأولين لأنه الذى فتح لهم باب هذه الفِطَن، ودَلَّهم على هذه المعانى. وقال: ذهبت اليمن بجِدّ الشعر وهَزْله: فامرؤ القيس بجِدِّه، وأبو نواس بهَزْله. وقال أبو الحسن الطوسى: شعراء اليمن ثلاثة: امرؤ القيس وحسان وأبو نواس... وقال ابن الأعرابى: قد ختمتُ بشعر أبى نواس، فما رويتُ لشاعر بعده. وقال أبو عمرو الشيبانى: لولا ما أخذ فيه أبو نواس من الأرفاث

لاحتججنا بشعره، لأنه كان محكَم القول لا يخلط. وقال ابن دريد: سألت أبا حاتم عن أبى نواس فقال: إنْ جَدَّ حَسُنَ، وإنْ هَزُلَ ظَرُفَ، وإن وصف بالغ. يلقى الكلام على عواهنه لا يبالى من حيث أخذه. وقال أبو الغيث بن البحترى: سألت أبى لما حضرته الوفاة: مَنْ أشعرُ الناس؟ فقال: أعن المتقدمين تسأل أم عن المُحْدَثين؟ فقلت: عن المحدثين. فقال: يا بنى، لو قُسِّم إحسان أبى نواس على جميع الناس لوَسِعَهُمْ".

وقال أحمد الهاشمى فى "جواهر الأدب": "أكثرُ علماءِ الشعر ونَقَدَتِه وفحولِ الشعراء على أن أبا نواس أشعر المحدثين بعد بشار وأكثرهم تفننا، وأبدعهم خيالا مع دقة لفظ وبديع معنى، وأنه شاعر مطبوع بَرَّزَ فى كل فن من فنون الشعر، وامتاز من كل الشعراء بقصائد الخمريات ومقطعاته المجونيات"، لكنه مضى قائلا: "وكان شعره لقاح الفساد والقدوة السيئة لنقله الغزل من أوصاف المؤنث إلى المذكر".

إلا أننا، رغم ذلك كله، لا نبعد فى تقدير أبى نواس وشعره إلى حد وصفه بالعبقرية كما صنع بعض من كتبوا عنه، ومنهم فيليب كيندى، الذى يذهب إلى حد القول بأن أبا نواس هو أحب شاعر عربى إلى العرب (ص١٣٨). ولا أحسب هذا صحيحا. نعم أبو نواس شاعر مشهور، وشعره سلس إلى حد بعيد، وله خيال بديع فى غير قليل من الأحيان، ويرى عدد من النقاد أن شعره هو السحر بعينه. لكنْ أن يقال إنه أحب شاعر عربى إلى العرب فهذا غير صحيح، وإلا فأين يذهب امرؤ القيس وعنترة وزهير بن أبى سُلْمَى وحسان بن ثابت والخنساء وجرير وعمر بن أبى ربيعة وجميل بثينة وقيس بن الملوح وأبو العتاهية والعباس بن الأحنف وأبو تمام والبحترى وابن الرومى وابن المعتز والشريف

الرضي والمتنبى وأبو فراس الحمدانى وابن زيدون والبهاء زهير وأحمد شوقى وحافظ والعقاد وشكرى وعلى محمود طه وإبراهيم ناجى ومحمود حسن إسماعيل ونزار قبانى وأحمد مطر مثلا؟ لقد حاول كيندى أن يتتبع شهرة أبى نواس لدى من جاؤوا بعده من الشعراء وتأثيره فيهم، وأشار إلى ما كتبه ابن شهيد عنه فى "رسالة التوابع والزوابع" وما كتبه عنه الطيب صالح فى "موسم الهجرة إلى الشمال" على لسان بطله مصطفى واهتمامه بشعره. لكن ذلك شىء، والقول بأنه أحب شاعر عربى إلى العرب شىء آخر. ولا شك أن لـ"الف ليلة وليلة" مدخلا فى الشهرة الواسعة التى أحرزها أبو نواس بين الجماهير التى لا تقرأ شعرا ولا تهتم بالشعر. وهى شهرة تقوم على أنه كان شخصا خفيف الظل وابن نكتة وأنه كان يلازم هارون الرشيد مع أن صلته بهارون الرشيد كانت محدودة جدا، ولم يستطع أن يكسب قلبه تماما. إلا أنه لا بد من إعادة القول بأن هذا أمر يختلف عن كونه أحب شاعر عربى إلى العرب كما هو واضح. وكيف يكون أحب شاعر عربى إلينا، ومعظم شعره مغموس وغائص فى حمأة الدنس والخمر، ومعظم العرب ينفرون من هذا وذاك؟ وأنا نفسى، رغم إعجابى بلغة النواسى وسلاستها وما فى كثير من شعره من حوار حى ووصف رشيق وخيال بديع، لا أعده من الشعراء الحبيبين إلى نفسى لما يفيض به شعره من نجاسة ودنس، بل أجدنى على المستوى الإنسانى أقرب إلى النفور منه منى إلى الإعجاب به.

حالات أبى نواس النفسية المختلفة:

كان أبو نواس ذا حالات: فمن جموح إلى المعاصى لا يبالى ولا يتحشم ولا يفكر فى العواقب:

وعاذلـــــةٍ تعيـــــــبُ عـــــلى عـــــادِى   فقلـــتُ لهـــا: ضــــلَلْتُ طريــــقَ عـــادِى

رجعــــــتُ إلى الخــــــسارةِ والفـــــسادِ ولـــــستُ بـــسالكٍ سُـــبْلَ الرشـــادِ

وأقـــــسمُ لا أجيـــــبُ إلى مـــــلامٍ ولـــو صـــمّمتُ مـــن صـــوتِ المنـــادى

ومـــالى والـــصلاةَ وصـــومَ شـــهرٍ وقَـــصْدَ الحـــجّ أو قَـــصْدَ الجهـــادِ؟

ســأخلعُ، مــا حييــتُ، عِــذارَ رشــدى وألـــبسُ جامحًـــا عُـــذرَ الفـــسادِ

وأعـــــصى عـــــاذلى سرًّا وجهــــرًا وأجعــــل جاعــــةَ الـــشطّار زادى

وآخُـــذُ فى مـــذاهب قـــومِ لـــوطٍ ولا آلُـــو تمـــرُّدَ قـــومِ عـــادِ

ومثلها قوله:

وَقائِــلٍ: هَــل تُريــدُ الحَــجَّ؟ قُلــتُ لَــهُ: نَعَـــم إِذا فَنِيـــتْ لَـــذّاتُ بغـــذاذِ

أَمّـــا وَقُطْرَبُّـــلٌ مِنهـــا بِحَيـــثُ أَرَى فَقُبَّـــةُ الفِـــرْكِ مِـــن أَكنـــافِ كِلْـــواذِ

فَالـــصالِحيةُ فَـــالكَرْخُ الَّتـــى جَمَعَـــتْ شُـــذّاذَ بَغْـــدادَ. مـــا هُـــمْ لى بِـــشُذّاذِ

فَكَيــفَ بِــالحَجِّ لى مــا دُمــتُ مُنغَمِــسًا فى بَيـــتِ قَـــوّادَةٍ أَو بَيـــتِ نَبّـــاذِ؟

وَهَبْــكَ مِــن قَــصْفِ بغــدادٍ تُخَلِّــصُنى كَيـــفَ الـــتَخَلُّصُ لى مِـــن طيزنابـــاذِ؟

ومثلها كذلك الأبيات الواردة فى القصة التى رواها أبو هفان فى "أخبار أبى نواس" على النحو التالى: "حدثنى يوسف بن الداية قال: كنت عند أبى نواس، فقال لى: اسمعْ أبياتا حضرتْ. وأَنْشَدَ:

ومُلِحَّـــةٍ بالعَـــذْل تحـــسب أننـــى بالجهـــلِ أُوثِـــرُ صُـــحْبَة الـــشُّطَّارِ

بَكَـــرَتْ عـــلى مـــن الـــسفاه تلـــومنى وصَرَفْـــتُ معرفتـــى إلى الإنكـــارِ

ورأيـــتُ إيثـــارى اللـــذاذةَ والهـــوى وتعجُّـــلى مـــن طِيـــب هـــذى الـــدارِ

أَحْـــرَى وأَحْـــزَمَ مِـــنْ تنظُّـــر آجِـــلٍ عِلْمِـــى بـــه رَجْـــمٌ مـــن الأخبـــارِ

مـــا جـــاءنى أحـــدٌ يخـــبِّر أنـــه فى جنـــةٍ مُـــذْ مـــات أو فى نـــارِ

... فلما بلغ قوله: "فى جنةٍ مُذْ مات أو فى نار" قلت له: يا هذا، إن لك أعداء ينتظرون منك السقطات فينتهزونها ليجدوا السبيل بها إلى الطعن عليك والقدح فيك إلى السلطان. فاتَّقِ اللهَ فى نفسك، ودع الإفراط والمجون، فإنه مؤدِّيك إلى خسارة الدنيا والآخرة إلا أن يقْبِل اللهُ بك إلى الطريقة المثلى. فإن كنت لم تُظْهِر هذه الأبيات فتَنَاسَها واطْوِها. فقال لى: والله لا أكتمها خوفا. وإن قُضِى شىء كان. وقد كان سَمِعَها غيرى فأخبر بها الفضلَ بن الربيع، وتأدَّى الخبر إلى الرشيد، فما مضى إلا أسبوع حتى حَبَسَه".

ومثلها قوله فى تفضيل الغلمان على النساء وتدليسه فى الاحتجاج على ذاك من كتاب الله، أخزاه الله:

وَعاذِلَـــةٍ تَلُـــومُ عَـــلى اصـــطِفائى غُلامًـــا واضِـــحًا مِثْـــلَ المَهَـــاةِ

وَقالَـــت: قَـــدْ حُرِمْـــتَ، وَلَمْ تُوَفَّـــقْ لِطِيـــبِ هَـــوَى وِصـــالِ الغانِيـــاتِ

فَقُلْـــتُ لَهـــا: جَهِلْـــتِ، فَلَيْـــسَ مـــثلى يخـــــادِعُ نَفـــــسَهُ بِالتُّرَّهـــــاتِ

أَأَخْتـــارُ البِحـــارَ عَـــلَى الـــبَرَارِى وَأَحيانًـــا عَـــلَى ظَبْـــى الفَـــلاةِ؟

دَعِينـــــى لا تَلُـــــومِينى، فَـــــإِنّى عَـــلَى مـــا تَكْـــرَهينَ إِلى المَـــماتِ

بِـــــذا أَوْصَى كِتـــــابُ اللهِ فِينـــــا بِتَفْـــضِيلِ البَـــنِينَ عَـــلى البَنَـــاتِ

إلى هجائه شهر الصوم:

أَلا يـــا شَـــــهْرُ، كَـــــمْ تَبْقَـــى! مَرِضْـــــــنا وَمَلِلْناكـــــــــا

إِذا مــــــا ذُكِــــــرَ الحَمْــــــدُ   لِــــــــــشَوّالٍ ذَمَمْناكـــــــــا

فَيـــــا لَيْتَـــــكَ قَـــــد بِنْـــــتَ   وَمــــــا نَطْمَــــــعُ فى ذاكـــــا

وَلَـــــــو أَمكَـــــــنَ أَن يقْتَـــــــ   ـــــــلَ شَـــــــهْرٌ لَقَتَلناكـــــا

إلى تعليل النفس أوانذاك بأن رحمة الله واسعة لا ينبغى أن يحظرها على العصاة أحد كما فى البيتين التاليين اللذين ختم بهما خمرية من خمرياته:

فَقُــلْ لِمَــن يــدَّعِى فى العِلْــمِ فَلْــسَفَةً:   حَفِظْــتَ شَــيْئًا، وَغابَــتْ عَنْــكَ أَشْــياءُ

لا تَحْظُــرِ العَفْــوَ إِن كُنْــتَ امْــرَءًا حَرِجًــا   فَـــإِنَّ حَظْرَكَـــهُ فى الــــدِّينِ إِزْراءُ

إلى تفكر فى حالات الدنيا، التى لا تصادق أحدا ولا تفى له، وكل حى فيها مصيره إلى الهلاك والدفن فى التراب:

أَيــا رُبَّ وَجْــهٍ فى الـــتُّرابِ عَتيـــقِ   وَيــا رُبَّ حُــسْنٍ فى الـــتُّرابِ رَقيـــقِ

وَيــا رُبَّ حَــزْمٍ فى الـــتُّرابِ وَنَجْــدَةٍ   وَيـــا رُبَّ رَأْى فى الـــتُّرابِ وَثيـــقِ

أَرى كُــلَّ حَــى هالِكًــا وَابْــنَ هالِــكٍ   وَذا نَــسَبٍ فى الهـــالِكينَ عَريـــقِ

فَقُــلْ لِقَريــبِ الــدارِ: إِنَّــكَ ظــاعِنٌ   إِلى مَنـــزِلٍ نـــائى المَحَـــلِّ سَـــحيقِ

إِذا امــتَحَنَ الـــدُّنيا لَبيـــبٌ تَكَـــشَّفَت   لَـــهُ عَـــن عَـــدُوٍّ فى ثِيـــابِ صَـــديقِ

إلى صحوة ضمير وتمجيد لله سبحانه وتذكير باطلاعه على كل خفى:

كُـــــلُّ نـــــاعٍ فَـــــسَيُنْعَى   كُـــــلُّ بـــــاكٍ فَـــــسَيُبْكَى

كُـــــلُّ مَـــــذْخُورٍ سَـــــيَفْنَى   كُـــــلُّ مَـــــذْكُورٍ سَيُنْـــــسَى

لَيـــــــسَ غَيرُ اللهِ يَبْقَـــــــى   مَـــــن عَـــــلَا فـــــاللهُ أَعْـــــلَى

إِنَّ شَـــــيْئًا قَـــــد كُفِينــــا   هُ لَـــــهُ نَـــــسْعَى وَنَـــــشْقَى

إِنَّ لِلــــــشَّرِّ وَلِلْخَيــــــ   ــــرِ لَـــسِيما ليـــسَ تَخْفَـــى

كُـــلُّ مُـــسْتَخْفٍ بِـــسِرٍّ   فَمِـــنَ اللهِ بِمَـــرْأَى

لا تَـــرَى شـــيئا عـــلى الـــ   ــــلهِ مِـــنَ الأَشْـــياءِ يَخْفَـــى

إلى نوبات وعظ للناس كى يتنبهوا ويستعدوا للموت وما بعد الموت، إذ كتب أبو هفان فى "أخبار أبى نواس" أن "صديقا لأبى نواس مات، وكان يأنس به، فوجد عليه وجدا شديدا، واشتد غمه وقلقه وجزعه لفقده، وشيع جنازته، فلما صَلَّوْا عليه وصَيروه فى حفرته ووارَوْه فى لحده خرج أبو نواس من قبره، وكان فيمن ألحده، فاستقبل الناس الذين شيعوا الجنازة بوجهه وقال بصوت شَجٍ وإجهاش:

يـــا بنـــى الـــنقص والعِـــبَرْ   وبنـــى الـــضعف والخَـــوَرْ

وبنـــى البُعْـــد فى الطبـــا   ع عـــلى القُـــرْب فى الـــصُّوَرْ

والـــشخوص التـــى تَبَـــا   يـــنُ فى الطـــول والقِـــصَرْ

احتـــساء مـــن الحـــرا   م وحـــتما عـــلى الـــضَرَرْ

أيـــن مَـــنْ كـــان قـــبلكم   مـــن ذوى البـــأس والخطـــرْ؟

ســـائِلوا عـــنهم المـــدا   ئـــنَ واســـتبحِثوا الخـــبرْ

ســـبقونا إلى الرحيـــ   ــــل، وإنـــا لفـــى الأثـــرْ

مَـــنْ مـــضى عـــبرةٌ لنـــا   وغَـــدًا نحـــن معتـــبَرْ

إن للمـــوت لمحـــةً   تـــسبق اللمـــحَ بالبَـــصَرْ

وكـــأنى بكـــم غـــدًا   فى ثيـــابٍ مـــن المَـــدَرْ

قـــــد نُقِلْــــتُم مـــــن القـــــصو ر إلى ظلمـــــــــــــة الحُفَـــــــــــرْ

حيـــــــث لا تُــــــضْرَب القبــــــا بُ عليكـــــــــــم ولا الحُجَــــــــــرْ

حيـــــــث لا تَظْهَـــــــرون منــــــــ ـــــــــها لِلَّهْــــــــو والـــــــسَّمَرْ

رحـــــــــــم الله مـــــــــــسلما ذكـــــــر المــــــوت فــــــادَّكَرْ

رحـــــــــــم الله مـــــــــــسلما خـــــاف فاستـــــشعر الحَـــــذَرْ

إلى ابتهال لله فى مناسك الحج كأحسن ما يكون الابتهال:

إِلَهَنــــــــا، مـــــــا أَعْـــــــــدَلَكْ

مَليــــــــكَ كُـــــــلِّ مَـــــــن مَلَـــــــكْ

لَبَّيــــــــكَ! قَــــــدْ لَبَّيــــــتُ لَــــــكْ

لَبَّيــــــــكَ! إِنَّ الحَمْــــــــــدَ لَــــــكْ

وَالمُلْــــــــكَ لا شَريــــــــكَ لَــــــكْ

مــــــا خــــــابَ عَبــــــدٌ سَــــــأَلَكْ

أَنــــــتَ لَــــــهُ حَيــــــثُ سَــــــلَكْ

لَــــــوْلَاكَ يــــــا رَبُّ هَلَــــــكْ

لَبَّيــــــــكَ! إِنَّ الحَمْــــــــــدَ لَــــــكْ

وَالمُلْــــــــكَ لا شَريــــــــكَ لَــــــكْ

كُــــــلُّ نَبِــــــى وَمَلَــــــكْ

وَكُــــــلُّ مَــــــنْ أَهَــــــلَّ لَــــــكْ

وَكُـــــــــلُّ عَبْــــــــدٍ سَـــــــــأَلَكْ

سَـــــــبَّحَ أَوْ لَبَّـــــــــى فَلَـــــــــكْ

لَبَّيْـــــــكَ! إِنَّ الحَمــــــــــدَ لَـــــــكْ

وَالمُلْــــــــكَ لا شَريــــــــكَ لَـــــــكْ

وَاللَّيْــــــــل لمَّــــــــا أَن حَلَــــــــكْ

وَالــــــــــــسابِحات فى الفَلَـــــــــــكْ

عَـــــــلى مَجــــــــارِى المُنْــــــــسَلَكْ

لَبَّيْـــــــكَ! إِنَّ الحَمــــــــدَ لَـــــــكْ

وَالمُلْــــــــكَ لا شَريــــــــكَ لَـــــــكْ

اعْمَـــــــــلْ، وَبـــــــادِرْ أَجَلَـــــــكْ

وَاخْــــــــتِمْ بِــــــــخَيرِ عَمَلَـــــــكْ

لَبَّيْـــــــكَ! إِنَّ الحَمْــــــــدَ لَـــــــكْ

وَالمُلْــــــــكَ لا شَريــــــــكَ لَـــــــكْ

إلى موعظة نفسه كى يتوب ويقلع عما يجترحه من آثام:

سـبحانَ عَــــلّامِ الغُيــوبِ   عَجَبًــا لِتَـصْريفِ الخُطــوبِ

تَغْــدُو عـــلى قَطْــفِ النفـو   سِ، وَتَجْتَنِـــى ثَمَـــرَ القُلــوبِ

حَتّـــى متـــى يـــا نَفــسُ تَغْـــ   ـــتَرّينَ بِالأَمَـــلِ الكَـــذوبِ؟

يــا نَفــسُ، تــوبى قَبْـــلَ أَن   لا تَــستَطيعى أَن تَتُــوبى

وَاســــتَغْفِرِى لِــــذُنُوبِكِ الــــر رَحْمَـــــنَ غَفَّــــارَ الــــذنوبِ

إِنَّ الحَــــــوادِثَ كَالرِّيـــــا حِ عَلَيــــكِ دائِمَــــةُ الهُبــــوبِ

وَالمــــــوتُ شَرْعٌ واحِــــــدٌ وَالخَلْـــقُ مُخْتَلِفُــــو الــــضُّرُوبِ

والــــسعى فى طَلَـــبِ التُّقَـــى مِـــن خَيرِ مَكْــسَبَةِ الكَــسُوبِ

وَلَقَلَّـــــما ينْجُــــو الفَتَـــــى، بِتُقَـــاهُ، مِــــن لُطَـــخِ العيـــوبِ

إلى التذكير بأن الله يراقبنا دوما ويرى كل ما نرتكبه من معاصٍ وذنوب:

إِذا مــا خَلَـوْتَ الـدهرَ يومـا فَـلا تَقُـلْ: "خَلَـوْتُ"، وَلَكِـن قُـل: "عَـلَى رقيـبُ"

وَلا تَحـــسَبَنَّ اللهَ يغْفُـــلُ ســـاعةً وَلا أَنَّ مـــا يخْفَـــى عَلَيـــكَ يغِيـــبُ

لَهَوْنـــا بِعُمْـــرٍ طـــالَ حَتّـــى تَرادَفَـــتْ ذُنُـــوبٌ عـــلى آثـــارِهِنَّ ذُنُـــوبُ

ومما يلفت النظر أنه، وهو غارق فى لجج المعاصى لا يبالى ولا يفكر فى التطهر، قد صدرت عنه ثلاثة أبيات عجيبة:

تَكَثَّــرْ مـــا اسْـــتَطَعْتَ مِـــنَ الخَطَايـــا فَإِنَّـــكَ قاصِـــدٌ رَبًّـــا غَفُـــورَا

سَيفْـــضِى ذاكَ مِنْـــكَ إِلى نَعِيـــمٍ وَتَلْقَـــى ماجِـــدًا صَـــمَدًا شَـــكُورَا

تَعَـــضُّ، نَدامَـــةً، كَفَّيـــكَ مِمّـــا تَرَكْـــتَ، مَخَافَـــةَ النَّـــارِ، الـــسُّرُورَا

ومثلها هذه الأربعة الأخرى التى أحب أن أوردها فى سياقها بتمامه كما وجدتها فى "نزهةالألباء فى طبقات الأدباء" للأنبارى: "قال أحمد بن يحيى عن محمد بن رافع، قال: كان أبو نواس لى صديقا، فوقعت بينى وبينه هجرة فى آخر عمره، ثم بلغتنى وفاته، فتضاعف على الحزن. فبينا أنا بين النائم واليقظان إذا أنا به، فقلت: أبو نواس؟ فقال: لاتَ حينَ كُنْية! قلت: الحسن بن هانئ؟ قال: نعم.

قلت: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لى بأبيات قلتها هى تحت ثِنْى الوسادة. فأتيت أهله، فلما أحسوا بى أجهشوا بالبكاء، فقلت: هل قال أخى شعرًا قبل موته؟ قالوا: لا نعلم، إلا أنه دعا بدواة وقرطاس، وكتب شيئا لا ندرى ما هو. فقلت: أتأذنون لى أن أدخل؟ فدخلت إلى مرقده، فإذا ثيابه لم تحرك بعد. فرفعت وسادة فلم أر شيئا، ثم رفعت أخرى، فإذا أنا برقعة فيها مكتوب:

"يا رَبِّ، إن عَظُمَت ذُنوبى كَثرَةً فَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ

إن كانَ لا يرْجُوكَ إِلّا مُحْسِنٌ فَبِمَنْ يلوذُ وَيسْتَجِيرُ الْمُجْرِمُ؟

أَدْعُوكَ رَبِّ كَما أَمَرتَ تَضَرُّعًا فَإِذا رَدَدْتَ يدِى فَمَنْ ذا يرْحَمُ؟

ما لى إِلَيكَ وَسِيلَةٌ إِلّا الرَّجَا وَجَمِيلُ عَفوِكَ ثُمَّ أَنِّى مُسْلِمُ"

وهى أبيات تعكس اطمئنانا مطلقا إلى رحمة الله وكرمه حتى كأنْ ليس له سبحانه من صفة غير الرحمة والكرم والغفران. وقد بلغ الأمر من هذا الجانب أن وضعت إحدى الباحثات السعوديات رسالة جامعية حصلت بها على الماجستير من جامعة أم القرى بمكة المكرمة عام ٢٠١٣م موضوعها: "القيم الإسلامية فى شعر أبى نواس" تاركة كل الجوانب الأخرى فى شعر أبى نواس، ومركزة على هذا الجانب وحده دون سواه. وتكمن دلالة وضع الرسالة فى أن شعر أبى نواس الدينى على قِلَّتِه ليس بالذى يمكن غض النظر عنه رغم كل ما نَظَمه فى المجون والتهتك والآثام والشذوذ.

إننا جميعا نعرف أن الله رحيم كريم غفار للذنوب عفو عن السيئات، لكنه أيضا ذو عقاب وطَوْل قد أعد جهنم للعصاة المارقين. ومع هذا فثم فرق بين عاص وعاص: فهناك العاصى المتمرد الجاحد الذى لا يوقِّر ربه ولا يضعه فى

حسبانه، ويتمرد تحديا، وهناك العاصى الضعيف العاجز الذى لا يستطيع الانتهاء عما نهى الله عنه، لكنه رغم هذا مؤمن به سبحانه وتعالى متعلق بأستار عفوه وغفرانه، فهو يعلل نفسه بأنه عز وجل لن يعذبه بل سوف يرأف به وبحاله. وأمثاله يضعون نصب أعينهم قوله عز شأنه: "ومَنْ يقْنَطُ مِنْ رحمةِ ربِّه إلا الضالُّون؟" وقوله: "قل: ياعبادىَ الذين أسرفوا على أنفسهم، لا تَقْنَطُوا من رحمة الله. إن الله يغفرُ الذنوبَ جميعًا. إنه هو الغفورُ الرحيمُ" لا يرَوْن غيره.

كما يقفون لَدُنْ نوعٍ بعينه من أحاديث الرسول كالحديث الذى يذكر "أنَّ رجلًا أذنبَ ذنبًا فقالَ: يا ربِّ، إنِّى أذنبتُ ذنبًا فاغفرْهُ. فقالَ اللَّهُ: عبدى عمِلَ ذنبًا فعلِمَ أنَّ لَهُ رَبًّا يغفرُ الذَّنْبَ ويأخذُ بِهِ. قد غفرتُ لعبدى. ثمَّ عمِلَ ذنبًا آخرَ فقالَ: ربِّ، إنِّى عمِلتُ ذنبًا فاغفرْهُ. فقالَ تباركَ وتعالى: علِمَ عبدى أنَّ لَهُ ربًّا يغفرُ الذَّنبَ ويأخذُ بِهِ. قد غفرتُ لعبدى. ثمَّ عمِلَ ذنبًا آخَرَ فقالَ: ربِّ، إنِّى عَمِلْتُ ذنبًا فاغفرهُ لى. فقالَ عزَّ وجلَّ: علِمَ عبدى أنَّ لَهُ ربًّا يغفرُ الذَّنبَ ويأخذُ بِهِ. قد غفرتُ لعبدى. ثمَّ عمِلَ ذنبًا آخرَ فقالَ: ربِّ، إنِّى عمِلتُ ذنبًا فا غفرهُ. فقالَ عزَّ وجلَّ: عبدى علِمَ أنَّ لَهُ ربًّا يغفرُ الذَّنبَ ويأخذُ بِهِ. أُشْهِدُكُم أنِّى قد غفرتُ لعبدى، فلْيعْمَلْ ما شاء".

أو ذلك الحديث الآخر الذى يقول فيه أبو هريرة رضى الله عنه: "كنَّا قُعُودًا حولَ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ معنا أبو بكرٍ وعمرُ فى نَفَرٍ، فقامَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ من بينِ أظهُرِنا فأبطأَ علينا، وخَشِينا أن يقْتَطعَ دونَنا وفزِعْنا فقمنا، فكنتُ أوَّلَ من فَزِعَ فخرجتُ أبتغى رسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ حتَّى أتيتُ حائطًا للأنصارِ لبنى النَّجَّارِ فدُرْتُ بِهِ أجدُ لهُ بابًا فلم أجد، فإذا ربيعٌ يدخلُ فى جوفِ حائطٍ من بئرٍ خارجةٍ (والرَّبيعُ: الجدوَلُ)، فاحتفزتُ كما يحتفِزُ الثَّعلبُ

فدخلتُ على رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ، فقالَ: أبو هريرةَ؟ فقلتُ: نعم يا رسولَ اللَّهِ. قالَ: ما شأنُكَ؟ قلتُ: كنتَ بينَ أَظْهُرِنا فقمتَ فأبطأتَ علينا، فخَشِينا أن تُقْطَعَ دونَنا ففزِعنا، فكنتُ أوَّلَ مَنْ فَزِعَ فأتيتُ هذا الحائطَ فاحتفزتُ كما يحتفِزُ الثَّعلبُ، وهؤلاءِ النَّاسُ ورائى. فقالَ: يا أبا هريرة (وأعطانى نعليهِ)، قالَ: اذهب بنعلى هاتينِ، فمَنْ لَقِيتَ مِنْ وراءِ هذا الحائطِ يشهدُ ألّا إلهَ إلَّا اللَّهُ مُسْتَيقِنًا بها قلبُهُ فبَشِّرْهُ بالجنَّة. فكانَ أوَّلَ من لقيتُ عمرُ؟ فقالَ: ما هاتانِ النَّعْلانِ يا أبا هريرةَ؟ فقلتُ: هاتانِ نعلا رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ بعثنى بهما: من لقيتُ يشهدُ ألا إلهَ إلَّا اللَّهُ مستيقِنًا بها قلبهُ بشَّرتُهُ بالجنَّةِ. فضربَ عمرُ بيدِهِ بينَ ثَدْيى، فخررتُ لِاسْتِى، فقالَ: ارجِع يا أبا هريرةَ. فرجعتُ إلى رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ فأجهشتُ بكاءً، وركِبنى عمرُ، فإذا هوَ على أَثَرى، فقالَ لى رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ: ما لكَ يا أبا هريرة؟ قلتُ: لَقِيتُ عمرَ فأخبرتُهُ بالَّذى بعثتنى بهِ، فضربَ بينَ ثديى ضربةً خررتُ لِاسْتِى، قالَ: ارجع. فقالَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ: يا عمرُ، ما حملكَ على ما فعلتَ؟ قالَ: يا رسولَ اللَّهِ، بأبى أنتَ وأمِّى، أبعثتَ أبا هريرةَ بنعليكَ من لَقِى يشهدُ ألا إلهَ إلَّا اللَّهُ مستيقنًا بها قلبُهُ بَشَّرهُ بالجنَّةِ؟ قالَ: نعم. قالَ: فلا تفعل، فإنِّى أخشى أن يتَّكِلَ النَّاسُ عليها. فخَلِّهم يعملونَ. قالَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ: فخَلِّهم".

وهم يقفون فى هذا الحديث لدى البشارة بالنجاة والجنة مهملين اقتراح عمر لأنه لا يدخل مزاجهم ولا يفيدهم. لكن من يا ترى يستطيع، رغم كل ما قلناه، الجزم بمصير هذا أو ذاك من البشر؟ فلعل هذه الثقة المطلقة فى الله وعطفه ومرحمته تشفع لأبى نواس ومن على شاكلته عند الله يوم القيامة. وأنا لا أحب

من يتألى على الله تعالى، فالمتألى عليه سبحانه هو بمثابة من يشرك ذاته به جل شأنه. ولى شخص أعرفه متوسط التعليم ويشتغل بالتجارة يصلى الصبح والجمعة وما تيسر له من الصلوات إن كان فى رفقة من يصلى، ومع هذا تراه حريصا على تأدية العمرة كلما أتيح له ذلك إيمانا منه بأنها تكفِّر الذنوب. وعبثا أحاول أن أفهمه أن هذا اعتقاد خاطئ، لكنه يصر على ما يعتقد، حتى لقد صرت أقول لنفسى: من يدرى؟ لعله هو ينجو، وتذهب أنت إلى النار. وبالله ما ذا ترانى أصنع أمام هذا الاعتقاد الراسخ والأمل العارم فى غفران الله لقاء العمرة؟ أنا لا أستطيع أن أضربه فى صدره كما فعل عمر بأبى هريرة، وإلا لأخذ على خاطره منى وفسد الأمر بينى وبينه إلى غير إصلاح. ثم إن الله هو الوحيد المطلع على عباده وظروفهم، وهو الوحيد الذى يعلم ماذا يستحق هذا، وماذا يستحق ذاك. أما نحن فعباده الضعفاء الذين ينبغى أن يلزموا حدودهم فلا يتجاوزوها. وأنا، بعد، لست راضيا عن سلوك أبى نواس وأشعر بالغثيان والاشمئزاز الشديد، لكنى لا أملك له من الله شيئا. فلْنَدَعْه لربه، فهو سبحانه أولى به منا لأنه خالقه ورازقه والوحيد العالِم علما مطلقا بظروفه وطاقته! ثم لقد مات أبو نواس منذ قرون طوال وشبع موتا، فلِمَ نزعجه فى مرقده الآن؟ خَلِّنا فى أمورنا!

ويقول عبد الحليم عباس، فى تفسير هذه الآراء المتباينة من النواسى، إن "الشاعر يترجم عن عواطفه أولًا، وهذه العواطف تسكن وتثور، وترضى وتغضب، فتجىء بحالاتها هذه التى يترجمها الشاعر شعرًا بما يحمل على الإيمان وما يحمل على الجحود، وفى الشىء ونقيضه. وقد يكون الشاعر لم يقصد هذا كله أو قصده فى لحظة ولم يقصده فى كل اللحظات، ويجىء مؤرخو الأدب فيقول أحدهم: آمن الرجل. ويقول غيره: بل أغرق فى الإلحاد. وكلهم يدلل على قوله

بحديث لحظة من تلك اللحظات التى مرت بحياة الشاعر. وليس هذا هو الحق والصواب، وإنما الحق والصواب أن تُمْزَج هذه اللحظات التى تكوّن حياة الشاعر ثم يمْزَج معها حالة مِزَاجه، ويسْتَخْرَج من هذا كله حديثُ الإيمان والجحود، وهكذا يجب أن يكون الأمر فى زندقة النواسى".

ثم يسوق عباس طائفة من الشواهد على ما يقول، منتهيا إلى "أن حالة النواسى لم تكن لتساعده على زندقةٍ مُغْرِقَةٍ وكُفْر، ولكنها تساعده أتم مساعدة على التظرف بالاستهانة بألفاظ الدين... وأن حديث الزندقة عند النواسى هو حديث أعصاب متقلبة. وليس المستغرَب منها هذه الحالات من الإيمان والتظرف المُوفِى على الزندقة، وإنما المستغرَب أن تكون إلى غير هذه الحالات ما برحت مضطربة غير مستقرة". وفى هذا التفسير شىء من الصحة فيما أرى، وإن كان من الواضح أن النواسى فى حياته الأولى العاصفة يميل إلى الاستهانة والتشكك أو التظاهر بالتشكك على الأقل وإلى التظرف، والتظرف السمج، بينما فى أواخر عمره صار يميل إلى التسليم ويعبر عن اطمئنانه إلى وجود الحياة الآخرة ويدعو نفسه وغيره إلى الاستعداد لها. ولا شك أن مرضه ونضوب عُرَام الشهوة فى جسده مسؤولان عن جزء كبير من هذا. فليكن. المهم أنه يعلن لنا أنه قد تغير واستقام على الطريقة ويؤمن بالله وبالمعاد ويعمل ويستعد له. وقد كنا نحب له ولغيره ألا ينغمس إلى أنفه فى هذه المجارى المنتنة التى إن لم يقدر الشعور الدينى على وَزْع الشخص عنها لقد كان ينبغى أن يكون الذوق السليم عاصما له من التردى فى نتنها، أو على الأقل: أن يمنعه من التباهى بالغرق فى ذلك النتن والاستزادة منه والإنكار على من يريد له النظافة والطهر والرائحة الطيبة. لكن ماذا نفعل، وهذه هى حياة طائفة من البشر كما تعرضها لنا صحائف التاريخ؟

ويتصل بهذا الجانبِ من شخصية أبى نواس، جانبِ الاطمئنان إلى رحمة الله وكرمه وعفوه عن كل ما يمكن أن يقع فيه ابن آدم من ذنوب، ما كتبه ابن الجوزى فى كتابه: "المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم". قال: "أخبرنا محمد بن عبد الملك بن خيرون قال: أخبرنا أحمد بن على بن ثابت قال: أخبرنا هلال بن محمد بن جعفر الحفار، أخبرنا إسماعيل بن على الخزاعى، أخبرنا محمد بن إبراهيم بن كثير الصوفى، أخبرنا أبو نواس الحسن بن هانئ، حدَّثنا حماد بن سلمة عن يزيد الرقاشى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: لا يموتنَّ أحدكم حتى يحسن ظنه بالله من الخير. قال ابن كثير: ودخلنا على أبى نواس نعوده فى مرضه الذى مات فيه، فقال له عيسى بن موسى الهاشمى: يا أبا على، أنت فى آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة، وبينك وبين الله هنات، فتب إلى الله. قال أبو نواس: أسندونى. فلما استوى جالسًا قال: إياى تخوِّف بالله، وقد حدّثنى حماد بن سلمة عن ثابت البنانى عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لكل نبى شفاعة، وإنى اختبأت شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى يوم القيامة"؟ أفترى لا أكون منهم؟".

وفى "نزهة الألباء فى طبقات الأدباء": "قال الإمام محمد بن إدريس الشافعى رحمه الله: دخلت على أبى نواس وهو يجود بنفسه، فقلتُ: ما أعددتَ لهذا اليوم؟ فقال:

تَعاظَمَنى ذنبى، فلما قَرَنْتُه　　بعفوك، ربى، كان عفوُك أعظما

وقال محمد بن زكرياء: دخلت على أبى نواس وهو يكيد بنفسه، فقال لى: أتكتب؟ فقلت: نعم، فأنشأ يقول:

دَبَّ فِى الفَناءُ سُفْلًا وعُلْوَا　　وأرانى أموت عُضْوًا فعُضْوَا

ذهبـــتْ شِرَّتـــى بحـــدة نفـــسى   وتـــذكرتُ طاعـــة الله نِـــضْوَا

ليـــس مـــن ســاعةٍ مــضت بِــى إلا   نقـــصتْنى بمَرِّهـــا بـــى جُـــزْوَ

وأســـأنا كـــل الإســـاءة يـــا ربْ   بُ، فـــصَفْحًا عنـــا، إلهـــى، وعَفْـــوَا

وحكـى أبـو جعفـر الـصائغ قـال: لمـا احْتُـضِر أبـو نـواس قـال: اكتبـوا هـذه الأبيات على قبرى:

وعَظَتْـــكَ أَجْـــدَاثٌ صُـــمُتْ   ونَعَتْـــكَ أزمنـــةٌ عَفَـــتْ

وتكلمـــتْ عـــن أوجـــهٍ   تبكـــى وعـــن صُـــوَرٍ ســـبتْ

وأرتْـــك قـــبرَك فى القبـــو   ر، وأنـــت حـــى لم تمـــتْ

وإذا صح الشعر التالى لأبى نواس فمعنى ذلك أن شاعرنا الماجن المتهتك قـد بلـغ الغايـة التـى لا غايـة بعـدها فى الاطمئنـان إلى عفـو الله أو فى الاسـتهتار بـاجتراح الـذنوب دون أى خـوف مـن العواقـب. ولا أذكـر أنـى قـرأت مثلـه لأى شاعر آخر قبله ولا بعده ولا خطر فى ظنى يوما أنه مما يمكن أن يمر ببال أحد! قال اليوسى فى "زهر الأَكَم فى الأمثال والحِكَم"، وقد استشهدنا به فيما مضى من الكتاب: "وقال أبو نواس:

تَكَثَّـــرْ مـــا اســـتطعتَ مـــن الخطايـــا   فإنـــك بـــالغٌ ربًّـــا غفـــورا

ستبـــصر، إن وردتَ عليـــه، عَفْـــوًا   و تَلْقَـــى ســـيدًا مَلِكًـــا كـــبيرا

تَعَـــضّ، ندامـــةً، كَفَّيـــكَ ممـــا   تركـــتَ، مخافـــةَ النـــار، الـــسرورا"!

وإن كان هذا الشعر قد ورد فى الديوان على نحو مغاير بعض المغايرة:

تَكَثَّرْ ما استطعتَ من الخطايا فإنك قاصدٌ ربًّا غفورا

سيفضى ذاك منك إلى نعيمٍ وتَلْقَى ماجدًا صمدًا كبيرا

تَعَضّ، ندامةً، كَفَّيكَ مما تركتَ، مخافةَ النار، السرورا!

أبو نواس ووالبة بن الحباب:

هناك قضية أرى من اللازم معالجتها لكثرة من تعرضوا لها من نقادنا ومؤرخى أدبنا ومترجمى شاعرنا، ألا وهى علاقة والبة بن الحباب به، تلك العلاقة التى يصفها بعض الكتاب بالانحراف ويقولون إن أبا نواس كان يمثل الطرف المعتدَى عليه فيها. والذى أريد أن أقوله هو أن تصنيف علاقته بوالبه على أنها انحراف ليس أمرا مفروغا منه، بل يقول به بعض الكتاب فقط. وهو ما ذكرته المادة الخاصة به فى " An Encyclopedia of Male Homosexual Poetry- its Background and History" لبول نوبل (Paul Knobel)، إذ جاء فيها: " His teacher Waliba is believed by some to have had sexual relations with him". وقد أشار أيضا إلى ذلك مستشرقنا قائلا إن والبة قد انجذب جسديا إلى أبى نواس، ومن الممكن أنه كانت هناك علاقة منحرفة بينهما، وإن لم يجزم بشىء على سبيل القطع (ص٤). ثم يعود فيجعل ما صار أبو نواس يصنعه بعد هذا مع الغلمان أثرا من آثار ما صنعه معه والبة. إلا أنه لا بد من المسارعة إلى القول بأننى لم أصادف أحدا من الكتّاب القدماء يذكر هذا الأمر صراحة. بل إن أبا نواس، فيما يبدو لى بكل قوة، لم يكن فى علاقاته الطرف السلبى. وليس فى أشعاره سوى الكلام عن كونه الطرف الفاعل دائما على دنس هذا الأمر ووضاعته وقذارته. كما لم يشهر أحد من خصومه، رغم سلاطة

ألسنتهم وفحش سبابهم، هذه التهمة فى وجهه يذلّه بها. وهو، من جهته، لم يذكر شيئا عن ذلك على عكس أوسكار وايلد مثلا، الذى كان منحرفا، وحَبَّر فى الدفاع عن ذلك الانحراف صفحات كثيرة، وهاجمه المهاجمون جراء هذا، ووضع أحد أبنائه كتابا عن ذلك الموضوع بعد وفاة أبيه يؤلم من يقرؤه أشد الإيلام. أما أبو نواس فليس له من شعر فى هذا المجال إلا فى عدوانه هو على الغلمان، كما أن أحدا من خصومه، كما قلت، لم يرفع فى وجهه تلك التهمة يكسر عينه بها مع أنهم نبزوه بأمه وأبيه نبزا شنيعا.

بل لا يوجد لوالبة أى شعر فى هذا الأمر، ولو كانت هناك مثل تلك العلاقة ما تركها والبة المفحش الفضاح تمر دون أن يشير إليها، على الأقل: ليحطم أنف النواسى بعد أن اشتهر وغطت شهرته على والبة وغير والبة فكسفتهم جميعا. كما أن شعر النواسى يخلو تماما من الخنث والتكسر. ولا ننس أنه هاجم العرب وتقاليدهم الشعرية وعاداتهم وأطعمتهم وأشربتهم ورماهم بالخشونة الحضارية وما إلى ذلك، ومع هذا لم نسمع بأحد من الشعراء العرب قد اتهمه بهذا مع توافر الدواعى على ذلك كما نرى. والعجيب أن يقال إن والبة كان قد اعتدى عليه بينما أول شعر قاله شاعرنا لدن تعارفهما هو غزل فى فتاة. جاء فى "البداية والنهاية" لابن كثير، و"الوافى بالوفيات" لصلاح الدين الصفدى: "قال ابن خلكان: أول شعر قاله أبو نواس لما صحب أبا أسامة والبة بن الحباب:

حامـــل الهـــوى تَعِـــبُ ... يســـتخفّه الطـــربُ

إن بكـــى يحـــقّ لـــه ... ليـــس مـــا بـــه لعـــبُ

تـــضحكين لاهيـــةً ... والمحـــبّ ينتحـــبُ

تعجـــبين مـــن سَـــقَمى ... صـــحتى هـــى العَجَـــبُ"

كذلك فلأبى نواس مرثية فى والبة، فهل يعقل أن يرثى مثلُه مثلَه؟ ولنلاحظ أن تلك العلاقة المزعومة، بافتراض صحتها، كانت قد انقطعت منذ وقت طويل جدا بحيث كان ينبغى أن ينسى شاعرُنا والبةَ تماما أو إنْ تَذَكَّرَه أن يتذكره بالسخط والغيظ لا بالحزن والألم. قال:

فاضَــتْ دُمُوعُــكَ ساكِبَهْ ... جَزَعًـا لِمَصْرَعِ والِبَـهْ

قامَــتْ بِمَــوْتِ أَبِـى أُسَـا ... مَــةَ فى الزُّقَـاقِ النادِبَـهْ

قامَــتْ تَبُــثُّ مِــنَ المَكـا ... رِمِ غَيرَ قِيـلِ الكاذِبَـهْ

فُجِعَــتْ بَنُــو أَسَــدٍ بِــهِ ... وَبَنُــو نِــزارٍ قاطِبَـهْ

بِلِسانِها وَزَعِيمِهـا ... عِنْـدَ الأُمُـورِ الحازِبَـهْ

لا تَبْعَــدَنَّ أَبـا أُسـا ... مَــةَ، فَالمَنِيـةُ واجِبَـهْ

كُــلُّ امْــرِئٍ تَغْتالُــهُ ... منهـا سِهامٌ صـائِبَهْ

كُتِــبَ الفَنَــاءُ عَلى العِبـا ... دِ، فَكُــلُّ نَفْــسٍ ذاهِبَـهْ

كَــمْ مِــن أَخٍ لَــكَ قَــد تَرَكْـ ... ـتَ هُمُومَــهُ بِــكَ ناصِبَهْ

قَــد كـانَ يعْظُــمُ قَبْــلَ مَــوْ ... تِــكَ أن تَنُــوبَ النَّائِبَـهْ

ومع هذا فإن كامل الشناوى، فى كتابه: "اعترافات أبو نواس"، يتحدث عن العلاقة بين الشاعر ووالبة بن الحباب على أنها علاقة منحرفة وأنها لا تحتاج إلى إثبات أو برهان. بل لقد جعل أبا نواس يعترف بها غير خَجِلٍ ولا نادمٍ ولا واجدٍ فيها ما يشِين. ولم يصنع الشناوى شيئا سوى أنْ تخيل حوادث ومواقف وأحاديث ونمَّقها وأزجاها لنا فى هذا الكتاب على أنها حقائق أقر بها أبو نواس نفسه بلسانه.

فماذا نريد أكثر من هذا؟ ومن الغريب أن يقول على لسان أبى نواس إنه، بسبب ما وقع، صار يمقت والبة مقتا شديدا ويشعر نحوه بالخزى والانكسار. وهذا يناقض رثاء أبى نواس لوالبة أولا، والثناء الرائع الجميل الذى أغدقه عليه فى ذلك الرثاء ثانيا.

وشىء آخر غريب هو أن كامل الشناوى لم يكتف بما اتهم به أبا نواس دون دليل سوى التخيل القصصى، بل اتهم شعراء العصر وأهل الفكر جميعهم على لسان النواسى بأنهم كانوا مثله فسوقا ومجونا وزندقة وانحرافا، مؤكدا أن الفساد قد عم مدن الكوفة والبصرة وبغداد، وتغلغل إلى كل مكان بها فى ذلك الأكواخ والقصور والحانات والمساجد، وجميع طبقات المجتمع من فقراء وأغنياء وحكام ومحكومين، وإن كانت الفضيحة قد اقتصرت عليه وحده. وهذا كلام لا يمكن أن يقبله العقل. وقد سبق د. طه حسين إلى ترديده فى صحيفة "السياسة" فى بدايات عشرينات القرن الماضى ونشره بعد ذلك فى الجزء الثانى من "حديث الأربعاء" مدعيا أن أبا نواس ومن على شاكلته من الشعراء كانوا فى مجونهم وإباحيتهم مثالا صادقا للعصر الذى عاشوا فيه، مما استفز العلماء المدققين فهبوا يردون كلامه ويفنّدون فكرته النيئة المتعجلة. ويكفى فى بيان تهافت هذه الفكرة أن الجماعة التى كانت تشارك أبا نواس لهوه ومجونه هى جماعة محدودة يطلق عليها: "عصبة المُجَّان"، ولايبلغون عددًا أصابعَ اليدين طبقا لما ذكره أبو نواس ذاته عنهم فى قوله من قصيدة يهجو بها أبانا اللاحقى حسبما مر بنا قبلا:

يرِيدُ أَن يتَساوَى بِالعُصْبَةِ المُجّانِ

بِعَجْرَدٍ وَعِبادٍ والوالِبى الهِجَانِ

وَابنِ الإِياسِ، الَّذى نا حَ نَخْلَتَى حُلْوانِ

وَابـــــــنِ الخَليـــــــعِ عَـــــــلِي رَيحانَـــــــــــــةِ النُّـــــــــــدْمانِ

أما ما وراء ذلك من الشعراء فلم يكونوا يتزندقون أو يمجنون، بل كانوا بوجه عام يحترمون دينهم ويعملون على صيانة سمعتهم، وإن كانوا بطبيعة الحال بشرا يخطئون كما يصيبون. كما وجدت فى مقال صغير منشور فى "iran-persia.blogspot" بعنوان "Iran: Abu Nawas" أنه ووالبة كانا حبيبين.

ومع هذا نجد من الباحثين من يغرق فى الاتجاه المعاكس فينفى عن أبى نواس مجونه واستهتاره وشذوذه ويردّ ما اتُّهِم به فى هذا الصدد إلى حملة تشهير ضده اشترك فيها بعض كبار رجال الدولة مع طائفة من الشعراء المعاصرين له. وهو تعليل متهافت، إذ معنى ذلك أن العلماء والنقاد والأدباء القدامى كلهم قد أجمعوا على التدليس والكذب واختراع كل تلك الأشعار الماجنة الكثيرة ونسبتها باطلا وزورا إلى أبى نواس دون أن يطرف جفن لواحد منهم ولا لغيرهم من معاصريهم أو ممن جاؤوا بعدهم على مدى القرون المتطاولة فيقول الحقيقة ويكشف التدليس. وهو ما يذكرنا بنظرية ديفيد صمويل مرجليوث المستشرق البريطانى الذى زعم أن الشعر الجاهلى ليس له وجود وأنه من اختراع العصر العباسى. وهى نظرية سخيفة غاية السخف، وقد فندتها قطعة قطعة فى كتابى الذى ترجمت فيه بحث مرجليوث وألحقت به دراسة مطولة تناولتْ كل ما قاله فى هذا الصدد وبينتْ عُوَارَه تفصيلا.

كتب الأستاذ الجامعى الإيرانى د. يوسف هادى بور فى بحث له منشور بموقع "ديوان العرب" بتاريخ ١٨ فبراير ٢٠٠٩م عنوانه: "قراءة جديدة للفكر النواسى" قائلا: "السؤال الذى لا بدّ لنا من طرحه هو: لماذا ترسّخت صورة أبى نواس الماجنة المستهترة فى أذهان الناس، ولم تترسّخ صورة أبى نواس المعروفة

بالأدب والمعرفة مع أنه مشهور بأنه كان من كبار رجال العلم والأدب والحديث فى عصره، كما رأينا وذكرنا أقوال العلماء والمؤرخين فى ذلك؟ ومردّ ذلك إلى بعض المحاولات التشهيرية ضده.

واجه أبو نواس عددا كثيرا من حملات التشهير والتشكيك من جوانب شتّى. تختلف غايات هذه الحملات ومراميها: الاتّجاه الأوّل يتعلّق باتجاهه الفكرى والأدبى وبمذهبه الجديد فى الشعر الذى تمثلت فيه ثورتُه على منهج القصيدة والنظام الشعرى القديم، فخالفه الشعراء الذين كانوا يحافظون على المنهج القديم وبثّوا دعايات كثيرة ضده. الاتّجاه الثانى يتعلّق بعدد من الشعراء المعاندين له، والذّين لهم موقفهم الصريح المؤيد للحكم العباسى والمعارض لِآل البيت. ومن هؤلاء الشعراء مروان بن أبى حفصة وسلم الخاسر والرّقاشى وأبان عبد الحميد اللاحقى شاعر البرامكة. الاتّجاه الثالث مدعوم بالخلفاء والأمراء والوزراء، والذين كان لهم وَضْعُهم الطبقى والاجتماعى الخاصّ إلى جانب ما يتمتّعون به من نفوذ سياسى. وفى الحقيقة كانت لهم شخصيتان: الأولى هى الشخصية الرسمية عند الناس، تحافظ على العفّة والطهارة والرزانة. والثانية شخصية عابثة ماجنة تظهر فى خلواتهم. هؤلاء إذا حضروا مجالس الأنس والطرب مع الغلمان والجوارى والمغنّين جادت قريحتهم بشعرٍ مُسِفٍّ فاحشٍ نسبوه إلى أبى نواس خوفًا من قدرهم وموقعهم الاجتماعى والسياسى، و"العامة الحمقى قد لهجت بأن تنسِبَ كلّ شعرٍ فى المجون إلى أبى نواس. وذلك غلط". الاتجاه الرابع، وهو تهرُّب أبى نواس من هذه المجالس الرسمية لاتّجاهه الفكرى والعقيدتى والدينى. وهذا هو أبو نواس يقول: "إنما يصبر على مجالسة هؤلاء الفحولُ المنقطعون الذّين لا ينبعثون ولا ينطقون إلاّ بأمرهم. والله لكأنّى على النّار إذا دخلتُ عليهم حتى أنصرفَ إلى إخوانى ومن أشاربه لأنى إذا كنتُ

عندهم فلا أملك من أمرى شيئا". وتتّضح لنا مسائل كثيرة عند التعمق فى هذا القول. وهذا قول أبى نواس حيث يقول: "لا أكادُ أقول شعرا جيدا حتّى تكون نفسى طيبة". كان الخلفاء والأمراء يتَمَنَّوْن أن يكون أبو نواس فى بلاطهم ويتقرب إليهم. ولكنه كان بمعزل عن البلاط. وكان ميلُه إلى الناس وميل الناس إليه، "فصار مثلًا فى الناس وأحبّه الخاصة والعامة". و"لم يكن شاعر فى عصر أبى نواس إلا وهو يحسده لميل الناس إليه وشهوتهم لمعاشرته ولبُعْد صِيتِه وظَرْف لسانه". ولا يخفى على الباحث ميله إلى الشعوبية. وذلك كلّه مما لا يؤهّل شاعرا بأن يكون قريبا من الخلفاء والحكام. الاتّجاه الخامس: هذا هو ما عاناه كثيرا وسبّب أن تكثر الأقوال فيه كما جاء فى أحواله: "كان دمثا لطيفا ظريفا حلو المعشر حسنَ الوجه رقيق اللون أبيض حلو الشمائل ناعم الجسم". وكان "فصيحَ اللسان لطيف المنطق مليح الإشارة. وظرفه كان من أهمّ ما تتميز به شخصيته".

ولعلّ اتجاهه هذا إلى الهزل والدعابة، إلى جانب ما تمتّع به من جرأة وحرية فى قول ما كان يخطر بباله، جَعَل الكثيرين ينسبون إليه النوادر والسلوك الماجن والشعر الفاسق. ولهذا نرى فى ديوانه كثيرا من الأبيات لا تحمل خصائص أبى نواس. ولكن ظرفه وهزله كان أشدّ من الجدّ، والجد المخبوء تحت الهزل هو أشد من الجدّ الظاهر. وهو الذى يقول عن نفسه: "وأمّا المجون فما كلّ أحد يحسن أن يمجن، وإنّما المجونُ ظَرْفٌ، ولست أَبْعُدُ فيه عن حدّ الأدب. ولا أتجاوز مقداره". ويؤكّد هذا القول قوله الآخر ممّا نقله محمد بن أبى عمير: "سمعتُ أبا نواس يقول: والله ما فتحتُ سراويلى لحرامٍ قطّ".

ولنفترض أن ما قاله الباحث الإيرانى صحيح فهل حقق ذلك التشوية غايته؟ أبدا، بل عاش أبو نواس حياته بالطول والعرض بمقياسه هو، ونظم فى التوبة والإنابة أشعارا جميلة، وظل عند الناس فى الحالين: حال المجون وحال

الاستغفار ذلك المخلوق الخفيف الظل الذكى اللوذعى، ودارت حوله الحكايات المخترعة كما لم يقع مع أى شاعر آخر. وقد رأينا كيف أجمع النقاد القدماء على الإعلاء من شعره. وهذا يعارض على خط مستقيم ما قاله الباحث المذكور ويزيد نظريته رخاوة وتضعضعا. ثم إن الباحث الإيرانى يحتفى بأبى نواس لشعوبيته وانحيازه إلى آل البيت. فأين هذا الانحياز؟ ولماذا لم يتعرض للاضطهاد؟ وأين أشعاره الكريمة التى يزعمها له الباحث الإيرانى؟ ولقد كان هناك شعراء شيعة يكرهون العباسيين ويدافعون عن حق العلويين فى الخلافة ويرون أن العباسيين قد اختطفوها منهم. فلماذا لم يشوههم المشوهون كما شوهوا النواسى حسب مزاعم الباحث؟ ولماذا لم يتهموهم بالشذوذ والخمر والبذاءة مثلما ادَّعَوْا عليه ذلك؟

وأما زعمه أن شعراء البلاط المناوئين لأبى نواس كانوا إذا نظموا شعرا ماجنا شاذا أسندوه إلى النواسى حتى لا ينفضحوا عند العامة فالجواب عليه من أسهل ما يكون. ألا وهو: ولماذا لا يكتمون هذا الشعر ولايذيعونه أصلا بحيث لا يصل إلى العامة ولا يضْطَرّون من ثم إلى التدليس والقول إنه من نظم النواسى، وكفى الله الماجنين شر التدليس؟ وإذا كان أبو نواس رجلا صالحا مستقيما لا ماجنا فكيف يصدق العامة أنه هو صاحب تلك الأشعار؟ ودعونا من هذا وذاك، وتعالَوْا إلى السؤال البسيط المنطقى التالى: ولماذا لم يدافع النواسى عن نفسه ويقول إنه ليس صاحب تلك الأشعار الشاذة الدنسة؟ ثم أين أشعاره الطاهرة التى لا دنس فيها ولا شذوذ؟ وإذا كان يكره مجالس الكبراء ولا يتردد عليها ليمدحهم ويعيش من فضلات أموالهم فمن أين كان يعيش يا ترى، ونحن نعلم أنه لم يكن له شغلة ولا مشغلة؟ وأين أصدقاؤه ومحبوه فلم يحاولوا توضيح

الحقيقة وإبراء ذمة الرجل؟ ثم إن الروايات التى تدور حوله والنصوص الشعرية التى خلفها وراءه تثبت أنه كان واحدا من الشعراء الذين مدحوا الخصيب والرشيد والأمين والعباس حفيد المنصور وغيرهم. كما ورد بترجمته فى كتاب "الطليعة فى شعراء الشيعة" ذاته أنه كان ينادم الخلفاء ومن دونهم. فكيف يقال إنه كان يتحرى الابتعاد عن الحكام ورجال الدولة؟ أما صلته بالحديث الشريف فقد انحصرت فى نصين اثنين من كلامه صلى الله عليه وسلم لا غير اشترك فى روايتهما.

وبالمناسبة فقد سبق المؤرخ السورى رفيق العظم قبل نحو قرن إلى شىء مما قال به الباحث الإيرانى، إذ قال فى رده أول عشرينات القرن الفائت بجريدة "السياسة" على دراسة د. طه حسين عن الشاعر فى ذات الجريدة فى ذلك الوقت إن المجاهرة بالمجون والاستمتاع بالملذات يتناقض ورواية الحديث التى كان النواسى أحد رجالها ولا يتلاءمان، وإن أكثر ما نقل عن أبى نواس وأضرابه من شعراء المجون إنما هى روايات قصصية بعيدة عن الصحة، ولا يصح اتخاذها دليلا على حالة الأمة الروحية والخلقية فى ذلك العصر. وردّ العظم موجود لمن يريده فى الجزء الثانى من كتاب طه حسين: "حديث الأربعاء".

ويمكن فهم الدافع الذى حدا بالباحث الإيرانى إلى قول ما قاله عن أبى نواس متى ما عرفنا أن الشيعة يعدونه من شعرائهم. ويمكن الرجوع إلى كتاب "الطليعة فى شعراء الشيعة" حيث يلقى القارئ ترجمة للنواسى باعتباره واحدا من شعرائهم. وهذه هى ترجمته هناك، ورقمها ستة وستون: "الحسن بن هانى بن عبد الأول الحكمى، مولى الجراح بن عبيد الله الحكمى عامل خراسان، الشاعر المعروف بأبى نواس الحكمى. كان أحد أدباء الدنيا وشعرائها المتفننين.

وُلِد بالبصرة وخرج منها إلى الكوفة مع والبة بن الحباب، ثم صار إلى بغداد فنادم الخلفاء فمَنْ دونهم، وجمع شعرَه جماعةٌ منهم حمزة الأصبهانى، وهو مطبوع. ولم يجمع واحد منهم شعره كله، وإنما يجمع الرجل ما قدر عليه... ومن شعره فى المذهب (أى المذهب الاثنى عشرى) قوله، وقد بايع المأمونُ للرضا عليه السلام ومَدَحَتْه الشعراء سواه، فَلِيمَ على ذلك، فقال كما رواه جملة من الرواة والمؤرخين:

قيل لى: أنت أشعر الناس طُرًّا — فى المعانى وفى الكلام النبيهِ

لك من جوهر القريض بديعٌ — يثْمِر الدُّرَّ فى يدَى مُجْتَنيهِ

فعلام تركت مدح ابن موسى — والخصال التى تجمَّعْنَ فيه؟

فقلت: لا أستطيع مدح إمامٍ — كان جبريلُ خادمًا لأبيهِ

وقوله فى الأئمة من قصيدة:

مطهَّرون نقياتٌ ثيابهمو — تجرى الصلاة عليهم أينما ذُكِروا

من لم يكن علويا حين تنسبه — فما له فى قديم الدهر مُفْتَخَرُ

واللهُ لما بَرَى خَلْقًا وأتقنه — صَفَّاكُمُو واصطفاكُمْ أيها الخُيرُ

فأنتم الملأ الأعلى، وعندكمو — علم الكتاب وما جاءت به السُّوَرُ

توفى ببغداد سنة خمس أو ست أو ثمان وتسعين ومائة، أو مائتين. وهذا هو الظاهر، لأنه حضر بيعة الرضا على فى الخبر المتقدم. والله أعلم".

ومن المضحك أن ينسب مثل ذلك الشعر لأبى نواس، وليس بينه وبين سائر أشعاره لا فى المضمون ولا فى الأسلوب اللغوى أو الفنى أية وشيجة، علاوة على سخف القول بأن جبريل كان خادما لأبى موسى أو أن العلويين هم

الملأ الأعلى فى السماء. والحق أنه لا يشرّف آل البيت أن يكون النواسى واحدا من شعرائهم. وهذا إن كان أبو نواس أصلا ممن يهتمون بالانتساب إلى أية فرقة من الفرق والدخول فى متاهة من يستحقون الحكم وراثةً عن النبى عليه السلام ومن لا يستحقونه، وهو ما لم يهتم به شاعرنا فى يوم من الأيام.

خلف الأحمر واتهامه بتزييف الأشعار:

ومن الأمور التى تستحق التريث إزاءها كذلك فى كتاب كيندى ما ذكره ذلك المستشرق من أن خلفا الأحمر، وهو أيضا ممن تتلمذ على أيديهم شاعرنا، كان يصنع الشعر وينحله الشعراء القدامى كالشنفرى، الذى وضع عليه فى رأى بعض الرواة القصيدة المشهور بـ"لامية العرب"، وإن لم يكن هناك قَطْعٌ بهذا (ص٤-٥). لكن فى نفسى شيئا من هذا الاتهام، إذ كيف يكون الأمر كذلك ولا يتناوله أبو نواس فى شعره، وكان قريبا منه، وهو الذى لم يترك ادعاء من أى شاعر يعرفه إلا فضحه وسخر منه شعرا؟ ثم ما الذى يجنيه خَلَف من صنع قصيدة بارعة مثل هذه ثم يتخلى عنها لشاعر مات منذ وقت طويل لن يستفيد منه شيئا؟ إن هذا عبث لا معنى له ولا منطق فيه ولا يدخل العقل أبدا. ثم هل فى شعر خلف المنسوب فعلا إليه ما يشبه تلك القصيدة فى روحها ومضمونها؟ ولماذا لم تصلنا روايات عن الطريقة والظروف التى أحاطت بتزييفه الأشعار ونحله إياها للمتقدمين والبواعث التى حملته على ارتكاب ذلك العبث؟ لقد كان الرجل راوية للشعر ولغويا وشاعرا صغيرا قليل النظم، فكيف يقال إنه هو ناظم اللامية المذكورة؟

وهناك قصيدة أخرى للشنفرى قال بعضٌ إنها من نظم خَلَف. وقد أورد الخالديان فى كتابهما: "الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهليين

والمخضرمين" حكاية أُحِبّ أن أسوقها هنا لشبهها بحكاية "لامية العرب" والخلاف حول نسبتها مما يمكن أن يلقى الضوء على تلك القضية ويعيننا على حلها. قال الخالديان: "وقد زعم قوم من العلماء أن الشّعر الذى كتبْنا للشنفرى هو لخلف الأحمر، وهذا غلط. ونحن نذكر الخبر فى ذلك: أخبرنا الصّولى عن أبى العيناء قال: حضرت مجلس العُتْبِى، ورجلٌ يقرأ عليه الشعر للشنفرى حتَّى أتى على القصيدة الَّتى أوَّلها:

إنَّ بالشِّعْب الذى دون سَلْعٍ   لَقَتِيلًا دَمُه ما يطَلُّ

فقال بعض من كان فى المجلس: هذه القصيدة لخلف الأحمر. فضحك العُتْبِى من قوله، فسألناه عن سبب ضحكه، فقال: والله ما قال أبو محرزٍ خلفٌ من هذه القصيدة بيتًا واحدًا، وما هى إلاَّ للشنفرى، وكان لها خبرٌ طريف لم يبقَ مَن يعرفه غيرى. قلنا: وما خبرها؟ قال: جلسنا يومًا بالمِرْبَد، ونحن جماعة من أهل الأدب، ومعنا خلف الأحمر، فتذاكرنا أشعار العرب. وكان خلف الأحمر أروانا لها وأبصرنا بها، فتذاكرنا منها صدرًا، ثمَّ أفضينا إلى أشعارنا فخضنا فيها ساعةً. فبَيَنَا خلفٌ ينشدنا قصيدةً له فى روى قصيدة الشَّنفرَى هذه وقافيتها يذكر فيها ولد أمير المؤمنين عليه السلام وما نالهم وجرى عليهم من الظّلم إذ هجم علينا الأصمعى، وكان منحرفًا عن أهل البيت عليهم السلام، وقد أنشد خلف بعض الشعر. فلمّا نظر الأصمعى قَطَعَ ما كان ينشد من شعره ودخل فى غيره إلا أنَّه على الوزن والقافية. ولم يكن فينا أحد عرف هذا الشعر ولا رواه للشنفرى، فتحيرنا لذلك وظننَّاه شيئًا عمله على البديهة. فلما انصرف الأصمعى قلنا له: "قد عرفنا غرضك فيما فعلت"، وأقبلنا نُطْرِيه ونقرّظه، فقال: إنْ كان تقريظكم لى لأنى عملت الشِّعْر فما عملته والله، ولكنَّه للشنفرى يرثى تأبَّط شرًّا. والله لو

سمع الأصمعى بيتًا من الشعر الَّذى كنت أنشدكموه ما أمسى أو يقوم به خطيبًا على منبر البصرة فيتْلِف نفسى. فادّعاء شعرٍ لو أردتُ قول مثله ما تعذَّر على أهون عندى من أن يتَّصل بالسلطان فألحق باللَّطيف الخبير. قال أبو العيناء: فسألنا العتبى شعر خلف الذى ذكر فيه أهل البيت عليهم السلام، فدافعَنا مدَّة ثمَّ أنشدنا:

قَـــدْكَ منِّـــى صـــارمٌ مـــا يفَـــلُّ وابـــنُ حـــزمٍ عقـــدُه لا يحـــلُّ

ينثنـــى بـــاللَّوم مِـــن عاذِليـــهِ مـــا يبَـــالى أكْثَـــرُوا أم أَقَلُّـــوا

لرســـــــول الله فى أقربيـــــــهِ وبَنِيـــهِ حيـــثُ ســـاروا وحلُّـــوا

عنـــــده مكنـــــون نُـــــصْحٍ ودٍّ خـــالصٍ لم يقتـــدحْ فيـــه غِـــلُّ

أهـــل بيـــت مـــا عـــلى جاحِـــدِيهم حقَّهـــم فى الزُّبُـــر ألَّا يـــصَلُّوا

صـــــفوةُ الله الأُلَى مـــــن لَدُنْـــــهُ لهـــم القـــدرُ الأعـــزُّ الأجـــلُّ

مـــا أطـــاعَ اللهَ قـــومٌ تَوَلَّـــوْا مـــن ســـواهم بـــل عَـــصَوْهُ وضـــلُّوا

وبهـــم شُـــقَّ دُجَـــى الغَـــى عـــنهم وعـــلى الإيـــمانِ والـــدِّين دُلُّـــوا

وبهـــم صُـــبَّت عـــلى كـــلِّ بـــاغٍ بـــــاذخِ العـــــزِّ صَـــــغَارٌ وذلُّ

غَـــصَبوهم حقَّهـــم واســـتحَلّوا ظـــالموهُم منـــه مـــا لا يحِـــلُّ

واقْتَـــدَوْا فيهـــم بـــما سَـــنَّ رِجْـــسٌ بـــــارَزَ اللهَ زنيـــــمٌ عُتُـــــلُّ

لم يراقَـــبْ، خـــشيةَ الله، فيهـــم آصِرٌ منـــــــه ولم يـــــــرْعَ إلَّ

فهُمُـــو شَـــتَّى قتيـــلٌ صريـــعٌ دمُـــهُ فيهـــم حـــذارًا يطَـــلُّ

... إلخ ".

كـذلك فالقـصيدة معـزوة للـشنفرى فى "الحماسـة البـصرية"، و"الأشـباه والنظائر" للخالديين، و"التذكرة الحمدونية" لابن حمدون، و"الرسالة المُوضِحة" للحاتمى، و"الفَسْر" لابن جنى، و"رسالة الصاهل والشاحج" للمعرى، و"معجم البلـدان" ليـاقوت الحمـوى، و"القـوافى" لأبـى عـلى التنـوخى، و"شرح ديـوان الحماسـة" للخطيـب التبريـزى، و"مختـارات شـعراء العـرب" لابـن الـشجرى، و"منتهى الطلب من أشعار العرب" لابن ميمون، و"نسمة السَّحَر فى ذكر مَنْ تـشيع وشَـعَر" لابـن ميمـون أيـضا، و"شرح نهـج البلاغـة" لابـن أبـى الحديـد، و"المنازل والديار" لابن منقذ، و"بغية الطلب" لابن العديم، و"خزانة الأدب" للبغدادى، و"مجانى الأدب" للويس شيخو، و"جواهر الأدب" لأحمد الهاشمى...

وفى "الـوافى بالوفيـات" لـصلاح الـدين الـصفدى: "قـال الرياشـى: سـمعت الأخفش يقول: ولم ندرك أحدا أعلم بالشعر من خلف الأحمر والأصمعى. قلت: أيهما كـان أعلـم؟ قـال: الأصـمعى. قلـت: لم؟ قـال: لأنـه كـان أعلـم بـالنحو. قـال خلف الأحمر: أنا وضعت على النابغة القصيدة التى منها:

خيـــل صـــيامٌ، وخيـــلٌ غير صـــائمةٍ تحـت العَجَـاج، وأخـرى تَعْلِـك اللُّجُـما

وقـال أبـو الطيـب اللّغـوى: كـان خلـف الأحمـر يـصنع الـشعر وينـسبه إلى العرب، فلا يعْرَف، ثـم نسك، وكان يختم القرآن كلّ يوم وليلة. وبذل له بعض الملوك العظماء مالًا عظيمًا على أن يتكلم فى بيت شعر شكّوا فيه، فأبى ذلك وقال: قـد مـضى لى فيـه مـا لا أحتـاج أن أزيـد عليـه. وكـان قـد قـرأ أهـل الكوفـة عليـه أشعارهم، فكانوا يقصدونه لما مات حماد الراوية. فلما نسك خرج إلى أهل الكوفة يعرِّفهم الأشعار التى أدخلها فى أشعار الناس، فقالوا له: أنت كنت عندنا فى ذلك الوقت أوثق منك الساعة. فبقى ذلك فى روايتهم إلى الآن". وهو خبر طريف بل

مضحك، إذ لو كان هذا صحيحا فلم يا ترى لم يكتب كتابا يذكر فيه القصائد التى نحلها الجاهليين والدوافع التى بعثتْه على ذلك، فيريح ويستريح؟ ثم هل من المعقول أن يصدقه أهل مدينته أيام انحرافه، ويكذبوه حين تاب وأناب. فلماذا؟ وما الذى حمله يا ترى على تجشم كل تلك المشاق والتخلى عن ثمار قريحته لشعراء جاهليين ماتوا منذ زمن طويل ولن يحصل منهم على شىء بالمقابل ولا حتى على كلمة ثناء أو إعجاب ولا كانوا من قبيلته ولا كانت ذرياتهم لتعطيه شيئا على هذه المنحولات؟ ثم هل يستطيع إنسان أن يختم القرآن كل يوم كما تقول الرواية عنه؟ وهل هذه هى الطريقة التى يتَصَوَّر أن رجلا كخلف كان يتعامل بها مع القرآن فيهذّه هَذًّا دون تأمل أو تذوق، وكأن عليه مقطوعية كل يوم لا بد أن ينجزها بالباع والذراع؟ وهل يقتضى التنسك ترك المباحثات فى العلم؟ ثم إن بقية الخبر تقول كلاما مناقضا لهذا، إذ تصوره وهو يتحدث إلى أهل الكوفة فى الشعر الذى زيفه على الشعراء الماضين. وفى النهاية أين كلامه التى يحدد فيه الأشعار التى نحلها والظروف التى نحلها فيها والدوافع التى بعثته على ذلك؟

أبو نواس فى مرآة التحليل النفسى:

وتبقى أخيرا محاولة التحليل النفسى لشخصية أبى نواس لإسكان شذوذه فى خانة من خاناته. وهى محاولة لا أجد لها فى نفسى ميلا رغم أنى لست ممن يرَوْن إبعاد النقد الأدبى عن الاستفادة من نتائج علم النفس بل أُحَبِّذ من يقْبِل على هذا الأمر ما دام قد أخذ له العُدَّة واضعا فى ذهنه قبل كل شىء أن ما يتوصل إليه فى هذا الصدد هو مجرد اجتهاد يقبل التصويب والتخطئة، وبخاصة إذا كان الشخص الذى نُخْضِعه لمثل ذلك التحليل قد مات منذ وقت طويل، ولم نعد

قادرين على التعامل معه مباشرة، وعلى وجه أخص حين نرى الروايات التى تتحدث عنه غير يقينية، فضلا عن أنها فى بعض الأحيان متضاربة كما هو الحال فى وضع أبى نواس، الذى مات وشبع موتا منذ قرون، واختلطت بحقائق حياته المبالغات والخرافات، واختلطت أشعاره وأشعار بعض معاصريه، فكان منها غير الموثوق به.

ومن هنا فإنى، أمام الكتاب الذى ألفه العقاد عن شاعرنا، بين أمرين: الإعجاب البالغ بتعمق كاتبنا الكبير فى قراءة مؤلفات علم النفس والتحليل النفسى بلغة أجنبية، والتخوف من الوقوع فى الأخطاء جراء الثقة الشديدة بهذه المؤلفات وما تحتوى عليه من نظريات وآراء ليست لها الصلابة المطلوبة، وبخاصة إذا اعتبرنا الظروف التى تتعلق بشاعرنا العباسى وما يترتب عليها، إذ يحاول العقاد تحليل نفسية أبى نواس على ذلك البعد الزمانى والمكانى الهائل وليس كما يصنع المحللون النفسيون حين يحضرون المريض ويطلبون منه التمدد على النَّضَد أمامهم تاركين إياه يتكلم ويغوص فى أعماق شخصيته بينما يستمعون هم ويفكرون ويحللون. ويزيد تخوفى هنا أن العقاد يعمل على إرجاع كل شىء فى شخصية النواسى إلى تأثير عامل واحد هو النرجسية يفسر بها جميع جوانب شخصيته وتصرفاته وأفكاره ومشاعره. كذلك فالشواهد التى يوردها لتعضيد نظريته ليست هى الشواهد الوحيدة الموجودة بل توجد شواهد أخرى إلى جانبها تناقضها، لكن العقاد فى غمرة تحمسه لنظريته أهملها. ولو أنه استشهد بها هى أيضا لتغيرت نظريته قليلا أو كثيرا.

ولن أتحدث هنا إلا عن هذه "النرجسية" لأرى هل كان أبو نواس نرجسيا فعلا أو لا. يقول العقاد فى تفسير أصل ذلك المصطلح: "كان اليونانيون

الأقدمون يطلقون اسم "نرجس" على فتى من فتيان الأساطير بارع الحسن ساحر الشمائل يفتن من يراه ويشْقِى بجماله وتيهه قلوب العذارى الخفرات، فلا يلتفت إليهن ولا يستجيب لضراعتهن. ولم يزل كذلك حتى ضجت السماء بدعاء عاشقاته وصلواتهن إلى الأرباب أن يصرفوهن عنه أو يصرفوه عنهن. واستجابت نمسسى ربة القِصَاص والجزاء إلى هذا الدعاء، فقضت عليه أن يهيم بحب نفسه ويلْقَى منها الشقاء الذى تلقاه منه عاشقاته. قال رواة الأساطير: فما هو إلا أن ذهب يشرب من ينبوع صاف حتى لمح صورته فى مائه، فوقف عندها يعجب من جمالها، وأذهلته الفتنة عن شأنه فلم يبرح مكانه مطرقًا إلى الماء ليتملى تلك الصورة ويرتوى من النظر إليها، فلا يزيده النظر إلا لهفةً وشوقًا، ولا تزيده اللهفة إلا هُزَالًا، حتى فَنِى. وذهبت عرائس الماء تطلب رُفَاته فلم تجد فى مكانه غير نرجسة مطرقة ترنو إلى الماء ولا ترفع بصرها إلى السماء. فالنرجس أبدًا مطرق مفتوح العين لا يشبع من النظر إلى خياله على حوافى الجداول والغدران". ويقول علماء النفس إن النرجسى مغرم بجسده معجب بنفسه، ومغرور متكبر، ويحب الرئاسة والتسلط، ويرضى عن من يعجبون به، وينفر نفورا شديدا ممن لا يبدى نحوه هذا الإعجاب، ويشعر بحساسية بالغة تجاه من يناله بكلمة، ويبالغ مبالغة كبيرة فى الشعور بأهميته والحديث عن إنجازاته... إلخ.

والواقع أن أبا نواس لم يكن يعشق نفسه بأى معنى ولا كان يتيه أبدا بها فيعذب النساء أو الغلمان الذين يترامَوْن عليه ولا يلتفت إليهم، بل كان هو الذى يسعى خلفهم ويحتال فى ذلك الحيل والألاعيب المخزية. بل لقد كان يصف معشوقه بأنه سيده، ويغلو فى رفع مقامه حتى ليقول إنه على استعداد لعبادته جاعلا من نفسه على هذا النحو عبدا وعابدا، وإن كان هذا كله مجرد شقشقة

باللسان، إلا أن هذه مسألة أخرى. ولم يعرف عنه أنه أعجب ببدنه أو تعرى ليرى هذا البدن جراء ذلك الإعجاب كما يقال عن النرجسيين وما يعانونه من اضطرابات نفسية وسلوكية أو حتى باهى به أو ذكره مجرد ذكرٍ فى أشعاره. كذلك لم يكن أبو نواس مشهورا بالكِبْر أو الغرور أو التمركز حول الذات لا يبالى بأى شىء آخر كما ينبغى أن يكون المصابون بهذا الداء النفسى.

وإذا كان العقاد مثلا قد أورد، خلال حديثه عن نرجسية الشاعر، بعض أبيات له يصف فيها غلاما ممن تعلق بهم بأنه ألثغ دليلا على حرصه على أن يكون الغلمان الذين يعتدى عليهم صورة منه إذ كان هو نفسه ألثغ فالواقع أن هذا الغلام إنما يمثل حالةً واحدةً من حالات عشقه، على حين لم يكن سائر الغلمان الذين تعشَّقهم لُثْغًا. فما العمل إذن؟ أما البُحَّة التى أشار إليها فى غلام آخر، وقد يكون هو نفس الغلام السابق، والتى كانت سمة من سمات صوته هو، فلا أراها دليلا على أنه يطلب الغلمان الذين يشبهونه بل على حرصه على القول بأن ذلك الغلام كان غلاما مثاليا إذ كان قد بلغ الحلم وليس غلاما صغيرا لم ينضج بعد لأن البُحَّة سمة من سمات البلوغ كما أشار فى كلامه. فالبُحَّة التى يتحدث عنها هنا غير البُحَّة التى كانت تلازم صوته طوال عمره. ولنفترض أن الأمر كذلك فيما يخص بحة الصوت فماذا يقول العقاد فى تكرر وصف النواسى للذكران الذين يصبو إليهم بالخنوثة وضخامة العجيزة رغم أنه هو نفسه لم يكن كذلك؟ وبالمثل نراه يكثر من وصف السقاة والغلمان الذين يعشقهم بأنهم أصحاب صوت أغنّ مع أنه هو نفسه لم يكن ذا غُنَّة. ويبقى قول ناقدنا الكبير إن تعلق أبى نواس بجنان سببه أنها كانت امرأة شاذة مثلما هو رجل شاذ. والرد على ذلك هو أن ثم رواية أخرى تقول إن العلاقة الغرامية بينهما قد انتهت بالفشل لعدم نزوله على ما كانت

تشترطه عليه من الكف عن الجرى وراء الغلمان. فأين التوافق أو التشابه بينهما؟ كما أن له شعرا فى مغنية اسمها حُسْن لم يقل أحد إنها منحرفة عن سواء الفطرة.

وأما الحادثة التى تقول إن النواسى ذهب يوما للصلاة خلف إمام قرأ بعد الفاتحة سورة "الكافرون"، وما إن سمعه يتلو قوله تعالى فى أول السورة: "قل يا أيها الكافرون" حتى بادر هاتفا: "لَبَّيك"، والتى يسوقها العقاد سوق المصدق لها متخذا منها برهانا على غرام أبى نواس بالظهور عن طريق مخالفة الناس كى يشتهر بينهم، وهو مما يعده عَرَضًا من أعراض النرجسية، هذه الحادثة لا يمكن تصديقها كما بينتُ قبلا فى هذا الكتاب. وما هى إلا نكتة اخْتُرِعَتْ للتفكهة ليس إلا. وإذا كانت هذه الحادثة ثمرة من ثمار نرجسية الشاعر فما القول فى أشعاره التى يعلن فيها ندمه ويبتهل إلى الله أن يتوب عليه ويرحمه ويغفر له انحرافاته، وقد تكررت فى حياته مرات؟ وبالنسبة إلى قول العقاد إن هجومه على الأطلال إنما هو ضرب آخر من ضروب الولع بالمخالفة التى يراد منها الشهرة بين الناس فقد بينا أن ذلك الهجوم لم يكن عاما شاملا لديه، بل كانت له وقفات متعددة بالديار رغم ذلك.

ومن الطريف أن يستشهد العقاد بالشىء ونقيضه دليلا على هذه السمة، سمة الولع بمخالفة الشائع بين الناس طلبا للشهرة، وذلك حين وقف أمام قصيدة يهدد فيها الشاعرُ إبليسَ بالتوبة والاستقامة إن لم يأت له بالغلام الذى تأبَّى عليه، وأمام قصيدة أخرى جاءه فيها إبليس فى المنام محاولا إغواءه فلم يجد منه نشاطا ولا أذنا صاغية، ومع هذا لم يقنط منه أبو الشياطين بل أعلن أنه لن ييأس، ولسوف ينجح فى إفساده مهما تمسك بالعفة والصلاح. أقول هذا رغم

إيمانى بأن القصتين مخترعتان لا أساس لهما من الواقع بل ابتدعهما صاحبهما ابتداعا للتظرف والإضحاك.

أما د. محمد النويهى فينطلق، فى تحليله لشذوذ الشاعر فى كتابه عن "نفسية أبى نواس"، من أن هناك ثلاثة أنواع من الشذوذ: نوع يسببه التكوين الجسمانى الخاص للفرد، ونوع تنتجه عوامل نفسية معينة، ونوع هو ثمرة الظروف الاجتماعية. وهو يرى أن النوعين الأولين هما الغالبان فى شذوذ أبى نواس، وأن العامل النفسى جاءه من التأثر بأحداث طفولته، إذ توفى والده وهو طفل، ولم يجد فى نشأته الأولى أبا يرعاه، ولم يكن له سوى أمه يلتمس فى صدرها الحماية والغوث، بيد أنها بتزوجها بعد وفاة أبيه قد حرمته ملاذه الأوحد فى طفولته. فكانت غيرته من الرجل الغريب الذى انتزع أمه منه هى العامل النفسانى الذى دس فى عقله الباطن إحساس النفرة من جميع النساء حين صار رجلا، إذ صار يشعر باشمئزاز شديد كلما فكر فى العلاقة الجنسية بين الرجال والنساء. فهذا التفكير يملؤه باستشناع النساء وكراهيتهن لأنه يتمثل أمه الخائنة فى كل أنثى يلقاها. وهو، حين يذكر فى بعض شعره أشياء يكرهها فى النساء، لا يقصد هذه الأشياء حقيقة، بل ما تومئ إليه من الأمومة. فهذا، فى تحليل د. النويهى، هو السبب الباطن العميق لنفوره من النساء وعجزه عنهن.

وسوف أقف فقط لدن التفسير النفسى لكراهية أبى نواس للنساء. وهو تفسير عجيب، إذ ما أكثر من أشبهت حالهم حال أبى نواس ممن مات آباؤهم أو طلق آباؤهم أمهاتهم، وحُرِموا بذلك من عطف الأمومة ويعدون بالمليارات على طول التاريخ، لكن لم يطرأ عليهم شىء من هذا الانحراف. وفوق ذلك فليس لهذا التفسير من معنى إلا تجريم زواج الأم ذات الأولاد إذا طُلِّقَتْ أو مات عنها

زوجها، والدعوة إلى أن تدفن نفسها بالحياة ولا تفكر أبدا فى التزوج من جديد حتى لا تخلق من أبنائها الذكور منحرفين جنسيين، بخلاف الرجال، الذين يمكنهم الزواج مرة أخرى وأخرى وأخرى عند تطليق زوجاتهم أو وفاتهن، بما يعنيه هذا من ذكورية مقيتة جراء ذلك التفكير المبتسَر السطحى الذى يظن أصحابه أنهم يتعمقون فى فهم الحياة والنفوس كما لم يستطعه غيرهم. كذلك فهذا التفسير يعنى بكل قوة أن الأديان والأنظمة الاجتماعية، حين أباحت للأم فى تَينِك الحالتين الزواج من جديد، قد أجرمت فى حق الأولاد أيما إجرام، إذ كانت وراء تصييرهم شذاذا منحرفين.

ثم لو كان هذا التفسير العجيب صحيحا لكان الأحرى أن يعتدى شاعرنا على النساء بدلا من الأولاد انتقاما من أمه، ولَرَحِم الغلمانَ: على الأقل الغلمان الذين تزوجت أمهاتهم من رجال آخرين بعد آبائهم حتى لا يضيف عدوانا جديدا على هؤلاء المساكين إلى العدوان الذى أوقعته بهم أمهاتهم المجرمات. فإذا أضفنا إلى هذا ما قاله فرويد عن غيرة البنات من أمهاتهن على آبائهن ورغبتهن فى قتلهن لم يكن أمامنا سوى أن نمنع النساء من الزواج البتة فنستريح ونريح. وهكذا يرى القارئ كيف أن التسرع فى التحليل النفسى والطنطنة بما يقول به بعض علماء النفس دون تثبت والتعجل فى تطبيقه تطبيقا ساذجا سطحيا يؤدى إلى أغرب النتائج التى لا يمكن أن تخطر على البال.

ثم كيف يكون هذا التحليل سليما، ونحن لا نجد فى شعر أبى نواس إشارة، ولو صغيرة، إلى أمه يعبر بها عن هذه الكراهية المزعومة أو إلى أن النساء خائنات بطبعهن ولا يستحققن أى مقدار من الثقة؟ كما يخلو شعره من أى حنين إلى والده، الذى يرتب د. محمد النويهى على حرمانه منه هذه النتائج البشعة. فلو كان

هذا التحليل مستقيما لألفينا الشاعر دائم النواح على أبيه. ثم ماذا يقول د. النويهى عن شعر النواسى فى جِنَان، التى كان يحبها فى شبابه حبا ملتاعا؟ أيمكن أن يكون هذا الشعر دليلا على بغض الشاعر لجنس النساء؟ كذلك رأينا الرجل بعد مرحلة جنان، التى كان متعلقا بها تعلقا شديدا كما رأينا، يعبر عن فزعه ورعبه من معاشرة النساء لا عن بغضه وحقده عليهن. وشتان هذا وذاك.

على أن ما يقوله د. النويهى لا يتوقف عند هذا الحد، إذ ذكر أن أبا نواس قد تخيل الخمر امرأة وخلع عليها صفات الأنوثة المثيرة التى يجدها الرجال فى المرأة، وأنه فى هذا التخيل الشهوانى للخمر كان يجد فى نفسه إرضاء انفعاليا يعتقد أنه إرضاء جنسى يستعيض به عن الإرضاء الحقيقى الذى عجز عنه فى الواقع. وهو تخبط جديد، إذ لو كان كلامه هذا صحيحا لكان ينبغى أن يجد النواسى فى شرب الخمر إشباعا لشهوته يمنعه من العدوان على الغلمان. أليس كذلك؟ لكن د. النويهى كان يريد التباهى بأنه يتابع أحدث ما قاله علماء النفس، فهو يتسرع دون حساب للعواقب إلى ترديد ما يقولون وتطبيقه بغض النظر عما فيه من عُوَار علمى واضح، فضلا عن صعوبة تطبيق نظريات هؤلاء العلماء على واحد كأبى نواس مات منذ قرون ويوجد التباس فى غير قليل من الأمور المتعلقة بأشعاره ووقائع حياته حسبما وضحنا.

ثم لقد وصف أبو نواس مَزْج الخمر بالماء على أنه تزويج لها منه كما فى البيت التالى:

نُزَوِّجُ الخَمْرَ مِنَ الماءِ فى طاساتِ تِبْرٍ خَمْرُها يفْهَقُ

وكما فى البيت التالى أيضا:

وَعُودُ كَرْمَةِ كَرْخٍ زَوَّجْتُها ماءَ وادِ

وكما فى هذا الحوار بينها وبين الشاعر فى هذا البيت:

قالــت: فَمَــنْ خــاطِبِى هَــذا؟ فَقُلــتُ: أنــا   قالَــت: فَــبَعْلِى؟ قُلــتُ: المــاءُ إن عَــذُبا

بينما نراه فى البيت التالى يؤكد أن بين الاثنين كراهية وشحناء:

بينَ المُـــــدَامِ وبينَ المــــــاءِ شَـــــحْناءُ   تَنْقَـــدُّ غَيظًـــا إذا مـــا مَـــسَّها المـــاءُ

وقال مرة أخرى إنه ابنها وإنه يرضع من ثديها ولا يريد أن يفارق الرضاعة منها أبدا:

أنـــا ابـــنُ الخمـــرِ مـــا لى عـــن غِـــذَاها   إلى وَقْـــــتِ المَنِيـــــةِ مِـــــن فِطَـــــامِ

كما تكرَّر وَصْفُه الخمر بأنها امرأة عجوز عُمْرُها من عمر الدهر. فبِمَ ينبغى أن نخرج من مثل تلك الصور جريا على طريقة د. النويهى؟

وأخيرا فقد لاحظت أن محللى النصوص والوقائع بهذا الشكل يسلكون لإثبات وجهة نظرهم سبلا ملتوية معقدة كلها تعسف، مع تجاهل فى العادة لما لا يتلاءم من تلك النصوص والأحداث مع النظرية التى يفسرونها بها، علاوة على أن النظرية ذاتها تعانى من هذا التعقيد والتعسف الشديدين فى أصلها ومن الاختلاف بشأنها من قِبَل المتخصصين أنفسهم تبعا لاختلاف مدارسهم وعقلياتهم وميولهم. ومن هنا أحب أن يكتفى النقاد الأدبيون من الدراسات النفسية بما قد استقر من مفاهيمها ومصطلحاتها مما يتصل بالعموميات لا بالتفاصيل الدقيقة المتعسفة والملتوية التى يكثر فيها الأخذ والرد ويطول المِرَاء بين علماء النفس ومحلليها أنفسهم.

الفهرست

تنويه ٤

حياة أبى نواس وشخصيته ٥

الفنون الشعرية فى ديوان أبى نواس ٤٣

الحكم على أبى نواس وشعره ١٣٤

حالات أبى نواس النفسية المختلفة ١٥٨

أبو نواس ووالبة بن الحباب ١٧٣

خلف الأحمر واتهامه بتزييف الأشعار ١٨٣

أبو نواس فى مرآة التحليل النفسى ١٨٧